

مجالس النخيل

مِنْ حَدِيثِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ

لِلإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية

الطبعة الأولى

1403
هـ
1983

مجالس النذور

مِنْ حَدِيثِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية

الطبعة الأولى

1403 هـ
1983



حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الشؤون الدينية

رقم الايداع القانوني

39285

و. قسنطينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السنة

كان صلى الله عليه وسلم يذكر بقوله وعمله
وهديه وسمته، وكان ذلك كله منه
على وفق هداية القرآن وحكمه.

عبد الحميد بن باديس

(الشهاب: الجزء 1 المجلد 5)

رمضان 1347 هـ فيفرع 1929 هـ

المقدمة

بقلم السيد :
عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

الحمد لله رب العالمين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على كل دين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ابن عبد الله ، خاتم الانبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سنته الى يوم الدين .

من فضل الله على الجزائر ، أن قيض لها ابنها البار ، عبد الحميد بن باديس الذي دعاها لما يحييها ، بما تستجيب له فطرتها ، وهو دينها القويم وهدى سلفها الصالح .

فقد تصدى لتدريس العلوم العربية والاسلامية المختلفة ، بالجامع الاخضر في قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائري ، منذ عودته من الحجاز ، سنة 1913 م ، بعد أدائه فريضة الحج ؛ فختم تفسير القرآن الكريم ، تدريسا ، في خمسة وعشرين عاما ، وذلك سنة 1357 هـ (1938 م) .

وقد أقيم ، بتلك المناسبة ، بقسنطينة ، احتفال وطني عظيم حضرته وفود عن أنحاء القطر الجزائري .

وفي السنة الموالية ، أقيم احتفال ثان ، بالمدينة ذاتها ، بمناسبة ختمه كتاب « الموطأ » للإمام مالك في الحديث النبوي الشريف .

وقد كان احتفال الامة بهذين العدثين المشهودين ، اللذين اهتزت لهما الجزائر كلها ، « عهدا » منها لإمامها ، على مواصلة السير ، معه وبعده ، نحو الحياة الحرة الكريمة ، على هدي كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم .

وقسر الامام ابن باديس ، الى جانب ذلك ، بقلمه مجموعة من الآيات القرآنية الكريمة ، والاحاديث النبوية الشريفة ، ونشرها افتتاحيات في مجلته « الشهاب » ، تحت عنوان : « **مجالس التذكير ، من كلام الحكيم الخبير ، وحديث البشير النذير** » .

وقد كان لهذه الدروس ، الشفوية والكتابية ، أثر بالغ في نفوس المستضيئين بها ، في تلك الحقبة المظلمة ، سواء من كان يحضر دروسه التعليمية ، من طلبته النظاميين ، وطلاب المعرفة الاسلامية أو من كان يتابعها في افتتاحيات مجلة « الشهاب » الشهرية ؛ فكانت ، بحق ، الشرارة الاولى التي فجرت النهضة الاصلاحية الحديثة في الجزائر .

وتعميما لفائدة هذا الاثر العلمي النفيس ، وحرصا على تعريف اجيال الاستقلال بأثار سلفها الصالح ، من العلماء العاملين ، أصدرنا القسم الاول الخاص بالآيات القرآنية المفسرة ، المنشورة في مجلة « الشهاب » في كتاب « **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير** » بمناسبة الذكرى العشرين للاستقلال الوطني .

وها نحن ، بعون الله وتوفيقه ، نصدر القسم الثاني ، الخاص بالاحاديث النبوية المشروحة وغيرها من الآثار المتعلقة

بالسنة وصاحبها ، صلى الله عليه وسلم ، التي نشرت في مجلة « الشهاب » ، وفي غيرها من جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، في كتاب « مجالس التذكير من حديث البشير النذير » ، بمناسبة الذكرى الثالثة والاربعين لوفاة ابن باديس رحمه الله تعالى .

وبإصدارنا لهذا الجزء الثاني من كتاب « مجالس التذكير » نكون قد قدمنا لتلاميذ الامام ابن باديس ، وإلى قراء مجلته « الشهاب » - الذين كانوا يتلقون عنه دروسا حية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، في نطاق محدود في الزمان والمكان - فرصة جديدة مديدة للاستفادة من عطاء أستاذهم الحكيم متبى أرادوا وحيثما وجدوا ؛ كما نقدم في الوقت ذاته ، إلى الوعاظ والمربين ، وإلى الاجيال الحاضرة والقادمة بصفة عامة - منارة تهدي ، وثمره تغذي ، واسوة تحقق لطلابها ما ينشدون من صلاح وفلاح بعون الله تعالى وتوفيقه .

هـ - وانه لمن دواعي الارتياح ، أن يظهر هذا الاثر العلمي ، في هذه الحقبة من حياتنا الوطنية ، التي تسعى فيها الثورة الجزائرية الى تعميق أسس شخصيتنا العربية الاسلامية ، وإلى توطيد أركان الاستقرار النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وتهيئة المناخ الصحي الذي يمكن أجيالنا القادمة من العمل الجاد المنتج ، الذي يضمن للفرد والمجتمع ، الطمأنينة والرخاء والاستقرار .

فإلى جانب العمل من أجل النهوض بالصناعة والزراعة والصحة والسكن والتربية والتعليم :- جُدد المجلس الاسلامي الاعلى ، ليواصل نشاطه ، في مختلف مجالاته واختصاصاته ،

للهوض بحياتنا الروحية ؛ وظهرت الصحيفة الاسلامية الجامعة
« العصر » الاسبوعية ، تعزز نشر الوعي الاسلامي الصحيح ،
في مختلف أنحاء الوطن ؛ وصُودق على ملفات الثقافة، والإعلام،
والشباب ؛ ونُصِّب المجلس الاعلى للغة الوطنية ، والمجلس الاعلى
للشباب ؛ واتخذت قرارات بشأن اجبارية المواد الدينية في
الامتحانات ؛ وافتتح ، بجامعة الجزائر ، معهد العلوم الاسلامية،
النواة الاولى « للجامعة الاسلامية الجزائرية » ، كما درس ملف
قانون الاسرة وفق مبادئ الشريعة الاسلامية .

﴿٣﴾ ان سير الجزائر ، نحو التقدم والازدهار ، على هدى كتاب
الله ، وسنة رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، هو الذى
يضمن النجاح لما تنجز من أعمال ، وتخطط من مشاريع ؛ قال
الله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » (*).

وقال عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا
بعدهما : كتاب الله وسنتي » (**).

نعم ! ان الذى يحقق لنا القوة والمناعة والازدهار ، ويضمن
النجاح لما نسعى الى تحقيقه من مشاريع وأهداف ، فى مختلف
مجالات الحياة المادية والروحية ، هو انطلاقنا من قاعدة صلبة،
وعقيدة أصيلة واضحة ، تتخذ « القرآن الكريم مصدرا للفكر ،
والسنة النبوية الشريفة دليلا للعمل » ، كما أكد ذلك السيد
الرئيس الشاذلى بن جديد ، رئيس الجمهورية ، الامين العام
لحزب جبهة التحرير الوطنى .

(*) سورة الاسراء 9 .

(**) رواه الحاكم عن أبى هريرة فى (فيض القدير) .

فالاسلام هو الذى حفظ لشعبنا شخصيته ، بالرغم مما تعرض له ، طوال عهود الانحطاط والاحتلال ، من عوامل الفناء والاضمحلال؛ والاسلام ، هو الذى جعله يعي ذاته ؛ ويناضل من أجل حياة حرة كريمة ، عند ما وجد من يريه ان التمسك باسلامه عن وعي وبصيرة ، هو الكفيل بأن يغير أوضاعه من حال الضعف الى القوة ، ومن اليأس الى الرجاء ، ومن الركود الى العمل ، ومن الاضطهاد والهوان ، الى الحرية والكرامة؛ فاليك - أيها القارئ الكريم - تصوير الإمام ابن باديس لما كان لثورة الاصلاح الدينى من أثر بالغ فى النفوس والعقول ، أخرج الجزائر من سباتها الطويل ، وما صاحبها من شلل عام للطاقت ، الى نور الصحو الدافعة الى الانطلاق والحياة ، اذ يقول ، مخاطباً الشعب الجزائرى فى المؤتمر السنوى لجمعية العلماء، سنة 1937م :

« ... حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسح فيكم نطقها ؛ فجئتم ، بعد قرن ، تصدح بلبلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها ، فتدك الحصون والمعازل ، ويهز كتابكم أعلامها ، فتصيب الكلى والمفاصل .

« وحارب فيكم الاسلام حتى ظن أن قد طُمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه ؛ فجئتم بعد قرن ، ترفعون علم التوحيد ، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد ، وتدعون الى الاسلام ، كما جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لا كما حرفة الجاهلون وشوّهه الدجالون ورضيه أعداؤه .

« وحارب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة ، ونسيتم كل علم الا ما يرشح به لكم ، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم ؛ فجئتم بعد قرن ،

ترفعون للعلم بناءً شامخاً ، وستدنون له صرحاً سامعاً ، فاستم
على قواعد الاسلام والعروبة والعلم والفضيلة ، جمعيتكم هذه ،
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

« وهوربت فيكم الفضيلة ، فستم الخسف ، وديتتم بالصغار
حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة ، وفارقتكم العزة
والكرامة ، فرمتهم الضيم ، ورضيتهم الحيف ، وأعطيتهم بالمقادة ؛
لجئتم بعد قرن ، تنفضون غبار الذل ، وتهززون أسس الظلم
وتهمهمون مهمة الكريم المحقق ، وتزمرجون زمجرة العزيز
المهان ، وتطالبون مطالبة من يعرف له حقاً لا بد أن يعطاه
او يأخذه » (2) .

حقاً ! لقد كانت الجزائر في وضع يهدد كيانها بالذوبان
والفناء ، ذلك أن الاستعمار الفرنسي ، كما يقول الامام محمد
البشير الابراهيمي : « ... صليبي النزعة ، فهو منذ احتل
الجزائر عامل على محو الاسلام ، لأنه الدين السماوي الذي فيه
من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم ، وعلى محو العربية
لأنها لسان الاسلام ، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الاسلام .
وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ، ظاهرة وخفية ،
سريعة ومتأنية ، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن
متصل الايام والليالي ، في أعمال المحو ، لولا أن عاجلته جمعية
العلماء المسلمين الجزائريين ، على رأس القرن ، بالمقاومة
لأعماله ، والعمل على تخريب آماله » (3) .

لقد كانت نظرة ابن باديس الناقدة النافذة ، تكشف له عما
يكمن في الامة الجزائرية من عناصر القوة والكمال ، مما يؤهلها

(2) البصائر . السنة الثانية - العدد 83 - رجب 1356 هـ (سبتمبر 1937م)

(3) مشكلة العروبة في الجزائر . محاضرة ألقاها في ندوة الاصفياء ، ص 207

دار مصر للطباعة . عام 1955 .

للحياة المزيرة الكريمة . فوضع منهاجه الاصلاحى العام القائم على الكتاب والسنة ، فكان شماره فى دعوته الى الحياة : « لَا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا^(*) » ، فالتغيير عنده ، انما هو استجابة طبيعية من الامة ، للحياة متى أحيينا فيها قيم الاسلام ومبادئه السامية ؛ فتغير ما بنفسها ، ليغير الله ما بها ؛ فالدين هو الأساس الأول لكل إصلاح وتغيير ، وقد قال ، موضعاً ذلك ، ومعللاً اختياره الدين ، على السياسة ، للنهوض بالامة : « وبعد ، فاننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها ، عن علم وبصيرة وتمسكاً بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد ، وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير فى خط مستقيم . وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له ، من خدمة العلم والدين ، وفى خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للانسانية عامة .

«ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسى لدخلناه جهراً ، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا ، من ثباتنا وتضحيتنا ، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ، ولكان أسهل شئ علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها ، وأن نبلغ من نفوسها الى أقصى غايات التأثير عليها ؛ فان مما نعلمه ، ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذى يقول للأمة : « إِنَّكَ مَظْلُومَةٌ فى حقوقك » ، وإننى أريد إيصالك اليها » يجد منها ما لا يجده من يقول لها : « إِنَّكَ ضَالَةٌ عَنْ أَصُولِ دِينِكَ » ، وإننى أريد هدايتك » ؛ فذلك تلييه كلها ، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها وهذا كله نعلمه ، ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبيتنا ، واننا - فيما اخترناه - باذن الله ، لماضون ، وعليه متوكّلون » (4) .

(*) قوله للامام مالك رضى الله عنه .

(4) الصراط السوى . السنة الاولى - العدد 15 - قسنطينة . رمضان 1352هـ

(ديسمبر 1933 م) .

على أن اعتماد ابن باديس ، الدين ، أساسا للنهوض بالامة ، لم يكن منه ، تزهيدا في السياسة ؛ بل انه يرى أن النضال من أجل الحرية والسيادة واحد ، وان تعددت مجالاته ، وتنوعت أساليبه ؛ فالدين والسياسة ، عنده ، متكاملان متلازمان ، وقد كانت كل أعماله تؤكد ما قاله ، في محاضرة بعنوان : « العلم والسياسة » ، ألقاها بتونس ، على جمعية الطلبة الجزائريين بالزيتونة - الذين يعدون واخوانهم بالجامع الاخضر ، والقرويين والازهر ، من طلائع النهضة العلمية والوطنية بالجزائر - فقد قال :

« ... وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا . وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول ، لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة ، مع أنه لابد من الجمع بين العلم والسياسة ، ولا ينهض العلم والدين ، كل النهوض ، إلا اذا نهضت السياسة بجدر !! » (5) .

وقد أكد عمق هذه النظرة الى الاصلاح ، وشمولييتها في الوقت نفسه ، محمد البشير الأبراهيمي ، الذي قال ، في خطبة بعنوان « الاصلاح الديني لا يتم الا بالاصلاح الاجتماعي » ، منددا بالذين يريدون أن يقتصر نشاط الجمعية على الدين وحده بمفهومه الضيق : « ... ويا ويح الجاهلين أريدون من كلمة الاصلاح أن نقول للمسلم قل :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُذْعِنًا طَائِعًا ، وَصَلِّ لِرَبِّكَ أَوْآهَا خَاشِعًا ، وَصُمْ لَهُ مَبْتَهَلًا ضَارِعًا ، وَحُجَّ بَيْتَ اللَّهِ أَوْآبَا رَاجِعًا ، ثم كن ما شئت

(5) البصائر . السنة الثانية - العدد 71 - يونيو 1937 م .

نَهْبُهُ لِلنَّاهِبِ، وَغَنِيمَةُ لِلغَاصِبِ وَمَطِيَّةٌ ذُلُولًا لِلرَّاكِبِ . ان كان هذا ما يريدون فلا ولا قرة عين ؛ وانما نقول للمسلم اذا فصلنا : كن رجلاً عزيزاً قوياً عالمًا هادياً محسناً كسوباً معطياً من نفسك، آخذاً لها ، عارفاً للحياة ، سَبَّاقاً في ميادينها ، صادقاً صابراً ، هَيِّئْنا اذا أريد منك الخيرُ ، صلباً اذا أردت على الشر. ونقول له ، اذا أَجْمَلْنَا : كن مسلماً كما يريدُ منك القرآنُ ، وَكَفَى « (6) .

ولكن ، أى اسلام هذا الذى يُحْيِي الأمم بعد موتها ، عند ابن باديس ؟ انه الاسلام بمفهومه الصحيح ، عقيدةً ، وعبادةً ، ومنهاجاً كاملاً شاملاً للحياة ، يغنى عن كل المناهج ، ولا يغني عنه أي منهج !

« ان الاسلام عقدٌ اجتماعي عامٌ ، فيه جميعُ ما يحتاجُ اليه الإنسانُ ، في جميع نواحي الحياة ، لسعادته ، ورقته ، وقد دَلَّت تجاربُ الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة ، على أن لا نَجاةَ للعالمِ مما هو فيه ، الا بإصلاحِ عامٍ ، على مبادئ الاسلام ؛ فالمسلمُ الفقيهُ في الإسلام ، غنَىَّ به عن كل مذهبٍ من مذاهبِ الحياةِ » (7) .

وهذا الفهم العميق ، الشامل للاسلام ، جعله يصيح في الناس أن هناك فرقاً جوهرياً بين اسلامين : اسلام وراثي واسلام ذاتي : « ... فالاسلام الورااثي حفظٌ على الأمم الضعيفة المتمسكة به ، وخصوصاً العربية منها ، شخصيتها ولغتها ، وشيئاً

(6) آثار الشيخ البشير الأبراهيمي - الجزء الاول . الطبعة الاول - ص 216
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر .

(7) الشهاب : ج 3 ، م 12 .

كثيراً من الأخلاق ترجع به ، لكن هذا الاسلام الوراثي لا يمكن
ان ينهض بالأمم ، لأن الامم لا تنهض الا بعد تنبيه افكارها
وتفتيح انظارها ، والاسلام الوراثي مبني على الجمود والتقليد ،
فلا فكر ولا نظر ! » (8) .

«...والاسلام الذاتى ، هو اسلامٌ من يفهم قواعد الاسلام ، ويدرك
معاسن الاسلام ، فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ،
ويتفقه ، حسب طاقته ، فى الآيات القرآنية ، والأحاديث
النبوية ، ويبنى ذلك كله ، على الفكر والنظر ، فيفرق بين
ما هو من الإسلام ، بحسنه وبرهانه ، وما ليس منه ، بقبحه
وبطلانه ؛ فيحيا حياة فكر وإيمان وعمل » (9) .

وكان من مقتضيات الدعوة التى قام بها الامام ابن باديس
للهوض بالامة ، ان يعمل فى جبهات كثيرة ، ومجالات مختلفة ؛
فاتصل بالزوايا ، معاقل المحافظة على القرآن الكريم والثقافة
الاسلامية ، وأثر فيها ؛ فجددت من أساليبها وحسنتها ، وبعثت
بأبنائها ليدرسوا عنه بقسنطينة ، واصبحوا دعاة للاصلاح ، كما
حارب بعض المنتظمين الى الدين من الجامدين المتعاملين مع الاستعمار ،
الذى أدرك خطورة هذه الحركة الاصلاحية على وجوده فى
الجزائر ؛ فعمل على ايقاف زحفها بكل أساليب الترغيب
والترهيب ؛ فاذا ارتفعت أصوات الشعب عاليا ، تطالب بحقوقها
فى الحياة ، سارع الى توزيع المواد الغذائية لاسكاتها ، زاعما
ان الدافع لارتفاع تلك الاصوات هو البطون الجائعة ، فيفصح
ابن باديس ذلك الزعم بكلمة عنوانها : «ليس الخبز كل ما نريد»

(8) الشهاب : ج 3 ، المجلد 14 ، ص 105 .

(9) الشهاب : ج 3 ، المجلد 14 ، ص 105 .

جاء فيها: « ... جهل قوم من ذوى السلطة فحسبوا - وهم
جد عالمين بما فيه الأمة من جوع وفاقة - أننا قوم لا نريد
الا الخبز ، وان الخبز عندنا هو كل شيء ، واننا اذا ملئنا
بطوننا مهّدنا ظهورنا ، وانهم اذا أعطونا الخبز فقد أعطونا
كل ما نطلب ، اذ الخبز - فى زعمهم - هو كل ما نريد ، فاذا
حدثناهم فى حالنا سكتوا عن كل شيء إلا عن الجوع والخبز ...
« ... لا يا قوم اننا أحياء ، واننا نريد الحياة وللحياة خلقنا ،
وان الحياة لا تكون بالخبز وحده ، فهناك ما علمتم من مطالبنا
العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكلها
ضروريات فى الحياة ، ونحن نفهم جيّدا ضرورتها للحياة .
وقد بذلنا فيها لكم ما كان - يوما - سبباً قوياً فى حياتكم ،
فلا تبخلوا علينا اليوم بما فيه حياتنا ، ان كنتم مُنصفين ،
وللأيام والأمم مقدرين .

وإِلَّا فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » (10) .

واذا لم يفلح المستعمر فى كبت أصوات الحق بملء البطون
عمد الى ملء السجون ، برجال السياسة والعلماء الاحرار ،
ليشنى الامة عن عزيمتها ، لكن ابن باديس يحول تلك الويلات
الى مصدر تفاؤل ، يقوى الارادات ، ويبشر بالنصر القريب ؛
فيعلن أن الحياة لا تكون شيئاً الا اذا ازدانت بالخطوب ، وحفت
بالمكاره ، ويقرر أن السعادة انما هى فى التضحية والآلام ،
لا فى السلامة والنعيم ؛ فانظر اليه كيف يهنئ أمة المجاهدة
بعيد الفطر المبارك ، اذ يقول :

(10) الشهاب : ج 9 ، المجلد 12 - رمضان 1355 هـ / ديسمبر 1936 م .

« كنا قبلَ اليوم ، نهنيءُ الأمةَ الجزائرية ، بمثل هذا العيد
وليس لها من مظاهر السعادة إلا ما نرجوه لها ونأملُ ؛ أما اليوم ،
وهي في طور جديد من أطوار حياتها ، هو أساس سعادتها ،
طورٌ سامت به شقيقاتها ، هنا وهناك ؛ فنهنيئُها ، ومن أبنائها
من هو سجين في سبيل العلم والهداية ، ومن هو سجين في سبيل
السياسة والحقوق المفضوبة ، وأمة أخذت تقدم الضحايا في سبيل
سعادتها ، حقيقة بأن تنال السعادة وتنهأ بها ... » (12) .

* * *

وقد صدقت الايام رأي إمامنا الحكيم ؛ فان الجزائر لم
تنتزع استقلالها وحريتها ، ولم تحقق سيادتها الكاملة
إلا بتضحيات جسام ، تتمثل في مليون ونصف مليون من الشهداء
الابرار ، فليس غريبا أن تكرم الثورة الجزائرية الوفيحة
لمبادئها ؛ فتربط ، في عهد الاستقلال ، ذكرى وفاته (16 افريل)
بيوم « العلم » ، معبرة بذلك على أكثر من مغزى :

فاحتفال الجزائر بيوم العلم ، في ذكرى وفاته ، إنما هو
احتفاء بالمعاني التي يمثلها ابن باديس : احتفاء بالعلم الذي
لا يتم شيء صالح للإنسان ، في حياته المادية والروحية ،
بدونه ؛ واحتفاء بقيم الشعب التي مثلها ، إيماننا وسلوكنا ؛
واحتفاء بالتفاني في الجهاد من أجل الشعب والوطن .

فابن باديس خير أنموذج يحتذيه شباب الجزائر ، في الحاضر
والمستقبل ، كما عبر عن ذلك ، شاعر النهضة الجزائرية
الحديثة ، محمد العيد خليفة - رحمه الله - في مناجاته
لروح الامام الراحل اذ يقول :

عبد الحميد لعلّ ذكرَكَ خالدٌ ولعلّ نزلَكَ جنّةٌ وحريرٌ
ولعلّ غرسَكَ فى القرائحِ مثيرٌ ولعلّ وريكَ للعقولِ منيرٌ
نمّ هادئاً؛ فالشعبُ بعدَكَ راشدٌ يختطّ نهجَكَ فى الهدى ويسيرُ

لا تخشَ ضيعةً ما تركتَ لنا سدى
فالوارثونَ لما تركتَ كثيرٌ (13)

لقد كان الامام عبد الحميد بن باديس يؤمن ، ايماناً قويا ،
بان نهضة الجزائر ، من كبوتها ، لن تكون الا على سواعد شبابها؛
فعمل على اعداده - تعليماً وتهذيباً - بواسطة مساجد الوعظ
والارشاد ، ومدارس التربية والتعليم ، ووادى الثقيف
والتوجيه ، وجمعيات التكوين والتنظيم، والصحف والمجلات ،
لتحرير الوطن من اغلال الاحتلال والاضطهاد ، مزودا بالاسلحة
الضرورية لتحقيق النصر !

يَا نَشْرُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا وَبِكَ الصَّبَاحُ قَدْ اقْتَرَبُ
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلَاحَهَا وَخُضِ الْخُطُوبَ وَلَا تَهَبْ
وقد طبق رجال ثورة نوفمبر الظافرة خطته المحكمة هذه
- بعد أربعة عشر عاماً من وفاته - وهى تتمثل فى :

أ - سحق الظالمين المحتلين :

وَأَذِقْ نَفْسَ الظَّالِمِينَ السُّمَّ يُمَزَجُ بِالرَّهَبِ

ب - استئصال جذور الخائنين الذين أعمتهم أنانيتهم عن
واجبهم الوطنى المقدس :

وَاقْلَعْ جُذُورَ الْخَائِنِينَ مِنْهُمْ كُلَّ الْعَطَبِ

(13) من مقطوعة ارتجلها الشاعر عندما وقف ، لأول مرة ، على قبر الامام .
وقد نقشت على رخامة ضريحه .

ج - تعبئة الجامدين حتى يكونوا للوطن لا مع أعدائه :
واهزُّزْ نفوسَ الجامِديْنَ فربُّما حييَ الخشبُ
د - أن يكون الاستقلال وسيلة الى بناء مجتمع الكفاية
والعدل :

وارْفَعَ منارَ العدلِ والإِحسانِ وَاصْدَمَ مَنْ غَصَبَ

* * *

مادة الكتاب ، ومنهاج الامام فى شرح الحديث :

هذا ؛ وقد اعتمدنا ، فى اعداد هذا الكتاب :

I - الاحاديث النبوية التى شرحها الامام ابن باديس فى
مجلته « الشهاب » ، تحت عنوان : « مجالس التذكير من كلام
الحكيم الخبير وحديث البشير النذير » .

2 - كل ما عثرنا عليه من آثاره المكتوبة ، حول السنة النبوية
وصاحبها ، صلى الله عليه وسلم ، المنشورة منها والمنظومة ؛
مما نشر فى مجلته « الشهاب » ، وفى جرائد جمعية العلماء ،
المتعاقبة فى الصدور ، كالسنة والبصائر وغيرهما .

* * *

أما منهجه فى شرح الحديث ، فيتمثل فى الخطوات التالية :

أ - تمهيد : يهيىء القارئ لادراك الموضوع الذى يعالجه
الحديث النبوى .

ب - السند : يذكر فيه الرجال الذين رواوا الحديث ،
ومصادره ورتبته العلمية والعملية .

ج - المتن : يتعرض فيه الى ألفاظ الحديث وعباراته ، وإلى
مختلف الروايات التى ترد بها بعض الاحاديث .

د - الالفاظ والتراكيب : يشرح الفاظ الحديث شرحا لغويا يبرز معانيها ، فى عبارات واضحة ، تساعد على فهم الحديث ، متعرضا - فى بعض الاحيان - الى ما يتصل ببعض التراكيب من قواعد اللغة وبلاغتها ، لمزيد من الايضاح والبيان .

هـ - المعنى : يعتمد فيه الى ايضاح المعنى العام للحديث ، يستوعب عناصره الاساسية ، ويتعرض لمختلف الواجه التى ترد بها بعض الاحاديث ، فى تركيز واعتدال .

و - استنباطات : يستنبط ما يرشد اليه الحديث النبوى من حقائق وأحكام وقيم مختلفة ، نفسية وأخلاقية واجتماعية وتاريخية وتشريعية وكونية ؛ مطبقا ذلك كله على البيئـة الجزائرية والامة الاسلامية ، والمجموعة الانسانية ، على غرار منهاجه فى تفسير القرآن الكريم .

وهذه الخطوات ، كما نرى ، منهجية تربوية شاملة ، تربط الماضى بالحاضر ، وتطبق الاحكام المستنبطة على الواقع العملى ؛ وتوجه الى مواطن القدوة والاسوة ، ببيان ما قامت عليه الاحكام الشرعية ، والآداب الاسلامية ، من علل وأسباب ، وما ترمى اليه من حكم ومقاصد ؛ كل ذلك بأسلوب عربى مبين ، تتقبله القلوب والعقول بالرضا والانشراح ، والاقتناع بأن مبادئ الاسلام ، هى الكفيلة باسعاد المؤمنين العاملين بهديها ، من الافراد والجماعات ، فى كل زمان ومكان .

* * *

ومن المفيد أن نسجل لناشئتنا ، الحريصة على معرفة تاريخ الدعوة الاسلامية ورجالها ، أن المنهاج الذى اعتمده ابن باديس وصحبه ، من علماء الاصلاح بالمغرب الاسلامى ، انما هو امتداد مبارك للثورة الاسلامية التى فجرتها روح الافغانى ،

وأرست دعائمها عبقرية الامام عبده والشيخ رشيد رضا ،
بالمشرق الاسلامي ...

وقد سجل هذه الحقيقة الشيخ المرحوم محمد العيد ، اذ يقول
مخاطبا ابن باديس ، في الحفل الذي أقيم له بمناسبة ختمه
تفسير القرآن الكريم :

حَكَيْتَ جَمَالَ الدِّينِ فِي نَظَرَاتِهِ
كَأَنَّ جَمَالَ الدِّينِ فِيكَ مَصَوَّرُ (14)

وأشبهت في فقهه الشريعة عبده
فهل كُنْتَهُ؟ أم عبْدُهُ فيكَ يُنْشَرُ ؟

ومما يجب أن تعرفه ناشئتنا ، أيضا ، أن امامنا ابن باديس
لم يحقق للجزائر نهضتها المباركة ، على أساس متين من كتاب
الله وهدى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، الا بالتعاون المتين
مع اخوانه العلماء العاملين ؛ فقد قال ، رحمه الله ، في معرض
الحديث عن كان لهم الفضل في تكوينه ونجاحه في أعماله ،
بعد والديه ومشائخه ، ومشيدا بالروح الجماعية العالية التي
تربط بين العلماء الجزائريين في عهده :

« ... ثم (الفضل) لـ اخواني العلماء الافاضل الذين
وازروني في العمل ، منذ فجر النهضة الى الآن ؛ فمن حسن حظ
الجزائر السعيد ، ومن مفاخرها التي تتيه بها على الاقطار ، أنه
لم يجتمع ، في بلد من بلدان الاسلام - فيما رأينا وسمعنا
وقرأنا - مجموعة من العلماء ، وافرة الحظ من العلم ، مؤتلفة
القصد والاتجاه ، مخلصه النية ، متينة العزائم ، متحاببة في
الحق ، مجتمعة القلوب على الاسلام والعربية ... قد ألف بينها
العلم والعمل مثلما اجتمع للجزائر في علمائها الابرار ؛

(14) ديوان محمد العيد ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1967 - ص 156 .

فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادي ، وتائل بطارهم تلادي .
اطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم « (15) .

رحم الله ابن باديس ؛ فقد قضى كل حياته المباركة ، من أجل الاسلام والجزائر ، في جهاد مستمر كالزمان ، وثبات لا يتزعزع كالجبل ، وايمان لا يتغير كالحق ، ما أحجم عن غايته يوما ، ولا عاقه عن أداء واجبه وعد أو وعيد ، ولا نال من نفسه الابية ترغيب أو ترهيب ؛ بل ظل يواصل ثورته الاصلاحية الشاملة ، حتى النفس الاخير من عمره ، الطافح بجلائل الاعمال ، وحميد الخصال ؛ مما يجعل ذكره حية في النفوس ، وذكره أنشودة ترددها الالسنه والاقلام ، بحسب واعتزاز ، قال الله تعالى : « **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** » (16) .

وقال عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : « **ان الله تعالى اذا أحب عبدا ، دعا جبريل عليه السلام ، فقال : إني أحب فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل ؛ ثم يُنادي في السماء ، فيقول : إن الله يحب فلانا ، فأحبّوه ؛ فيحبّه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض** » .

* * *

ذلكم ، أيها القراء الكرام ، الامام عبد الحميد بن باديس ، يقدم اليكم نفسه بنفسه ، بما يساعدكم على فهم كتابه : « **مجالس التذكير من حديث البشير النذير** » وغيره من آثاره .

والله نسأل أن يجعلنا خير خلف لخير سلف ، عقيدة وجهادا من أجل الخير والحق والعدل ؛ وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين .
عبد الرحمن شيبان

(15) ش : ج 4 ، م 14 - جمادى الاولى 1357 هـ - جوان 1938 م .

(16) سورة مريم - الآية 96 - تفسير القرطبي .

اقسام الكتاب

القسم الاول : مجالس التذكير من حديث البشير النذير .

يتضمن الاحاديث التي شرحها الامام ابن باديس في مجلة « الشهاب » تحت هذا العنوان .

القسم الثاني : احاديث في أغراض مختلفة .

يتضمن موضوعات تدور حول احاديث نبوية شريفة نشرت في « الشهاب » وغيرها .

القسم الثالث : موضوعات متصلة بالسنة .

جمعت من مختلف صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القسم الرابع : موضوعات متصلة بصاحب السنة صلى الله عليه وآله وسلم .

يتضمن مقالات وقطعا شعرية كتبها الامام ابن باديس بمناسبة ذكريات المولد النبوي الشريف ، ونشرت في مختلف صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

القسم الخامس : الملحقات .

درس ختم الموطأ - الاحتفال بختم الموطأ - المصلحون والسنة

مجالس التذكير

ننشر في هذا الباب من (مجلة الشهاب)
ما فيه تبصرة للعقول ، أو تهذيب
للنفوس من تفسير آية كريمة ، أو
حديث شريف ، أو توضيح لمسألة في أصول
العقائد أو أصول الاعمال معترضين بأنظار
أئمة السلف الذين لا يرتاب في رسوخ علمهم ،
وكمال إيمانهم ، وأئمة الخلف الذين درجوا
على هديهم في نمط وسط بين الاستقصاء
والتقصير .

عبد الحميد بن باديس

الشهاب ج I ، م 5

رمضان 1347 هـ ، فيفري 1929 م

خطبة الافتتاح

« نورد فيما يلي الخطبة التي يفتح بها الشيخ
ابن باديس درسه في التفسير والحديث »

* * *

الحمد لله نعمده ونستعينه ، ونستغفره
ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ،
وسيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له
ومن يضلل فلا هادي له ...

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك
له . وأن محمدا عبده ورسوله ..

أما بعد فان احسن الحديث كتاب الله وخير
الهدى هدى محمد - صلى الله عليه وآله
وسلم - وشر الامور محدثاتها وكل بدعة
ضلالة وكل ضلالة في النار ...

مجالس التذكير من حديث البشير النذير

الآية الخالدة لنبوة خاتم الانبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم -

أبو هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّْ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

* * *

لما كان المقصود من الرسالة هو هداية الخلق ، وإقامة الحجة عليهم ، كان الرسل (ص) أكمل الناس في أخلاقهم ، وانزههم في سيرتهم ، معروفين بذلك بين أقوامهم قبل نبوتهم ، ثم اذا بعثهم الله تعالى آتاهم من العلم وقوة الإدراك ووضوح البيان ما تنهض به حجتهم ، وتتضح به دعوتهم ، ويقطع بكل من يعارضهم بشبهة ، ويموه بباطل . واذا قرأت ما قصه علينا القرآن العظيم من مواقف الانبياء في دعوتهم لأقوامهم - رأيت كيف أنهم كانوا يدعون الناس بالحجج والبراهين ، والادلة العقلية الجليلة ، وأنهم كانوا اذا سئلوا الآيات المعجزات الخارقة للعادة ردوا الامر الى الله ، ونفوا أن تكون لهم قدرة على الاتيان

بها الا باذن الله كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . فيظهر الله على ايديهم الآيات تأييدا لهم وتخويفا لأقوامهم ، وقطعا لمشاغبتهم ، فيخضع لها بعضهم ، ويسقمر الاكثرون على العناد، فما من نبي من الانبياء الا وقد أعطاه الله من الآيات والمعجزات ما مثله في وضوحه وظهوره ، والمعجز عن معارضته ما يؤمن عليه العباد ، ويتفقون عليه لولا ما يصددهم عنه من العناد، وهو معنى قوله (ص) : (ما من الانبياء نبي الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر) .

والنبي - ص - قد أوتى مثل هذه الآيات ، وقد نقل الكثير منها كثير من أصحابه - ض - واشتهرت عند أئمة الحديث والنقل ، غير أن آيته الخالدة العامة الدائمة كعموم رسالته ودوامها هي : القرآن العظيم ، وهو الوحي الذي أوحاه الله اليه، فهي المعول عليها في دوام الحجة على تعاقب العصور والاجيال، اذ لا يقوم غيرها مقامها في بقائها مشاهدة لجميع الناس، ولذا حصر آيته فيها فقال : (وانما كان الذي أوتيته - وحيا أوحاه الله اليّ) .

« تفرقة وترجيح » :

آيات الرسل (ص) كانت معجزات كونية لا يشهداها الا من حضرها ثم تبقى أخبارا يمكن للجاحد انكارها ، ويتأتى للمشاغب أن يصنع من الخزعبلات والمخارق ما يموه به على ضعفه العقول ويدعى مُمَآثِلَتِهَا . وآية النبي - ص - وهي القرآن العظيم - معجزة علمية عقلية يخضع لسلطانها كل من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها ، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سورة العرب على ما كان من حميتها وأنفتها وشدة رغبتها في ابطالها لو وجدت سبيلا

اليها فقط .- بل لا تستطيع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج اليها البشر في كمالهم وسعادتهم افرادا وجماعات وامما ، وما اشتملت عليه من الادلة القاطعة والحكم الباهرة ، في كل ما دعت اليه الى ما اشتملت عليه من حقائق كونية كانت مجهولة عند البشر حتى كشفها العلم في هذا العصر مثل انبياء الخلق كله على أساس الزوجية في أشياء كثيرة . مصداق قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فبهذا كانت آية النبي - ص - أعظم الآيات وأبقاها ، وكانت مغنية عن غيرها كافية عما عداها .- كما قال الله تعالى : « أُولَئِكَ يَكْفِيهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » .

« تفریع » :

لما بقيت هذه الآية الكبرى على العصور - وانبتت على الاحتجاج بالعلم والعقل كان لها في كل عصر أتباعها الكثيرون عن اقتناع واطمئنان ، ويزداد ويكثر عددهم بتوالي الأزمان ، ويكثر الداخلون فيهم بقدر ما يزداد تقدم البشر في العلم والعرفان ، وقد شوهد هذا اليوم وقبل اليوم ، ونحن نرى في هذا العصر كيف ينتشر الاسلام تباعا لهذه الآية بين الامم وفي علمائها دون نشر للدعوة من المسلمين تبينها ، ولا قوة لهم تؤيدها ، وانما بما فيه من علم وحجة وأدب وحكمة تخضع العقول وتجذب القلوب ، ولهذا فرع النبي - ص - على كون آيته وحيا رجاء أن يكون أكثر الانبياء - ص - اتباعا يوم القيامة الذي تظهر فيه التبعية الصادقة فقال : (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) .

« انفراده - ص - بالاتباع من يوم بعثته » :

ليس المنتمون لموسى (ص) ولعيسى (ص) باتباع لهم ، لأن دعوة الانبياء - ص - واحدة ، ودينهم - وهو الاسلام - واحد ، وان اختلفت بعض الفروع العملية في شرائعهم ، فمن لم يؤمن بواحد منهم كمن لم يؤمن بهم كلهم ، وما كان محمد (ص) بدعاً من الرسل ، وما جاء الا بمثل ما جاؤوا به ، وما جاء الا مصداقاً لهم ، فالذين لم يتبعوه من المنتمين اليهما - عليهما السلام - غير متبعين لهما ، فانقطعت تابعتيهما ببعثة محمد - ص - . فمن آمن به كان من أتباعه والا كان من الهالكين (1) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به الا كان من أصحاب النار) رواه مسلم .

« اتساع » :

كل داع له من الاجر مثل أجور من اتبعه على دعوته لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، فرجا النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - كثرة أتباعهم ، اذ فى ذلك انتشار الهداية ، وكان (ص) أحرص الناس على هداية الناس وفى ذلك مضاعفة أجره وجزائه عند الله ، فلنا فيه الاسوة الحسنة بالحرص على نشر هدايته ، وتبليغ دعوته ، ورجاء كثرة الاجر والثواب بكثرة ما توفر من أتباعه ، فليعمل العاملون لهذا وليجتهدوا فيه .

وقد رجا النبى - ص - كثرة اتباعه لدوام وظهور آيته الخالدة وهى القرآن العظيم ، فعلى الناشرين لهدايته ، والمبلغين لدعوته . ان يجعلوا القرآن امامهم وحجتهم ومرجعهم ، فانه

(1) فى الاصل : من المهالكين .

هو كتاب الدعوة ، ومنشور الهداية ، ومظهر الحجة ، واتباع
النبي - ص - هم اتباع القرآن وخلفاؤه في التبليغ ، وورثته
في العلم هم الذين يبلغون القرآن ويتلون القرآن ، وينذرون
بالقرآن كما كان هو - ص - كذلك وكما قال الله فيه : « يَا أَيُّهَا
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » ، « لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَّغَ »
« إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ » .

جعلنا الله ممن اتبعوا سنته ، ونشروا هدايته ، وبلغوا
حجته غير مبدلين ولا مغيرين (I) .

(1) ش : ج 3 ، م 11 - غرة ربيع الاول 1354 هـ - 3 جوان 1935 م .

التوجه الى الله ، برسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

قال ابو عيسى الترمذى : (حدثنا محمود بن غيلان نا عثمان ابن عمرنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف ان رجلاً ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أدعُ الله ان يعافينى . قال ان شئت دعوتُ وان شئت صبرتُ فهو خير لك . قال : فادعُ . قال : فأمره ان يتوضأ فيُحسِّن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : أَللّهُمَّ اِنى اسالك وأتوجَّه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة اِنى توجَّهْتُ بك الى ربِّى في حاجتى هذه لِتَقْضَى لى، اللهم فشفعه في . هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى) .

* * *

السند : محمود بن غيلان ثقة من رجال البخارى ومسلم . عثمان ابن عمر هو ابن فارس العبدى المتوفى سنة 209 ثقة روى عنه الستة، وهو الراوى عن شعبة ولهم عثمان بن عمر ابن موسى التيمى متقدم غير هذا، أبو جعفر . هكذا عند الترمذى غير منسوب وقال فيه هو غير الخطمى يعنى أبا جعفر يزيد بن عمير الانصارى الخطمى، لكن ابن ماجه قال : حدثنا أحمد بن منصور

ابن يسار ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر المدني الى آخر السند والمتن . فصرح بأن أبا جعفر هو المدني . وهذا هو أبو جعفر القارى يزيد بن القعقاع . قال ابن سعد : كان ثقة قليل الحديث وكان امام أهل المدينة فى القراءة فسمى القارىء لذلك . عمارة بن خزيمة بن ثابت الانصارى روى له أصحاب السنن الاربعة، وثقه النسائى وابن حبان وابن سعد . عثمان ابن حنيف هو الانصارى الاوسى الصحابى المشهور .

مخرجو الحديث : رواه ابن ماجه فى باب ما جاء فى صلاة الحاجة من سننه والنسائى والحاكم والبيهقى وابن خزيمة والطبرانى .

رتبة الحديث العلمية والعملية . قال فيه الترمذى كما تقدم : حسن صحيح غريب . فالصحيح ما رواه العدل الضابط عن مثله الى آخر سنده سالما من العلة والشذوذ . فاذا خف الضبط فى بعض رواياته فهو الحسن .

وما يقول فيه أبو عيسى الترمذى حسن صحيح أقوى مما يقول فيه حسن فقط لان وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيدان خفة الضبط فى بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كانها لم تحطه عن رتبة الصحيح التام . واما الغريب فهو ما انفرد بروايته راوٍ فقط . واذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الانفراد لا يضر . فالغراية لا تنافى الصحة والحسن، وغرايته جاءت من انفرد ابي جعفر به كما تقدم . وصححه أيضا ابن ماجه والحاكم والبيهقى والطبرانى . فبعدما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الائمة له حصل لنا العلم الكافى - وهو الظن الغالب - بثبوتيه . وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فانه صالح لاستنباط الاحكام الشرعية العملية منه .

الغالب المتن : زاد ابن ماجه بعد قوله (فامرہ ان يتوصا
ليحسن وضوءه) قوله (ويصلي ركعتين) ولذلك اخرجہ في
باب ما جاء في صلاة الحاجة . وهذه زيادة عدل فهي مقبولة
والامر بالوضوء مما يؤيدها ، وزاد النسائي بعد قوله اللهم
شفعه في : وشفعني في نفسي، فرجع وقد كشف الله عن بصره .

المفردات : (التوجه) الى الشيء هو القصد اليه فاتوجه اليك
أي قصد اليك و (الباء) في بنبيك وفي اني توجهت بك هي
باء الاستعانة والمستعان به هو السبب المحصل للمستعان عليه
ولذلك جعل بعضهم باء الاستعانة من باء السببية فالنبي صلى
الله عليه وآله وسلم مستعان به على السؤال أي على نجاح السؤال
بحصول الشيء المسؤول من الله تعالى ومستعان به على التوجه
بمعنى القصد، أي على نجاح ذلك القصد بحصول المطلوب منه
تعالى فهو متوصل به الى نجاح السؤال ونجح القصد، وكل ما
يتوصل به الى شيء يقال فيه وسيلة اليه، فالسؤال به توسل به،
فيمكن ان تسمى هذه الباء باء التوسل وهي الداخلة على ما هو
وسيلة في حصول شيء . و « الهاء » في قوله فادعه هاء السكت
او ضمير عائد على الله تعالى « الشفاعة » سؤال الخير لغير السائل،
لقوله شفعه في أي اقبله في أي اقبل دعاءه وسؤاله لي .

التراكيب : قوله أسألك وأتوجه اليك بنبيك ، وقوله اني
أتوجه بك، يحتمل ان يكون على ظاهره ، فالسؤال والتوجه
والتوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظرا لمقامه
عند الله تعالى ، ويكون هذا نظير قول القائل أسألك بالله من
قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ »

وفي سنن أبي داود والنسائي مرفوعا « ومن سألكم بالله
فأعطوه » وقوله أسألك بالرحم من قوله تعالى : « وَالْأَرْحَامِ »
بالجر في قراءة الشاميين، وقول عائشة لفاطمة رضي الله تعالى

منهما « هزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » ويحتمل ان يكون على تقدير مضاف هكذا بدعاء نبيك في العبارة الاولى وبدعائك في العبارة الثانية لانه انما سأل ان يدعو له ، فيكون التوسل بدعائه ، ولقوله فشفعه في ، أى اقبل دعاءه لى . وجملة فشفعه معطوفة على جملة أسألك . وجملة انى توجهت بك معترضة بين المتعاطفين .

المعنى : هذا رجل أعمى جاء الى النبی صلى الله عليه وآله وسلم يسأله ان يدعو الله تعالى له ان يشفيه من العمى ، فخير بين ان يدعو له وان يصبر على بلواه ، واخبره ان الصبر خير له من جهة الاجر والمثوبة ، فاختر الرجل ان يدعو له فأمره ان يتوضأ وضوءا حسنا مستكملا لفرائضه وفضائله فى ظاهرة وباطنه وان يصلى ركعتين ويدعو بالدعاء المذكور . والظاهر انه بعد الفراغ من الركعتين مثل ما جاء فى دعاء الاستخارة بعد ركعتيها . وكان الدعاء سؤالاً من الله تعالى وتوجهها اليه وتوسلا بنبيه أو بدعائه وثناء على النبی صلى الله عليه وآله وسلم بما بعثه الله به من الرحمة المناسب ذكرها غاية المناسبة فى مقام الدعاء والتوسل ، وخطاباً له عليه السلام بانه توجه به الى ربه لتقضى حاجته ثم رجوعاً الى سؤال الله تعالى ان يقبل فيه شفاعته النبی صلى الله عليه وآله وسلم .

سؤال : الرجل قد اختار ان يدعو له فأمره ان يتوضأ ويصلى ويدعو بذلك الدعاء ولم يدع هو له مع انه قد قال له فى التخيير ان شئت دعوت وان شئت صبرت .

جوابه : الظاهر انه دعا له وان لم يصرح بذلك فى متن الحديث لقول الاعمى اللهم شفعه في ، أى اقبل دعاءه وسؤاله لى .

الأحكام : لم يدع الأعمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسأله أن يشفيه هو لأن الدعاء لقضاء الحوائج وكشف البلايا ونحو ذلك هو العبادة ، وفي حديث النعمان بن بشير المرفوع: (الدعاء هو العبادة) رواه أحمد وأصحاب السنن . والعبادة لا تكون إلا لله لم يدعه لا وحده ولا مع الله لأن الدعاء لا يكون إلا لله . وهذا بخلاف ما يفعله الجاهل والضلال من طلبهم من المخلوقين من الأحياء والأموات أن يعطوهم مطالبهم ويكشفوا عنهم بلاياهم، وإنما سأله أن يدعو له الله تعالى أن يعافيه وهذا جائز أن يسأل المؤمن من أخيه في حال حياته أن يدعو الله تعالى له ، ومن هذا حديث البخاري في سؤال أم أنس ابن مالك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو لأنس خادمه فدعا له ، ومن هذا ما رواه الترمذي وأبو داود عن عمر بن الخطاب قال استأذنت النبي (ص) في العمرة فاذن لي وقال: اشركنا يا أخى في دعائك ولا تنسنا، زاد في رواية الترمذي فقال كلمة ما يسرنى أن لي بها الدنيا . يعنى قوله اشركنا الخ ، ثم انه توسل بذاته بحسب مقامه عند ربه، وهذا على الوجه الاول من الوجهين المتقدمين في فصل التراكيب، أو توسل بدعائه وهذا على الوجه الثانى منهما. فمن أخذ بالوجه الاول قال يجوز التوسل بذاته، ومن أخذ بالوجه الثانى قال إنما يتوسل بدعائه ، ثم ان من أخذ بالوجه الاول فهذا الدعاء حكمه باق بعد وفاته كما كان في حياته ، ومن أخذ بالوجه الثانى لا يكون بعد وفاته لأن دعاءه إنما كان في حياته لمن دعا له . فالوجهان المتقدمان كما ترى - هما مشار الخلاف في جواز التوسل بذاته وعدم جوازه ، فمن أخذ بالوجه الاول جوز، ومن أخذ بالثانى منع .

سؤال : فان قلت قد عرفنا القولين وعرفنا مدركهما فما هو
الراجع عندك منهما .

جوابه : الراجع هو الوجه الاول الذى يجيز السؤال بذات
النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظرا لمقامه العظيم عند ربه
لوجهين، الاول : ان ذلك هو ظاهر اللفظ ولا موجب للتقدير
ولا منافاة بين ان يكون فى قوله اسألك واتوجه اليك بنبيك
وقوله انى توجهت بك قد سأل بذاته ، وفى قوله اللهم شفعه فى
قد سأل قبول دعائه له وسؤاله - والثانى انه لما كان جائزا
السؤال من المخلوقين بما له مقام عظيم عندهم فلا مانع من ان
يسأل الله تعالى بنبيه بحسب مقامه العظيم عنده .

سؤال آخر : بعدما رجحت جواز التوسل بذاته صلى الله
عليه وآله وسلم نظرا لمقامه العظيم عند الله تعالى ، فهل يقاس
عليه غيره من كل ذى مقام عند الله تعالى فيتوسل به أو يكون
هذا مقصورا عليه ؟

جوابه : القياس فى باب العبادات ضعيف واذا ارتكب هنا
فلا يقاس عليه الا كل ذى مقام محقق عند الله تعالى .

سؤال آخر : بعد ما عرفنا حكم سؤال الله تعالى باهل المكانة
عنده من مخلوقاته فهل الافضل هو سؤاله بمخلوقاته أو سؤاله
باسمائيه وصفاته واعمال العبد فى طاعاته ؟

جوابه : الأفضل هو سؤاله تعالى باسمائه وصفاته واعمال
العبد فى أنواع طاعاته ، وذلك لوجهين : الاول ان ذلك هو
مقتضى النص القرآنى الصريح القطعى فى قوله تعالى :
« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ويشمل ذلك تسميته بها
ونداءه بها وسؤاله بها. الوجه الثانى ما جاء فى السنة العملية
فى احاديث كثيرة ثابتة مستفيضة كان سؤاله تعالى فيها كلها

باسمائه وصفاته، منها حديث (أسألك بكل اسم هو الله
به نفسك الخ) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود
ومنها حديث رجل كان يصلي في المسجد فقال اللهم اني أسألك
بان لك الحمد لا اله الا أنت الحنان المنان بديع السموات
والارض يا ذا الجلال والاكرام يا حي يا قيوم أسألك . فقال
صلى الله عليه وآله وسلم دعا الله باسمه الاعظم الذى
اذا دعى به اجاب واذا سئل به اعطى . رواه أصحاب السنن
الاربعة من طريق أنس .

ومنها حديث، اني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق،
رواه النسائي والحاكم من طريق عمار بن ياسر، وهكذا سائر
الاحاديث التى جاءت فى هذا الباب كلها متواردة على دعاء الله
تعالى باسمائه وصفاته . وهى كلها تحقيق وبيان لقوله تعالى:
« وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا » . هذا كله فى دعائه تعالى
باسمائه وصفاته واما ما جاء فى دعائه والتوسل اليه بعمل
العبد فى أنواع طاعاته فمنها حديث بريدة ان رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم سمع رجلا يقول: اللهم اني أسألك بانى
اشهد (والشهادة عمل العبد) انك انت الله لا اله الا أنت الاحد
الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم: لقد سألت الله بالاسم الاعظم
الذى اذا سئل به اعطى واذا دعى به اجاب، رواه أبو داود
والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم
الا انه قال: لقد دعوت الله باسمه الاعظم وقال صحيح على شرط
الشيخين، قال الحافظ عبد العظيم المنذرى قال شيخنا الحافظ
أبى الحسن المقدسى: واسناده لا مطعن فيه . ومنها حديث الثلاثة
الدين اؤوا الى غار فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل
فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها

صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعله يفرجها عنكم ، فدعا أحدهم
ببروره والديه فانفرجت منها فرجة ، ودعا الثاني بعفته عن
الزنا بعد ما كاد فانفرجت فرجة ، ودعا الثالث بوفائه لأجيريه
فانفرجت البقية . وهذا حديث صحيح مشهور رواه الشيخان
وغيرهما . ومن ذلك حديث سارة زوج ابراهيم عليه السلام
لما مد الجبار الظالم اليها يده يريد لها على السوء ، قامت توضأ⁽¹⁾
وتصلى وقالت : (اللهم ان كنت آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت
فرجى الا على زوجى فلا تسلط على الكافر » ففط حتى ركض
برجله ، فقالت : (اللهم ان يمت يقال هي قتلتها) فأرسل فعاد
اليها وعادت الى الدعاء كالمرءة الاولى ، وفى الثانية تركها وقال :
ارجعوها الى ابراهيم . رواه مفصلا البخارى فى كتاب البيوع
من صحيحه من طريق أبى هريرة ، فانظر اليها كيف توسلت
لربها بايمانها الذى هو أشرف أعمالها ، وبعفتها واحسانها
لفرجها ، ولم تتوسل اليه برسوله وخليته زوجها ابراهيم عليه
الصلاة والسلام .

سؤال آخر : بعد ما عرفنا رجحان سؤاله تعالى بالاسماء
والصفات والطاعات ، فهل ثبت عن الصحابة سؤالهم وتوسلهم
بذاته ؟

جوابه : لم يثبت عن واحد منهم شئ من ذلك فيما
لدينا من كتب السنة المشهورة ، بل ثبت عدولهم عن ذلك فى
وقت مقتض له لو كانوا يفعلونه ، وذلك فى حديث استسقاء
عمر بالعباس رضى الله تعالى عنهما . فقد أخرج البخارى فى
صحيحه بسنده عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم
انا كنا نتوسل اليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقيننا ، وانا

(1) اصله : تتوضأ فحذفت احدى التائين للتخفيف .

نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون . ومعنى الحديث انهم كانوا يتوسلون بالنبي (ص) يدعو لهم في الاستسقاء ويدعون ، ثم صاروا يتوسلون بالعباس فيدعو لهم ويدعون ، فالتوسل هنا قطعاً بدعائهما لا بذاتهما . ووجه الاستدلال بهذا الحديث على مرجوحية التوسل بالذات : أن الصحابة لم يقولوا في موقفهم ذلك : اللهم انا نتوسل اليك بنبينا ، أى بذاته ومقامه ، بل عدلوا عن ذلك الى التوسل بالعباس يدعو لهم ويدعون كما كان النبي (ص) يفعل في الاستسقاء .

ولقد استدل بعضهم بعدول الصحابة عن التوسل بذات النبي (ص) في هذا المقام على منعه . ونحن لما بينا قبل من دليل جوازه انما نستدل بعدولهم على مرجوحيته .

سؤال آخر : قد عرفنا فيما تقدم مشروعية سؤال المؤمن من أخيه المؤمن في حياته أن يدعو له ، فهل يشرع الذهاب الى القبر وطلب الدعاء من الميت !

جوابه : لو كان هذا جائزاً لفعله الصحابة في الحديث المتقدم ، ولذهبوا لقبر النبي (ص) يسألونه أن يدعو لهم كما كان يدعو لهم في حياته ، ولم يرد في حديث عن واحد منهم انه كان يذهب الى القبر النبوي ويطلب منه (ص) أن يدعو له . بل جاء عن ابن عمر - وهو من عرف بشدة اتباعه وتحريه - أنه كان يقف فيسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم على أبي بكر ، ثم على عمر رضى الله تعالى عنهما ، ثم ينصرف ، لا يزيد شيئاً ، خرجه مالك في الموطأ .

تلخيص وتحصيل : تحصل لنا من جميع ما تقدم :

- 1 - أن دعاء المخلوق وحده أو مع الله ممنوع .
- 2 - وأن التوسل بدعائه في حياته - وهو من المؤمنين - مطلوب ومشروع .

3 - وأن التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم
جائز مرجوح .

4 - وأن التوسل بذات غيره من أهل المكانة المحققة له وجه
فى القياس .

5 - وأن التوسل بذات غيره ممن ليس لنا اليقين القاطع
بمقامه لا وجه له .

6 - وأن طلب الدعاء منه بعد موته بدعة لم يفعلها
الصحابه .

7 - وأن الراجع فى التوسل الى الله هو التوسل اليه
باسمائه وصفاته وأعمال العبد فى أنواع طاعاته .

هذه سبع مسائل كثر فيها هذه الايام القال والقليل ، وتعرض
لها من الكتاب الاصيل والدخيل ، وقد من الله بتحريرها على
هذا الوجه الذى لم أره لغيرى ، وقد كنت فى تحريرها - علم
الله - باحثا منصفاً متجرداً ، فما كان فيها من حق وصواب
فهو من الله ، وما كان فيها - عياذا بالله - من باطل وخطأ فهو
منى ، واستغفر الله ، والخير قصدت ، وحسبنا الله ونعم
الوكيل (I) .

فصل السجود والحث عليه

(قال ربيعة بن كعب الاسلمي كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتيته بِوَضُوئه وَحَاجَتِه فقال لي: سَلْ ، فقال: أسالك مُرافقتك في الجنة ، قال : أو غيرَ ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) .

رواه مسلم واللفظ له وأبو داود والطبراني في الكبير .

* * *

الراوي :

هو أبو فراس قديم الصحبة ، كان من أهل الصفة يلزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السفر والحضر ، مات سنة ثلاث وستين .

الفاظ :

مع : ظرف مكان مبهم واسع، وهو كان يبيت عند بابه كما في رواية الطبراني وذلك هو المراد من مع هنا . حاجته : ما يحتاج اليه غير الوضوء أو على وجه تسكينها هي، أو التي للتخفيف أو للاضراب ، وعلى وجه فتح الواو هما كلمتان : همزة الاستفهام والواو العاطفة، هو أي مسؤولي ذلك أي المذكور وهو

المرافقة . الامانة : مشاركة الفاعل في العمل لينف عليه
ويسهل وينتهي منه الى مرضه .

التراكيب :

حذف مفعول سل للتعميم وهو المناسب لمقام الافضال في
النوال . غير : معطوف على مرافقتك من عطف لفظ في كلام
على لفظ في كلام آخر عند ما يقصد المتكلم ربط كلامه بكلام
المتكلم قبله لنحو تلقينه فيكون مجموع الكلام هكذا : أسألك
مرافقتك في الجنة أو غير ذلك ، والكلام وان كان خبرا فهو في
قوة الطلب ولذلك كانت أو للتخير . هذا كله على وجه أو التي
للتخير ، وأما اذا كانت للاضراب فتقدير الكلام : بل أسأل غير
ذلك . وأما اذا كانت الهمزة للاستفهام فان الواو عطفت جملة
على جملة وتقدير الكلام اترك ما سألت وتساءل غير ذلك ،
والاستفهام هنا المراد به الطلب يطلب منه ان يترك سؤال
المرافقة ويسأل غيره . هو ذاك هو تفيد الحصر أي مسؤولي ،
هو المرافقة لا غيرها .

المعنى :

كان هذا الصحابي رضى الله تعالى عنه يخدم النبي صلى الله
عليه وآله وسلم ويبيت عند باب بيته ليأتيه بما يحتاج اليه من
ماء يتوضأ به أو غيره ، فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم
ان يجازيه على خدمته فأمره ان يسأله ليعطيه ، فأعرض هذا
الصحابي عن جميع مطالب الدنيا وسأله أعز مطلب في الآخرة
وهو مرافقته له في الجنة ، ولما كانت هذه المرافقة تقتضى درجة
رفيعة في الجنة أخص من مطلق دخول الجنة وهذه الدرجة
تقتضى العمل الشاق، حاول النبي صلى الله عليه وآله وسلم
صرفه عن هذا السؤال الذى فيه العمل الشاق الذى ربما لا يطيقه

الى غيره مما هو اسهل من المطالب ، فصمم الصحابي على سؤاله
وأبى ان يسأل غيره ، فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم
سؤاله على ان يعينه على نفسه لتحصيل المطلوب ، وأرشده الى
ما هو وسيلة في رفع الدرجات ، وهو كثرة السجود ، فان العبد
لا يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة
كما ثبت في الصحيح .

زيادة بيان :

قد جاء هذا الحديث عند الطبراني بأبسط من رواية مسلم ،
وذكر الرواية المطولة يوضح لنا الرواية المختصرة ، ورواية
الطبراني كما في « الترغيب والترهيب » هي هذه : (قال كعب
كنت اخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهاري فاذا كان
الليل آويت الى باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبت
عنده . فلا ازال أسمع يقول سبحان الله سبحان الله سبحان
ربي حتى أمل أو تغلبني عيني فانام ، فقال يوما يا ربعة سلني
فأعطيك ، فقلت انظرني حتى انظر ، وتذكرت ان الدنيا فانية
منقطعة ، فقلت : يا رسول الله أسألك ان تدعو الله ان ينجيني من
النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
ثم قال من أمرك بهذا ؟ قلت ما أمرني به أحد ، ولكني علمت
ان الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه ،
فأحببت ان تدعو الله لي ، قال اني فاعل فأعني على نفسك بكثرة
السجود) .

النظر في الروایتين :

بينت المطولة أنه كان يخدمه بالنهار والليل ، وانه ما سأل
الا بعد النظر والتفكر ، وانه لم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم ان يعطيه الجنة وانما سأله ان يدعو الله تعالى له لعلمه

أن دعاءه مستجاب ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعده
بأنه يفعل ما طلبه منه وهو دعاء الله تعالى له . غير أن الرواية
المطولة فيها أنه سأل النجاة من النار ودخول الجنة ، والرواية
المختصرة فيها أنه سأل مرافقته له في الجنة وهي أخص من
مطلق الدخول .

الجمع والترجيح :

كل ما في المطولة مما هو زائد على المختصرة غير معارض
لشيء فيها ، فهو مع المختصرة حديث واحد روى مطولا
مختصرا وإن تفاوتت طريقاه . وما جاء فيها معارضا لشيء في
المختصرة وهو سؤال دخول الجنة المعارض لسؤال المرافقة ،
فإننا نأخذ بما في المختصرة ترجيحاً لها لقوة سندها .

توجيه :

المرافقة في الجنة لا تقتضي المساواة في المنزلة والكرامة ،
أصله قوله تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ (الى) وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » ، ولهذا سألتها هذا الصحابي :
ولما كان من الملازمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا
توجهت همته الى مرافقته في الأخرى فسأله ذلك .

فوائد الأحكام :

في الحديث جواز قبول التبرع بالخدمة من الناس وخصوصا
لأهل المقامات العامة في مصالح الناس ، وفيه فضل القيام من
جوف الليل - من قوله آتية بوضوئه - وفيه سنة مكافأة المحسن
على إحسانه ، وفيه مشروعية سؤال الدعاء وخصوصا ممن ترجى
له الاستجابة ، وفيه عدم الاكتفاء بالدعاء وحده عن التوسل

بالطاعات ونوافل الخيرات ، وفيه فضل السجود والحث عليه ،
وفيه دليل لمن يقول بافضلية كثرة السجود على طول القيام .

إرشاد وتحذير :

سأل هذا الصحابي النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو له
الله ولم يسأله هو ان يعطيه الجنة ، لان الذى يعطى هو الله
تعالى ، ولان الذى يسأل منه العطاء هو الله تعالى ، كما قال
النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس فيما رواه :

(واذا سألت فأسأل الله) ، فمن المخلوق تسأل الدعاء ومن
الخالق تسأل العطاء . ومن أدلة الاول هذا الحديث ، ومن أدلة
الثانى حديث ابن عباس المذكور . وكثير من الناس من يسألون
ممن يعظمون نفس العطاء وخصوصا من الاموات - رحمهم
الله - فى قبورهم . فارشدهم بمثل ما سمعت وحذار أن تكون
منهم . الترمذى وقال حسن صحيح .

بيان عقيدة وإبطال ادعاء :

لما سأل هذا الصحابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعده
بالدعاء وأرشده الى العمل الصالح وهو كثرة السجود ، ولم
يقبل له النبي صلى الله عليه وآله وسلم اننى ضامن لك ذلك ،
ولا أنت مضمون ، ولا أنت فى ضمانى ، لان العبد لا يجوز له
ان يضمن على خالقه بدون اذنه شيئا ، واذا كانت الشفاعة التى هى
طلب منه لا تكون عنده الا باذنه فكيف الضمان الذى هو التزام
على القطع ، فمن الغرور العظيم والجهل الكبير والجرأة الكبرى
على الله تعالى قول بعض المدعين (روح راك مضمون) وقول
آخرين (من دخل دار كذا فهو مضمون) و (أنا ضامنى الشيخ)
و (يا دار الضمان) ونحو ذلك . مما يقوله الجاهلون ، وينكره
العالمون ، ويبرأ منه الصالحون .

حقيقة نفسية :

العبد بين داعيين مختلفين ، دينه يدعوهُ الى الحسنی وينهض به للعلاء ، ونفسه تدعوه الى السوأى وتنحط به الى المضيض . ولا ينحط المسلم عن مقامات الكمال الا باجابته داعى نفسه واعراضه عن داعى دينه . فالنفس هى الجاذب القوى الى دركات الانحطاط . ولما كان دعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الصحابى سببا فى رفع درجاته وكانت نفسه اذا خلاها على هواها مانعة له من ذلك الرفع فصار الدعاء النبوى والنفس الامارة كالمتنازعين فيه - أمره بان يعينه على نفسه بكثرة السجود . ولم يقل له اعنى على مطلوبك أو تحصيل مرادك ، بل قال له : اعنى على نفسك . وفى هذا تنبيه له على ان النفس هى المعرقة للعبد عن الصعود فى سلم السعادة ، وانه اذا قهرها وغلبها فقد تيسرت له أسباب الكمال (I) .

1() ش : ج 4 ، م 8 - غرة ذى الحجة 1350 هـ - أبريل 1932 م .

إِتْبَاعُ رَمَضَانَ بِسِتَةِ مِنْ شَوَّالٍ

(عن أبي أيوب الانصارى - رضى الله تعالى عنه - قال :
قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم : (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ
ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ) . رواه مسلم
وأصحاب السنن وغيرهم . وجاء بمعناه عن ثوبان وأبي هريرة
وجابر بن عبد الله وابن عمر) .

* * *

المفردات :

تقول العرب : اتبع الفرس لجامها ، أى الحقه بها فى العطاء .
يضرب مثلاً فى الامر ، باستكمال المعروف واستتمامه . ويصدق
هذا ولو كان بين العطاء الاول والعطاء الثانى مهلة ، وكذلك
جاء قوله تعالى : « وَأَتَّبَعْنَا بِعُضْمِهِمْ بَعْضًا » أى الحقنا بعض
القرون ببعض فى الهلاك الناشئ عن تكذيبهم ، مع أن بين كل
قرن وقرن مدة طويلة . فالاتباع هو اللاحاق لشيء بشيء فى
أمر ، سواء أكان عن اتصال أو عن انفصال . الدهر : أصل
معناه : مدة الدنيا ، ويطلق على أمد من الزمان قل أو كثر .
والمراد به هنا السنة كما جاء مصرحاً به فى بعض روايات
الحديث .

التراكيب :

أفادت ثم ان الاتباع متأخر عن الصوم ، وان كان قد جاء من طريق غير أبى أيوب المطف بالواو . والضمير فى كان عائد على عمل المفهوم من الكلام السابق ، أى كان عمله - وهو صومه شهرا وستة أيام .

المعنى :

من صام رمضان ، وصام بعده ستة أيام من شوال كان ذلك من عمله كصيام الدهر ، لان الله تعالى جعل الحسنه بعشر أمثالها ، فشهر رمضان بعشرة أشهر ، وستة أيام بعده بشهرين فذلك تمام السنة . وجاء هذا التفسير عند النسائي من طريق ثوبان مرفوعا .

تطبيق :

قد علمت أن الاتباع يصدق باللاحاق متصلا أو منفصلا ، والفصل هنا واجب بيوم الفطر ، للعلم بحرمة صومه ، فمن فصل به فقط فهو متبع ، ومن فصل بأكثر منه فهو متببع ، ومقتضى الاطلاق فى لفظة (ستا) أنه لا فرق فى حصول الفضل بين أن تكون متوالية أو متفرقة ، وما تقدم فى فصل المعنى من حديث ثوبان يؤيد هذا الاطلاق ، لان المقصود تحصيل ستة أيام لتكون بمقتضى جزاء الحسنه بعشر ستين يوما ، وهذا حاصل عند تفرقها وعند اجتماعها .

الاحكام :

ذهب الشافعية والحنابلة وغيرهم - وهو المصحح عند الحنفية - الى استحباب صوم هذه الايام ، محتجين بهذا الحديث

الصحيح الصريح . وأما المألدة فقد قال يعينى بن يعينى راوى
الموطأ : سمعت مالكا يقول فى ستة أيام بعد الفطر من
رمضان أنه لم ير أحدا من أهل العلم والفقه يصومها ، ولم
يبلغنى ذلك عن أحد من السلف ، وأن أهل العلم يكرهون ذلك ،
ويخافون بدعته ، وأن يلحق بـرمضان ما ليس منه . أهل الجهالة
والجفاء لو زأوا فى ذلك رخصة عند أهل العلم ورأوهم يعملون
ذلك . اهـ

والذى يظهر من عبارات مالك أن المكروه هو صوم ستة أيام
متوالية متصلة بيوم الفطر كما يفهم من قوله (فى صيام ستة
أيام بعد الفطر) ومن قوله (وان يلحق بـرمضان ما ليس منه
أهل الجهالة والجفاء) وانما يخشى هذا اللاحق اذا كانت متوالية
متصلة بيوم الفطر . فالكراهة اذا عنده منسبة على صومها
بهذه الصفة من التوالى والاتصال ، لا على أصل صومها ، وهذا
هو التحقيق فى مذهبه .

فقه مالك واحتياطه :

انبنى فقه مالك واحتياطه على أصليين :

الأصل الأول - أن العبادة المقدرة لا يزداد عليها ولا ينقص
منها وهو أصل عام فى جميع العبادات . وفى خصوص الصيام
قد ثبت نهيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتقدم شهر رمضان
بصيام يوم أو يومين ، وظاهر أن وجه هذا النهى هو خوف أن
يعد ذلك من رمضان . فحمى الشارع بهذا النهى العبادة من
الزيادة فى أولها . فبنى مالك - بسعة علمه وبعد نظره - على
ذلك حمايتها من الزيادة فى آخرها ، فكره صوم تلك الأيام
متوالية متصلة بيوم الفطر مخافة - كما قال - أن يلحق بـرمضان
ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء . فكان احتياطه فى الأخير

مطابقا لاحتياط النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في الاول ،
وذلك كله لاجل المحافظة على بقاء العبادة المقدرة على حالها غير
مختلطة بغيرها ، وقد جاء نظير هذا الاحتياط في الصلاة ، فقد
روى أبو داود في سننه أن رجلا دخل الى مسجد رسول الله
- صلى الله عليه وآله وسلم - فصلى الفرض ، وقام ليصلى
ركعتين ، فقال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اجلس حتى
تفصل بين فرضك ونفلك ، فبهذا هلك من كان قبلنا . فقال
له - عليه وآله الصلاة والسلام - أصاب الله بك يا ابن الخطاب .
يعنى أن الذين كانوا قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض ، فأدى
ذلك الى اعتقاد جهالهم ، وجوب الجميع ، فأدى ذلك الى تغيير
شرع الله وهو سبب الهلاك . لا يقال ان مقدار العبادة معلوم من
الدين بالضرورة ، فكيف يظن أنه قد يعتقد الجميع من الاصل
والزيادة عبادة واحدة ، لاننا نقول اذا دام وصل النافلة
بالفريضة ، وطال العهد ، وخلفت الخلوف ، أدى ذلك أهل
الجهالة الى ذلك الاعتقاد . والاحتياط للعبادة يقتضى قطع ذلك
الاعتقاد من أصله بالنهى عما يؤدى اليه وهو من سد الذرائع
الذى هو أحد أصول مالك فى مذهبه . ومع هذا فقد نقل الامام
القرافى عن الامام عبد العظيم المنذرى أن الذى خشى منه مالك
- رحمه الله تعالى - قد وقع بالعجم فصاروا يتركون المسحurin
على عادتهم والقوانين (I) وشعائر رمضان الى آخر السعة أيام
فحينئذ يظهرون شعائر العيد . اهـ

فلله مالك ما أوسع علمه ، وما أدق نظره ، وما أكثر اتباعه
فرحمة الله تعالى عليه ، وعلى أئمة الهدى أجمعين .

(1) كذا بالاصل ، ولعله القولين .

الأصل الثاني - أن ما ورد من العبادة مقيدا بقيد يلتزم قيده ، وما ورد منها مطلقا يلتزم إطلاقه ، فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه .

والآتي بالعبادة المطلقة ملتزما فيه ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه وهو أصل في جميع العبادات ، ومثال ما ورد من العبادة مقيدا : التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين مرة والختم بـ : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . فقيدت هذه العبادة المحددة بايقاعها دبر كل صلاة ، فالآتيان بها في غير دبر الصلوات مخالفة للوضع الشرعي . ومثال ما ورد مطلقا (I) لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة (2) . وسبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة فيلتزمها في وقت معين من النهار ، فيخرج عن مقتضى الإطلاق في لفظ يوم من نص الحديث فيكون مخالفا للوضع الشرعي .

ولفظ الحديث الوارد في هذه الايام جاء مطلقا في الاتباع صادقا بالاتصال والانفصال . وفي لفظ ستة صادقا بتواليها وتفرقها ، فالتزام اتصالها وتواليها تقييد لما أطلقه الشرع وتزيد عليه .

اقتداء وتحذير :

هذان الاصلان اللذان قررنا بهما فقه مالك ، هما أصلان مجمع عليهما ، كثيرة في الشريعة المطهرة أدلتها ، والفروع التي تنبنى عليهما ، فلنا في مالك وغيره من أئمة الهدى القدوة

(1 ، 2) رواهما مالك في الموطأ .

العسنة في التمسك بهما . فنحتاط لعبادتنا ، حتى لا نخلط بين فرضها ونفلها . ونتقبل ما جاء من العبادات مقيدا أو محددا بقيده وحده ، ونتقبل ما جاء منها مطلقا على اطلاقه ، فلا نلتزم فيه ما يخرج عن الاطلاق . ولنعذر كل الحذر من الاخلال بقيود الشارع أو التقييد لمطلقاته ، ففي ذلك استظهار عليه ، وقلة أدب معه ، وتبديل لوضعه ، واختيار عليه ، وانما الخيرة لله ولرسوله ، لا لاحد من الناس ، وان الغالب على الناس أنهم لا يتعمدون الاخلال بالقيود ، وانما يتعمدون التقييد للمطلقات بأنواع الالتزامات ، مع أنها في المخالفة سواء ، فلنعذر من الوقوع في مثل هذا على الخصوص .

امثال :

نصوم هذه الستة كما رغبنا نبينا ، طمعا في فضل ربنا ، غير ملتزمين وصلها ولا موالاتها ، والله يلهمنا والمسلمين أجمعين أنواع المبرات ، واقامتها بمنه وكرمه . أمين (I) .

(1) ش : ج 3 ، م 7 - غرة ذي القعدة 1349 هـ - مارس 1931 م .

أثر النيات في الأعمال

(إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ مَّا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) ، أخرجه الشيخان في صحيحهما .

* * *

الألفاظ :

« الأعمال » هي الأفعال التي تصدر عن الجوارح فتدخل فيها الأقوال والغالب أن الأعمال أخص من الأفعال ، فهذه فيما كان عن قصد وغيره وتلك فيما كان عن قصد . (النية) هي القصد الى الفعل ، (الهجرة) الترك والمراد هنا مفارقة دار الكفر الى دار الاسلام خوف الفتنة على الدين بالمنع من اقامته ، (يصيبها) يحصل عليها ، (ينكحها) يتزوجها .

التراكيب :

بالنيات يتعلق بمحذوف تقديره معتبرة ، ودل هذا المتعلق الخاص ما جاء بعده من التفصيل بين الهجرتين والمقام الذي ألقى فيه الكلام ، كما سنبينه في مورد الحديث . ونظيره في هذا التقدير قولهم : المرء بأصغريه قلبه ولسانه أى معتبر بهما .

والمرء بأدبه أى معتبر أو يعتبر به والباء سببية ، وانما المحصر والمحصور فيه هو الجار والمجرور ، وما أفادته الباء من معنى السببية أى لا سبب تعتبر به الاعمال الا النيات نظيره انما زيد قوي بقومه أى لا سبب لقوته إلا قومه . فأفاد التركيب حصر اعتبار الاعمال فى نياتها والمقصود بها لا فى صورها وظواهرها . ولكل امرئ خبر ما نوى أى نواه قدم عليه ليحصر فيه بانما فأفاد التركيب أن حظ كل عامل من عمله هو ما قصده أى عين ما قصده فى كميته ومقداره دون ما لم يقصده . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله أى قصدا فهجرته الى الله ورسوله أى وقوعا واعتبارا ففعل الشرط وجوابه لم يردا على معنى واحد ، ومثل هذا يقال فى الشرط الثانى وجوابه وذكر تزوج امرأة بعد دنيا يصيبها تخصيص بعد تعميم لان ذلك الخاص هو سبب الحديث . واللام فى لدنيا لام الاجل والعلة فتفيد أن طلب الدنيا أو طلب التزوج هو العلة الباعثة له دون قصد طاعة الله فلا يدخل فيه ما اذا كان الباعث هو الطاعة ، وطلب هذه الاشياء جاء على سبيل التبع .

سبب الورود :

قال القسطلانى : قد اشتهر أن سبب هذا الحديث قصة مهاجر أم قيس المروية فى المعجم الكبير للطبرانى باسناد رجاله ثقات من رواية الاعمش .

ولفظه : (عن أبى وائل عن ابن مسعود قال كان فىنا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها . قال فكنا نسميه مهاجر أم قيس) .

المسلم :

ان اعمال الناس قد تشترك فى صورها ومظاهرها ، حتى لا يكون فى ذلك فرق بينها . ولكنها بذلك التساوى الصورى الظاهرى لا تكون متساوية فى الاعتبار والحقيقة وما يتبعهما من القبول والرد فى نظر الشرع ، فقد هاجر مهاجر أم قيس كما هاجر سائر المهاجرين . الجميع قد كان منهم مفارقة الديار وترك دار الكفر الى دار الاسلام واللحوق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعمل عمل واحد قطعا ولكن القصد مختلف فقد كان قصدهم بهجرتهم طاعة الله ورسوله ، وكان قصده بهجرتهم التزوج بأم قيس ، فكانت هجرتهم واقعة عند الله تعالى موقعها محصلة لهم رضا ومثوبته ، وكانت هجرتهم لا موقع لها عند الله ولا حظ لها من ثوابه ، وكانت معتبرة من عمله الدنيوى لا من عمله الدينى ، ومثله كل من قصد بهجرتهم غرضا من أغراض الدنيا ما حمله على الهجرة الا هو . هذا معنى الجملة الاولى من الحديث الشريف .

ومعنى الجملة الثانية : أن الاعمال المعتبرة عند الله التى قصد بها طاعته تتساوى أيضا فى صورها ومظاهرها ولكنها لا تتساوى منازلها فى الاعتبار والقبول والمثوبة . بل تتفاوت حظوظ أصحابها فى ذلك بحسب تفاوتهم فى مقاصدهم منها ، فيهاجر المهاجران - مثلا - كلاهما يقصد بهجرتهم طاعة الله ورسوله هذا لا يقصد الا ذلك وذاك يقصد معه على سبيل التبع غرضا دنيويا من تجارة أو تزوج . فحظ الاول من هجرتهم هو طاعة الله ورسوله وحدها غير متبعة بشيء ، وحظ الثانى هو الطاعة المتبعة بشيء . وثواب الاولى - قطعا - أعظم من ثواب الثانية ، أو يكون أحدهما قصد الهجرة وما يكون معها من جهاد بالنفس والمال ومصاحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وخدمته وصحبته والتفقه عليه وتكا سواد أصحابه وعمارته
مدينته ، والاخر لم يخطر بباله شيء من هذا . فحظ الاول من
عمله عظيم وثوابه كثير على حسب كثرة مقاصده وتنوعها ،
وحظ الثاني واحد وهو الهجرة ، وثوابه عليها بالخصوص .
وذلك حسب قصده ونيته ، ومثل هذين القاصدان للمسجد لأجل
الصلاة وأحدهما يقصد مع ذلك عمارة المسجد وحبس الجوارح
على الطاعة وارشاد الضال وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل وتكثير
الجماعة والتعاون على الخير بحضور مشاهدته وبعث غيره على
الاقتداء به فيه . والاخر لم يخطر بباله شيء من هذا . فحظ
الاول من عمله وثوابه عليه أكثر بكثير من حظ الثاني وثوابه
وان كانا كلاهما في طاعة الله .

فالنيات والمقاصد كما تفرق بين العاملين المتماثلين وتؤثر
فيها بالقبول والرد وهو مقتضى الجملة الاولى - كذلك - تفرق
بين العاملين المقبولين وتؤثر فيهما باختلاف مقدار الثواب
وحظ العامل منه وهو مقتضى الجملة الثانية وهذا أثر كبير
للنيات في الاعمال .

الاحكام :

أفاد الحديث أن العمل الديني لا يكون مقبولا حتى تقصد به
طاعة الله وأن من قصد به غير ذلك فعمله مردود عليه ، وأن أجر
العامل يقل ويكثر على حسب نيته بعمله ، وأنه يمكنه أن يقصد
سقاصد كثيرة من الخير بعمل واحد ، فيتضاعف ثوابه عليه
بحسب نيته وان لم يقع ذلك فعلا بعمله ، كقصد ارشاد الضال
في المسجد ولم يجده ، أو تعليم الجاهل ولم يلقيه ، وقصد الجهاد
من الهجرة ومات قبله ، وأمثال ذلك كثير .

لغريم :

كما أثرت النية في الأعمال التعبدية بالقبول والرد أو بتفاوت الاجر . كذلك تؤثر في الأعمال المباحة ، فان المباحات في نفسها لا يثاب ولا يعاقب عليها ولكنها بالنية والقصد منها يدخلها ذلك وتلحق بما اريد منها الحاق الوسائل بمقاصدها .
فالمشي - مثلا - مباح وقد يكون ينوى به الذهاب الى التعلم فيصير عمل طاعة فيثاب عليه ولو لم يجد المعلم فلم يتعلم ، وقد ينوى به الذهاب الى السرقة فيصير عمل معصية فيأثم به وان حيل بينه وبين ما قصد فلم يسرق ، وكذا سائر المباحات .

ارشاد وترغيب :

كما علينا أن نجتهد في تطهير أعمالنا من المخالفات وقصرها على الطاعات والمباحات - كذلك علينا أن نجتهد في طاعتنا أن تكون خالصة لوجه الله ، وأن نبعد عنا كل خاطر يلفتنا الى غيره حتى يسلم لنا القصد كله خالصا والعمل كاملا ، أو يسلم لنا القصد الاول الذي هو شرط القبول ، فاذا كان شيء آخر بعده يكون لاحقا وتابعا ، وان نتفقه ونتدبر بعد ذلك في نيتنا بطاعتنا فنوفرها ونستثمرها ونقصد بها ما حضرنا من وجوه الخير التي يمكن أن تقصد بها . وأن ننظر مثل ذلك في أعمالنا المباحة كأكلنا وشربنا ونومنا ومشينا وراحتنا ورياضتنا ، فنقصد بها الاستعداد للطاعات والتقوى لفعل الخيرات وكل ما يمكن أن تؤدي اليه أو تعين عليه من معروف ، فتصير أعمالنا المباحات من قسم الطاعات ، فما اسعدنا حينئذ وما أعظم ثروتنا من الخير .

نحن لا نسلم من مخالفة وتقصير وفي ذلك علينا خسار كثير ولا يجبر ذلك الخسار الا بسلوك هذا الطريق الشرعي القويم

فهل هم أيها الاخوان في الله اليه وفيه - والله - التجارة
الرايحة ، والحياة الناجحة وارضاء الرحمن وارغام الشيطان
والسمادة في الدارين .

تنبيه وتعذير :

الاعمال إما طاعات لأنها مأمور بها وجوبا أو استحبابا
وإما مخالفات لأنها منهي عنها تحريما أو كراهة ، وإما مباحات
لأنها غير مأمور بها ولا منهي عنها . فالمخالفات بقسميها لا تقلبها
النيات طاعات لأنها في نفسها غير عمل صالح ولاننا علمنا بالنهي
عنها ، ان قصد الشارع هو تركها وعدم وجودها ، فقصد
المكلف مضاد لقصد الشارع فكان ساقطا لا عبرة به ولا أهلية
له لقلب الوضع الشرعي .. والطاعات بقسميها هي التي تؤثر
فيها النية بالقبول والرد بحسب قصد الله بها وقصد غيره أو
بتفاوت درجات القبول بحسب القصد على ما تقدم وهي
المقصودة بالقصد الاولى من الحديث .

والمباحات مثلها تؤثر فيها النيات فتقلبها طاعة أو معصية
لان الشرع لما اباحها علمنا انه لا قصد له لا في وجودها ولا في
عدمها من حيث ذاتها ، فكان لقصد المكلف حينئذ سبيل الى
التأثير فيها .

وقد غفل عن هذا الحقيقة أقوام - عفا الله عنهم - فتراهم
يستبدلون على أعمالهم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (انما
الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى) قاصدين الى
تبريرها غير ملتفتين الى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات
أو المباحات . وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج
الى الاضرحة وايقاد الشموع عليها والندور لها وكالرقص
وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات

— ويعتكأون في ذلك كله على (انما الاعمال بالنيات) . كلا .
ليس بامانيتهم ولا امانتي اهل الكتاب فان البدع كلها من قسم
المخالفات وان المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات .

فحذار أيها الاخوان في الله من هذا الجهل الذي أدى الى
تعريف الكلم عن مواضعه والى المداومة على المنكر والفرح به ،
ونعوذ بالله — لنا ولجميع اخواننا المسلمين — ان نكون من الذين
ظلل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا
ونسأله تعالى لنا ولإخواننا المسلمين ان نكون من الذين يرجون
لقاء ربهم فيعملون الأعمال الصالحة ولا يشركون بعبادة ربهم
أحدا (I) .

مجالس العلم الاقبال عليها والاعراض عنها

عن أبي واقد الليثي رضى الله عنه :

« بينما رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جالسٌ في المسجد والناسُ معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثةٌ فأقبل اثنان الى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذهب واحدٌ . فلما وقفَا على مجلسِ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سلَّما ، فاما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلسَ فيها . وأما الآخرُ فجلسَ خلفَهُم ، وأما الثالثُ فأدبرَ ذاهبا . فلما فرغ رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : أَلَا أُخْبِرُكُمْ عن النَّفَرِ الثلاثةِ ، أما أحدهم فأوى الى الله فأواه اللهُ ، وأما الآخرُ فاستَحيا فاستَحيا اللهُ منه ، وأما الآخرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عنه » .

* * *

السند :

خرجه مالك وتلقاه من طريقه الاثمة البخارى ومسلم والترمذى والنسائى رضى الله عنهم .

الفاظ المتن : الفرجة : الخلل بين الشيئين . أوى : أوى الى منزله نزله وأستقر فيه ، وأوى الى الله ، لجأ اليه ودخل مجلس ذكره ، ومنزل أوليائه .

آواه : آواه أنزله منزله وأدخله مسكنه، وآواه الله لبله وطمه
الى أهل مجلس ذكره وأناله ما ينيلهم من رحمته .

استحيا : الحياء تغير وانكسار يعتري الانسان عند خوف ما
يذم به أو يلام عليه فيمنعه منه فاستحيا هذا معناه امتنع من
الذهاب كما ذهب صاحبه أو ترك المزاحمة في الحلقة . فاستحيا
الله منه : ترك عقابه ولم يحرمه من ثواب . أعرض : التفت
الى جهة أخرى فذهب اليها . فأعرض الله عنه : حرمه من الثواب .

البيان :

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يجلس في المسجد
النبوي لأصحابه ويجلسون اليه حلقة فيعلمهم القرآن والحكمة
ويعظهم ويرشدهم ، فجاء هؤلاء الثلاثة من طرف المسجد والنبي
صلى الله عليه وسلم في حلقة ، فأقبل اثنان وذهب الثالث ،
ودخل أحد الاثنين في الحلقة فسد فرجة وجلس . الآخر خلف
الحلقة ، فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من درسه أراد أن
يعرف القوم بصنيع الثلاثة ليعلموا حكم عمل كل واحد منهم في
الشرع ، فبين لهم أن الأول نال الأجر والمدح باقباله على مجلس
العلم وسده الفرجة ، وأن الثاني سلم من الذم ولم يكن له من
الأجر ما للأول ، وأن الثالث حرم من الأجر وتحمل الملامة .

تحرير :

فسر الاعراض بالغضب والسخط وفسرناه بالحرمان من الأجر
مع الملامة - لأن ترك الاتيان ليس تركا لواجب حتى يستوجب
صاحبه الغضب والسخط الذي من مقتضاه الاثم ، بدليل أن
النبي صلى الله عليه وسلم لم يمنعه من الذهاب ، ويؤيد تفسيرنا
ما جاء عن أنس عند الحاكم، ولفظه « فاستغنى فاستغنى الله عنه »

وهذا ظاهر أن معناه لم يقبل على ما فيه أجر وثواب فلم يعط
أجرا ولا ثوابا .

وفسر بعضهم استحياء الثانى بأنه لم يدخل للحلقة وفسره
آخرون بأنه استحياء من الذهاب عن المجلس ، والتفسير الثانى
أرجح ، لأن سد الفرجة مطلوب فلا يمدح بالاستحياء منه . ولأنه
جاء فى رواية أنس عند الحاكم « ومضى الثانى قليلا ثم جاء
فجلس » وهذا نص فى المراد .

الفوائد والاحكام :

الاولى :

الجلوس فى المساجد حلقا للتعلم والتعليم :

الثانية :

تعليم الناس ووعظهم وارشادهم فى المساجد ، وهذان مما
أجمع عليه المسلمون فى جميع الاعصار والامصار وجرى عليه
عملهم وعلم بالضرورة عندهم فلا يتعرض لهم فيها الا ظالم من
شر الظالمين ، له فى الدنيا خزي وله فى الآخرة عذاب عظيم .

الثالثة :

التحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسد فرجها فهى فى ذلك كصفوف
الصلاة فيجوز التخطى لسد الخلل كما فعل الاول ويجلس خلفها
اذا لم يكن موضع فيها كما فعل الثانى .

الرابعة :

فضل الاقبال على مجالس العلم وكراهة الاعراض عنها الا
لغدر .

الخامسة :

بيان احكام الاعمال التي تقع امام الناس حين ونوعها ليرسخ
علمها ويتمظ بما فيها .

السادسة :

لوم من زهد في الخير ولم يحرص عليه وان لم يكن ذلك الخير
من الواجبات عليه في تلك الحال .

التهاد :

ان من يؤمن بانه يحاسب على مثاقيل (I) ذرة من أعماله لا يكون
الا حريصا على الخير أقل القليل منه ، ومن شأن الحريص على الخير
ان يسارع اليه ويسابق فيه فلا يرى موطننا يشغله بين أهله الا
ملاء ولا نقصا يمكنه تكميله الا كمله حتى ماذا سبق الى خير
وقف عندما حصل وكان له بنيته أجر من سبق .

فهذا المجلس النبوي الكريم مثله في المعنى جميع مواطن الخير
ومشاهد الفلاح . بصرنا الله بالخير وحببنا فيه وأعاننا عليه
وجعلنا من أهله (*) .

(1) في الاصل : مثاقيل .

(*) ش : ج 3 ، م 13 - غرة شعبان 1356 هـ - ماي 1937 م .

تعلم اللغات المحتاج اليها

« زيد بن ثابت قال : أمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أتعلّم له كتابَ يهودٍ . قال : إني والله ما آمنُ يهودٍ على كتاب . قال : فما مرّ بي نصفُ شهرٍ حتى تعلّمته . قال : فلما تعلّمته كان اذا كتب الى يهودٍ كتبتُ إليهم ، واذا كتبوا إليّ قرأتُ له كتابَهُمْ » . رواه الترمذى وحسنه ورواه غيره .

* * *

لما نزل النبي - ص - بالمدينة مهاجرا ، كان بها وبضواحيها مع الاوس والخزرج (ض) اليهود ، فأقرهم النبي - ص - وكتب بينه وبينهم عهدا ، وكانت الكتب تدور بينه وبينهم في الشؤون والمصالح من الطرفين . فكانوا يكتبونه بالخط العبراني . كانت لغتهم العربية ، ولكنهم كانوا يكتبون بالخط العبري ، فأمر النبي - ص - كاتبيه زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أن يتعلم الخط العبري ، ليكتب له اليهم ، ويقرأ له ما يرد عليه منهم ، فيكون على يقين من كلامهم اليه ، وبلوغ كلامه اليهم ، وما كان ليحصل له هذا اليقين - وهم ليسوا بمحل الثقة - لو تولى ذلك واحد منهم ، فقد لا يكتب عنه كل ما يقوله لهم ، وقد لا يقول له كل ما كتبوا اليه . فتعاطى زيد تعلم الخط العبراني ، فما مضى عليه نصف شهر حتى حذقه ، وتولى الكتابة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والقراءة له .

الفوائد والاحكام :

الاولى : كل قوم تربط بينهم المصالح لابد لهم من التعاون ، ولا يتم التعاون الا بالتفاهم ، والتفاهم بالمشافهة والكتابة ، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة ان يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه . وبقدر ما تكثر الاقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات والخطوط . ويلزم تعلمها ، لان العلة هي الحاجة . وسواء كانت المصلحة التى تربط الاقوام عمرانية أو علمية ، لان المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج الى تحصيلها ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - امر زيدا بتعلم الكتابة لان اللغة كانت عربية ، ولو كانت لغة أخرى لامره بتعلمها لعل الحاجة ، والحكم يدور مع العلة ، وقد جاء عن زيد من طريق أخرى - ذكرها الترمذى - وأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أمره أن يتعلم السريانية ، فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح ، علينا أن نعرف لغتهم وخطهم ، كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطنا .

الثانية : هذه السنة أصل فى اتخاذ الكتبة والتراجمة فى الدولة ، وما يشترط فيهم من العلم والامانة .

الثالثة : كان فى امكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يكاتبهم بالخط العربى ، ويلزمهم أن يكاتبوه به ، ولكن تسامح الاسلام واحترامه لمحترمات الامم فى دينهم وقوميتهم قضيا بترك اليهود يكتبون ويكاتبون بخطهم ، فأقرهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على ما أرادوا ، وكلف هو من تعلم خطهم ، وتركها لاتباعه سنة بعده .

الراهية : هذه السنة أصل في ضبط أمور الدولة بالكتابة
فيما يصدر عنها ، وفيما يوجه اليها ، ومثلها ضبط كل المعاملات
فهي أصل في التسجيل على العموم . وهكذا تجد سنة النبي - ص -
إذا تتبعناها - قد قررت - بالفعل - أصولا كثيرة من أصول
المدنية والعمران ، ولهذا كان على قاريها أن يتناولها للفهم
والاستنباط والتطبيق على الأحوال (I) .

(1) ش : ج 2 ، م 11 - غرة صفر 1354 هـ - 5 ماي 1935 م .

لا لوم على من صدق المتاب محاجة آدم وموسى عليهما السلام

عن أبى هريرة (ض) ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تحاج آدم وموسى ، فحج آدم موسى . قال له موسى أنت آدم الذى أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى الذى أعطاه الله علم كل شىء واصطفاه على الناس برسالته ؟ قال نعم . قال أفتلومنى على أمرٍ قد قُدر عليّ قبل ان أُخلَق » رواه الاثمة .

* * *

تمهيد :

الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بعد موتهم الدنيوى احياء حياة برزخية روحية أسمى وأرقى من حياة غيرهم بمقتضى كمالاتهم ومقاماتهم ، فتتلاقى أرواحهم فى العالم العلوى القدسى ويكون بينها التعارف والتخاطب ، وعلى هذا الوجه وقعت هذه المحاجة بين آدم وموسى عليهما السلام . وقصها علينا النبى (ص) لنستفيد ما فيها من العلم ونقتدى بما فيها من عمل .

الالفاظ :

تحاج : تنازعا وذكر كل واحد حجته ، فحج آدم موسى : غلبه فى الحجة . أغويت الناس : أضللتهم أى كنت سببا فى إخراجهم

الى الارض فاغوتهم واضلتهم الشياطين . واخرجتهم : اى كنت
سببا فى اخراجهم بأكلك من الشجرة . علم كل شئ : اى مما
يحتاج اليه فى هداية الناس . واصطفاه على الناس : من غير
المرسلين . قدر على : اى سبق به علم الله ومضت به ارادته فى
الأزل .

المعنى :

التقى هذان النبيان الكريمان الثقاء روحيا فى العالم
العلوى ، فوجه موسى الى آدم لومه على ما كان منه من الأكل من
الشجرة والمخالفة مما أدى الى اخراجه من الجنة فنسل ذريته
بالارض فكان سببا فى خروجهم اليها وتمكنت منهم الشياطين
فى دار التكليف فأغوت وأضلت من أغوت وأضلت منهم وكان
ذلك كله بسببه .

فدفع آدم هذا اللوم بان ما كان منه كان مقدرا عليه قبل أن
يخلق . فلا لوم عليه فيه اذ لا دخل له فى التقدير ، وعرض آدم
لموسى بانه ما كان ينبغى له ان يكون منه هذا اللوم على المقدر
مع علو مقامه بالعلم والاصطفاء ، فغلب آدم موسى وقامت
حجته عليه .

بسط وبيان :

دلت الادلة القطعية أن ما يكون من العبد سبق به علم الله
ومضت به ارادته وكتب عليه قبل ان يخلق : « إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ
خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » « مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نَبْرَأَهَا » كما دلت الادلة القطعية على ان الانسان مؤاخذ بعمله
ملوم عليه لما عنده من التمكن وما له من الاختيار « لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » وانه لا مؤاخذة

عليه بعد التوبة ولا لوم : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » .

وآدم عليه السلام كانت منه المخالفة على التأويل وتاب الله عليه ، وكل ذلك قد كان في حياته فلم يبق عليه لوم بعد ذلك المتاب . فلما لامه موسى لم يكن سبب اللوم من ناحيته - وهو المخالفة - قائما لزواله بما كان من التوبة ، ولم يبق الا التقدير السابق وهو لا دخل له فيه فكيف يلام ، فقامت حجته على موسى بسبب انعدام ما يوجب عليه اللوم وهو المخالفة فكان لوم موسى في غير محله .

دفع شبهة :

قد احتج آدم بالقدر السابق فنهضت حجته . فهل يحتاج كل مخالف بالقدر السابق فتنهض حجته ؟ كلا : فان الأدلة القطعية المتقدمة تمنع من ذلك منعا قاطعا . والتحقيق ان المخالف له حالتان :

حالة التوبة الصادقة التي أسقطت المؤاخذة وهذه هي حالة آدم التي احتج فيها فنهضت حجته .

وحالة عدم التوبة وهذه لا حجة فيها بالقدر لوجود المؤاخذة بالعمل المكتسب . وآدم وان لم يذكر توبته بمقاله فهي مفهومة من حاله معروفة مما انزله الله من كتبه على موسى وغيره .

دفع شبهة أخرى :

فاذا كان آدم لا لوم عليه لسقوط المؤاخذة بالتوبة فكيف لامه موسى ؟ والجواب ان موسى لا يجهل هذا ولكنه غافل عنه أو غفل عما كان من آدم من التوبة ، وتجاوز عليه الغفلة وهو

ليس في دار التكليف ولا في مقام التبليغ . فلما ذكر آدم دليله
ذكر موسى ما غفل عنه فسلم .

اقتداء :

المناظرة في العلم والدين والمحااجة بالحق من الاصول
الشرعية والكمالات الانسانية لا يتعالى عنها كبير لكبره ، ولا
يحتقر فيها صغير لصغره ، فالحق هو الحق على أى لسان ظهر ،
والحجة هي الحجة من أى ناحية قامت ، وعلى هذا الاصل حاج
موسى آدم وهو أبوه .

ومن حق المناظر ان يذكر كل ما يراه من الحجة الحققة لاثبات
قوله ولو كان فيه ثقل على خصمه ، وعلى هذا الاصل نسب موسى
لآدم الاغواء والاخراج - وان لم يكن من فعله - لانه متسبب
عنه .

ومن الواجب على من لاح له الحق في حجة خصمه ان يسكت
ويسلم . فقد علمنا النبيان الكريمان كيف يعتمد على الحجة في
البداية وكيف يخضع لها في النهاية والقدوة هما صلى الله
وسلم عليهما (I) .

السنة

(من رغب عن سنتي فليس مني)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ) .

* * *

السند :

رواه مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة
ومسلم يحيى عن ابن يحيى عن مالك .

المتن :

روى بوجهين ثابتين ، الاول فهو اهلكهم برفع الكاف : اسم
تفضيل ، والثاني بفتح الكاف . فعل ماض .

الالفاظ :

الهلاك : الاستحالة الى الفساد وذهاب حالة الصحة والاستقامه
التي تصدر عنها الفوائد ، ويكون بها الاستعداد . يقال هلك
زيد اذا مات ، وهلك الطعام اذا تغير واستحال فهلاك الناس
فسادهم في أحوالهم بفساد عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وذلك

هلوان لهابهم واضمحلالم ، واهلكهم . على الوجه الاول :
اشدهم هلاكا . وعلى الوجه الثانى : اوقعهم فى الهلاك .

المعنى :

– على الوجه الاول – اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس
يميبهم وينقصهم ويحقّر من أمر جماعتهم فقد صار بذلك أعظم
هلاكا منهم لارتكابه معصية كبيرة تعدت الى غيره وعمتهم وهى
معصية الكبر الذى هو احتقار المرء من عداه ، فهذا قد تكبر
على جميع الناس فكان عظم هلاكه على حسب عظم معصيته بهذا
العموم فى الكبر والاحتقار .

وعلى الوجه الثانى – اذا سمعت الرجل يقول هلك الناس
يشبطهم ويقنطهم فهو بذلك التثبيط والتقنيط يأسهم من
رحمة الله وصددهم عن الرجوع اليه بالتوبة ودفعهم الى
الاستمرار فيما هم عليه ، فأوقعهم بكلمته تلك فى الهلاك :
هلاك البؤس والقنوط والاندفاع فى الشر :

الاحكام :

– على الوجه الاول – لا يجوز الحكم على عموم الناس بالشر
والفساد ولو كان ذلك ظاهرا بينهم فاشيا فيهم لانه حكم
بدون علم . وظن سوء بمن قد يكون فى غمار الناس على خلاف
ما عليه أكثرهم . هذا اذا حكم حكما لمجرد الاخبار فاحسرى
واولى اذا زاد على ذلك تحقيرهم .

وعلى الوجه الثانى – لا يجوز لمن رأى الناس فى حالة سيئة
ان يقنطهم من رحمة الله وامكان تدارك أمرهم واصلاح
حالهم . هذا اذا كان يحمله على ذلك ما تعظمه من سوء حالهم

في ظاهر أكثرهم وأولى إذا كان يحمله على ذلك صدهم
وتثبيطهم عن التوبة والاختصاص بالاصلاح .

توجيه :

كان الحديث الشريف مفيدا لعدم الجواز لما ذكر - لانه
سيق مساق الذم لهذا القول ووصف قائله بانه اعظم الناس
هلاكا أو أوقع الناس في الهلاك وما ادى الى أحد هذين لا يكون
الا ممنوعا .

ويؤيد هذا الحديث في المنع الأدلة الدالة على منع الحكم بدون
علم . وظن السوء بالناس وتحقيرهم وتقنيطهم عن الخير وصددهم
عنه .

تقييد وتعميم :

قد يقول الانسان هلك الناس اشفاقا عليهم وتحزنا لما هم فيه
فلا يكون مثل من قاله تحقيرا وتقنيطا ، غير انه يبقى في عبارته
ذلك التعميم الذي هو حكم بغير علم . مع ما توقعه هذه العبارة
من القنوط - خصوصا اذا تكررت - ولو لم يقصده القائل ،
فلا ينبغي ان يقال هذه العبارة ومثلها من كل ما يفيد هلاك
جميع الناس . .

الآداب :

على الوجه الاول - على من يريد ان يرشد المسلمين ويعمل
لاصلاح حالهم أن ينظر اليهم بعين الشفقة والحنانة لا بعين
الزراية والاحتقار .

فان الشفوق تدفعه شففته الى المبالغة فى العناية بتتبع الادواء واستقصاء أنواع العلاج . بخلاف الزارى المحتقر فانه يترفع بنفسه عن الناس ويتركهم فيما هم عليه ، وان باشر شيئاً من معالجتهم فانه يباشره عن استئصال واشمئزاز لا يصل معها الى داء الامة شىء من علاجه ولن يستطيع هو معها صبرا على الاستمرار فى عمله أو على اتقان القليل منه .

على ان الشفوق تشعر نفوس الامة منه بتلك الشفقة فتقابله بمثلها وبالامثال لما يأتيها منه لمعالجتها واثقة منه بنصحه منقادة لارشاده راجية نيل الخير على يده ، والزارى المحتقر تشعر منه الامة بذلك فتقابله بمثله وتنقبض نفوسها عنه وتقوى ريبتها فى قوله وفعله وقد تصارحه ببعضه فتؤدى الحال بينهما الى العداوة والمقاطعة . ويكون خيرا له لو تركهم من أول الامر وشأنهم .

وعلى الوجه الثانى : على مرشدى المسلمين أن يعانون ادواءهم بالعلاجات النافعة ويشخصوها لهم عند الحاجة بالعبارات الرقيقة المؤثرة ، فى رفق وهودة مجتنبين كل ما فيه تقنيط أو تشبيط . وان يعرفوهم بأنهم - وان ساءت نواح من احوالهم - فهناك نواح ما تزال صالحة . وهناك علاجات من الاسلام قريبة ناجعة ، وان يعرفوا ما فيهم من فضائل وما لهم من مجد ، وما لهم بهذا الاسلام من قدر وعز ليثيروا فيهم النخوة ويبعثوهم على العمل والخير . واذا ذكروا لهم سيئاتهم ذكروا لهم قرب السبيل الى النجاة منها بالاقلاع عنها فيسرعون بالتوبة والانابة .

أصل عام فى التربية :

هذا الحديث أصل عظيم فى التربية المبنية على علم النفسىة البشرية فان النفوس عند ما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب . وعند ما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع الى اخط دركات السقوط .

فجاء هذا الحديث الشريف يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم وذلك يقتضى ان المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم .

وهذا الاصل العظيم الذى عليه هذا الحديث الشريف يحتاج اليه كل مرب سواء أكان مربيا للصغار أم للكبار ، وللأفراد أم للأمم ، اذ التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتل للنفوس نفوس الافراد والجماعات وذلك ضد التربية ، والأحترام والتنشيط وبعث الرجاء احياء لها وذلك هو غرض كل مرب ناصح فى تربيته .

فاللهم صل على هذا النبى الكريم العظيم الرحيم الذى علمته ما لم يكن يعلم وكان فضلك عليه وعلىنا به عظيما ، فكم من علوم وأسرار انطوت عليها احاديثه الشريفة قد أتت على ما لم تعرفه البشرية الا بعد حين ، ولا عجب فهو الذى أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم (I) .

(1) ش : ج 3 ، م 10 - غرة ذى القعدة 1352 هـ - 15 فيفرى 1934 م .

لا يجزم لأحد انه من أهل الجنة إلا بنص من الشارع

(قال ابن شهاب أخبرني خارجه بن زيد بن ثابت ان أم
العلاء - امرأة من الانصار - بايعت النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم ، أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان
 ابن مظعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما
 توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك
 لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وما
 يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فمن
 يكرمه الله ؟ فقال عليه السلام: أما هو فقد جاءه اليقين، والله
 اني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وانا رسول الله ما يفعل
 بي . قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبداً) ، رواه البخاري
 في صحيحه من طرق في عدة أبواب .

* * *

المتن :

ثبت عند البخاري أيضا (ما أدري ما يفعل بي ولا بكم) .
 وثبت عنده أيضا « ما أدري ما يفعل به » .

ترجمة شخصي الحديث :

شخصا الحديث هما اللذان كانا سببا في ورودهما أم
العلام المزكية وعثمان المزكى . فاما أم العلام فهي بنت الحارث
ابن ثابت الانصارى الخزرجية وهي أم خارجة بن زيد الراوى
عنها ، واما عثمان بن مظعون فهو أبو السائب بن حبيب بن وهب
القرشى الجمعى من السابقين، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، هاجر
الهجرتين ، وشهد بدرا، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة،
وأول من دفن بالبقيع منهم .

الشرح :

لما جاء المهاجرون الى المدينة ولا أهل لهم ولا مال ، نزلوا
على الانصار من الاوس والخزرج فاقسمهم الانصار بالقرعة
فطار في قسمة بيت زيد بن ثابت عثمان بن مظعون فأنزلوه في
ابيائهم فمرض مرضه الذى توفى فيه فلما توفى وغسل وكفن
في اثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلعت
أم العلاء في حضرة النبى - ص - تشنى على عثمان فدعت له
بالرحمة وشهدت له جازمة بأن الله اكرمه أى بالجنة لأنها هى دار
كرامة الله لعباده، فأنكر عليها النبى (ص) وقال لها وما يدريك
ان الله اكرمه ؟ أى من أين علمت ذلك . ففدته بأبيها تأدبا
معه - ص - فى الخطاب وقالت فمن يكرمه الله أى اذا لم يكرم
عثمان مع سابقيته وهجرته وبدريته فمن يكرم ! فبين لها النبى
صلى الله عليه وآله وسلم ما يجوز أن يقطع به وما لا يجوز ان
يتعدى حد الظن ، فقال لها اما هو فقد أتاه اليقين يعنى الموت
وهذا مقطوع به ، وانى لارجو له الخير ، وهذا هو الذى لا
يجاوز حد الظن ، ثم بين لها ان الغيب لا يعلمه الا الله وان
البشر لا يعلمون الغيب حتى الانبياء - ص - فانهم لا يعلمون

الا ما علمهم . فقال لها والله لا ادري وانا رسول الله ما يفعل
بى . فاهتدت الى ما هداها اليه النبى (ص) وقالت والله لا ازكى
احدا بعده اهدا . تعنى مثل هذه التزكية التى قطعت له فيها
بالكرامة .

توضيح :

ما فى لفظ الحديث موافق لما فى سورة الاحقاف المكية من
قوله تعالى : « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قال البيضاوى
اى فى الدارين على التفصيل اذ لا علم بالغيب . يعنى الا ما
علمه الله وقد اعلمه الله بانه مغفور له ما تقدم وما تأخر فى
سورة الفتح المدنية واعلمه بما أخبر به فى الصحيح من منازل
الكرامة يوم القيامة ومقامه المحمود وغيره من أنواع الخصوصية
والكرامة .

الاحكام :

فى الحديث اقتسام أهل القدرة أهل العجز عند الضرورة
والشدة . وفيه الدخول على الميت بعد تسجيته فى اكفانه ،
وفيه الدعاء للميت بالرحمة ، وفيه المنع من القطع لاحد
بالجنة دون نص شرعى ، وفيه المبادرة بانكار القول الباطل
فى الدين بفوز سماعه ، وفيه مراجعة المعلم بابداء وجه النظر
الذى وقع الخطأ فيه ، وفيه جواز ظن ورجاء الخير لأهله .

تفرقة :

ذكر الميت بما علم من حاله فى حياته ثناء عليه جائز
والقطع له بالنجاة ممنوع ، فاما هذا الثانى فدليل منعه من
الحديث المذكور ، واما الاول فدليل جوازه ما رواه مسلم فى

صحيحه عن ابن عباس قال : وضع عمر بن الخطاب على سريره فتكفاه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل ان يرفع وأنا فيهم ، قال فلم يرعنى الا برجل قد أخذ بمنكبى من ورائى فالتفت اليه فاذا هو على فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب الى ان ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله ان كنت لأظن ان يجعلك الله مع صاحبك ، وذاك انى كنت أكثر ما اسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : جئت انا وأبو بكر وعمر ودخلت انا وأبو بكر وعمر . وخرجت انا وأبو بكر وعمر فان كنت لأرجو ولأظن ان يجعلك الله معهما . وهذا فى ذلك الجمع دليل على اجماعهم على جوازه وهو لم يخرج عن ذكره بما علمه منه فى حياته وظن الخير له بذلك بعد مماته .

تحذير وارشاد :

لقد ابتلى كثير من الناس بالفوا فيمن يعتقدون فيهم الصلاح فيجزمون لهم بما لا يعلمه الا الله ، ثم زادوا على هذا فيزعمون ان فلانا مات فى رتبة كذا ، وحصل عند الله على منزلة كذا ، ثم زادوا على هذا فيزعمون ان فلانا يشفع لاتباعه ويعديهم على الصراط أو يجعلهم فى بطنه ويمر بهم وانه يحضر لهم عند الموت ويحضر لهم عند السؤال ويكون معهم فى مواقف يوم القيامة ، وكل هذه الدعاوى انبنت على الجزم بانه ممن أكرمه الله وانه من أهل الجنة ذلك الجزم الذى سمعت النهى والانكار صريحين فيه من النبى صلى الله عليه وآله وسلم على أم العلاء فى رجل من السابقين الاولين البدرين ، وليست هذه الدعاوى المبنية على المخالفة لهذا النهى النبوى الصريح قاصرة على العوام بل تجدها عند غيرهم وتسمبعها ممن يرفعون أنفسهم عن طبقتهم ، وتقرأها فى الكتب التى عدلت عن الاحاديث

النبوية الصحيحة والطريقة النبوية الواضحة وذهب في بنيات الطريق فكانت بلاء على العامة واشباههم ووبالا ، فاحذر أيها الاخ المسلم من عقيدة الجزم بالكرامة والجنة لغير من نص عليه المعصوم عليه وآله الصلاة والسلام . ومن تلك الدعاوى الباطلة التي انبتت عليها . ولا تجزم بالكرامة على الله لاحد غير المنصوص عليه وان كان عظيما ، فان قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحق وأعظم وأنف من لا يقول هذا ولا يقبله مرغم . وكل من استعظمته ممن هو على جانب من الصلاح والخير فانه لا يداني مقام عثمان بن مظعون البدرى فى الصلاح والخير وقد سمعت ما سمعت من النهي النبوي عن القطع له بالكرامة .

ومهما أعدنا القول فى هذا وأكدنا فائنا لا نفيه حقه من الإنكار والاستئصال لما نعلمه من رسوخ هذه الضلالة وقدمها والتهاون فيها وعظيم التجرى على الله بها . وهذا الحديث النبوى هو دواؤها والقاطع لها ، فليتأمله قراؤنا ولينشروه فى المسلمين وليذيعوه بالتلاوة والتفسير والتأكيد والتقرير عسى ان يشفى الله به القلوب من داء الغلو والادعاء والغرور والتغريب ، وليظن المسلم الخير باهل الخير وليرج لهم حسن الجزاء والمصير كما رجا النبى صلى الله عليه وآله وسلم الخير لعثمان ابن مظعون رضى الله تعالى عنه بعد ما نهى عن الجزم بالكرامة له ، وهذا هو دين الله الحق الوسط السالم من الغلو والتقصير . والله نسأل لنا ولجميع المسلمين ان يقف بنا عند حدود الشرع الشريف . ويحفظنا من الغلو والتقصير والتحريف ، انه هو الولي الحفيظ اللطيف (I) .

(1) ش : ج 11 ، م 8 - غرة رجب 1351 هـ - نوفمبر 1932 م .

تكثر السواد

« من كثر سواد قوم فهو منهم »

عن أبي الاسود قال : قُطِعَ على أهل المدينة بَعَثُ فَاكْتُبْتُ فِيهِ
فَلَقِيتُ عَكْرَمَةَ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ : أَخْبَرَنِي
ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكْثِرُونَ
سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيأتى
السهمُ فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله، فأنزل
الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » ،
رواه البخارى فى كتاب الفتن .

* * *

الألفاظ :

سواد القوم : أشخاصهم . قطع عليهم بعث : فرض عليهم
جيش يبعث للقتال . اكتب : كتب اسمه فى جملة الجيش .

المعنى :

كان عبد الله بن الزبير قائماً بمكة ، وكان عبد الملك
ابن مروان بالشام ، والفتنة مشتعلة بين المسلمين ، بسبب
النزاع ما بينهما ، فكان عبد الله بن الزبير يبعث البعوث من
الحجاز الى قتال عبد الملك بالشام ففرض على أهل المدينة جيشاً

لكتب فيه أبو الاسود محمد بن عبد الرحمن الاسدي اسمه ليكون من جملته . ثم لقي عكرمة مولى ابن عباس ، فذكر ذلك له ، فنهاه عكرمة عن ان يكون في ذلك الجيش وأخبره عن ابن عباس بما كان من سبب نزول قول الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » ، وهو أن قوما من المسلمين كان المشركون يخرجونهم معهم ، لا ليقاتلوا المسلمين ، وانما ليكثروا سواد المشركين ، ويظهروا عظم جيشهم ، وكثرة عددهم في أعين المسلمين . فكانوا يقتلون بما يصيبهم من رمى السهام وضرب السيوف فاخذهم الله لمجرد تكثيرهم سواد المشركين ، وان لم يشاركوهم في القتال ، ولا حضروه طائعين، وانزل الآية الكريمة فيهم .

المطابقة :

ذكر عكرمة هذا لابي الاسود لانه أفاد حكم الله فيمن كثر سواد المقاتلين للمسلمين دون ان يقاتل ، أو يكون راضيا أو طائعا بالحضور . فكيف بمن اكتب للقتال مثل أبي الاسود ؟ ولا فرق في المؤاخذة في قتال المسلمين ، بين ان يكون مع المشركين أو مع المسلمين في الفتنة .

الأحكام :

من حضر مع قوم وكثر جمعهم فهو منهم وشريك لهم في عملهم، سواء أكان خيرا أم شرا كما يفيد الحديث الذي جعلناه ترجمة . وهو في مسند أبي يعلى . فاما في الشر فالنص فيه حديث ابن عباس هذا ، واما في الخير فحديث أبي هريرة في الصحيح ، في القوم الذين يجتمعون فيسبحون الله ويكبرونه ويهللونه ويحمدونه ويسألونه ويستجيرونه ويستخيرونه ويستغفرونه، فيقول الله للملائكة عليهم السلام ، قد غفرت

لهم ، فاعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ، فتقول
الملائكة : رب فيهم فلان عبد خطاء ، انما مر فجلس معهم ، فيقول
تعالى : وله كفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

الاهتداء :

فحق على المسلم أن يختار من يصاحب من رفقة ، أو يجالس
من جماعة ، أو يكثر من سواد قوم ، فانه محاسب على أعماله
ومن أعماله مجرد حضور بدنه (I) .

(1) ش : ج 4 ، م 15 - ربيع الثاني 1358 هـ - ماي 1939 م .

دعوى الجاهلية

أو

الكلمة المنتنة

(عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصاري يا للأنصار ، وقال المهاجري يا للمهاجرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ! » قالوا يا رسول الله كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال : « دَعُوها فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ ») .

السند : رواه الشيخان وغيرهما .

الالفاظ : كسعه : ضرب دبره بيده أو صدر قدمه . رجل ..

رجلا : كان الرجلان من الموالي ، يا للأنصار يا للمهاجرين : استغاثة من كل بقومه ومواليه لينصروه على الآخر . دعوى الجاهلية : الدعاء الذى كان يدعو به الجاهلية بنصرة العصبية لاثارة الحمية يدعو الرجل قومه لينصروه ولو على الباطل . دعوها : اتركوها . منتنة : مكروهة في العقل والدين ككراهة الشيء المنتن في الشم ومفرقة للجمع كما يفرق النتن المجتمعين .

المعنى :

كان الرجل فى الجاهلية . اذا نزل به أمر . استنصر بقبيلته وتعاضد بهم ودعاهم الى معونته ونصرته ، بما بينه وبينهم من عصبية قبلية فتشور حميتهم فيندفعون الى مؤازرته فيؤيدونه ظالما أو مظلوما ، فاذا كان ظالما زادوا فى ظلمه ، واذا كان مظلوما لم ينتهوا عند حد فى الانتقام له من ظالمه ، فلما جاء الاسلام أبطل الانتصار بالعصبية والتعاضد على الانتقام بالقبيلة . وجعل الحكم بالقضاء الشرعى والتوصل اليه بالبينات والحكام . فلو أن ذلك المكسوع كان ممن تأدب بالاسلام وتغلغلت روح الاسلام فى قلبه لكان دعا بدعوى الاسلام فقال يا مسلمون قد ضربنى هذا ، وأقام عليه البيعة وساقه الى النبى صلى الله عليه وسلم ليقتص له منه ، ولما لم يكن كذلك وكانت الروح الجاهلية ما تزال منها عقابيل (1) فى صدره دعا بدعوى الجاهلية ، وكان صاحبه مثله فقابله بمثلها ، فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهما سأل عن السبب الذى أثار تلك الدعوى فلما عرفوه بسببها نهى عنها وحذر منها ، فأبرزها فى أقوى صورة تنفر منها ابرازا للمعقول فى صورة المحسوس لانه أبلغ فى التأثير على السامع فوصفها بأنها منتنة .

الدعويان وأثرهما :

دعوى الجاهلية - يا بنى عمى ، أو يا قومى ، أو يا أهل بلدى ، أو يا أهل وطنى - انتقموا لى ، فاذا دعا بها وقعت التفرقة بين عشيرة وعشيرة أو بين قوم وقوم أو بين بلد وبلد ، أو بين وطن ووطن ، واثارت الحمية فى كل واحدة من الناحيتين على الاخرى ودفعت الى الاسراف والتعدى فأوسعت الظلم والشر ،

(1) العقابيل : الشدائد وبقايا الغلة أو العداوة مفردة (عقبول) .

وابقت الاحن والاحقاد والثرات مما يسترسل معه الظلم والفساد
فى المستقبل .

أما دعوى الاسلام فهى يا عباد الله ، أو يا مسلمون انى ظلمت
فأنقذونى أو أشهدوا لى . فاذا دعا بها كانت جامعة لا تفريق فيها
وأهابت بالسامعين كلهم كذات واحدة كلهم ينصرون الحق فيكفوا
الظلم ان كان واقعا على المظلوم فى الحال ويشهدون بالظلم عند
الحاكم ليجرى العدل مجراه .

فأين تلك الآثار من هذه الآثار ؟ ولقد ظهرت آثار الاولى فى
الامة العربية فى جاهليتها ، وظهرت آثار الثانية فيها بعد
اسلامها ، فأرى الله العباد - عيانا جهرة - اختلاف الاثرين فى
أمة واحدة فى زمن قريب وأقام عليهم حجته ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون .

تفرقة وتمييز :

كل من سعى الى تحصيل شىء مستعينا بذوى عصبية له لنسبة
جنس أو قبيلة أو بلد أو شيخ أو حرفة أو فكرة غير ناظر الى
أمة على حق أو على باطل - فقد دعا دعوى الجاهلية وكل من أجابه
فقد شاركه فى دعواه . أما من عرف الحق وتيقن من نفسه
الصدق فى طلبه واستعان على تحصيله بمن تربطهم به روابط
خاصة ولا يأبى أن يعينه عليه من لم يكن من جماعته لان قصده
الى تحصيل الحق باعانة أى كان - فهذا لا يكون دعا دعوى الجاهلية
بل دعا دعوى اسلامية لانها لم تخرج عن التعاون على الحق وهو
من التعاون على البر والتقوى .

ثبت في صحيح مسلم في غزوة حنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أي عباس ناد أصحاب السمرة » فنادى بأعلى صوته : أين أصحاب السمرة؟ وكانت الدعوة : يا معشر الانصار، يا معشر الانصار ثم قصرت على بنى الحرث بن الخزرج فصارت : يا بنى الحرث بن الخزرج يا بنى الحرث بن الخزرج .

فكانت الدعوة - في ذلك اليوم الشديد - لمن جمعتهم بيعة الرضوان وهم أهل السمرة ثم لمن جمعهم اسم الانصار ثم لمن جمعهم اسم اب . وكان ذلك كله حقا لانه دعوة الى الحق .

تعزيز وارشاد :

ليحذر المسلم من كل كلمة مفرقة من كل ما يثير عصبية للباطل وحمية جاهلية لا يدعو بها ولا يجيب من دعا اليها فان بلاء كثيرا حل بنا وفتنة كثيرة أصابتنا من تلك الكلمات المفرقة .

ولتكن دعوته - اذا دعا - بالكلمات الجامعة التي تشعر بالاهوة العامة وتبعث على القيام بالواجب بأيد متشابكة وقلوب متحدة حتى اذا دعا جماعة خاصة يعلم منه نفعا خاصا في مكان خاص فليكن بما يفهمهم انه الى الحق دعاهم وعلى القيام به استعان بهم دون اباية من انضمام كل من ينضم اليهم فانه ما توجه قوم الى نصره الله - ورضا الله قصدهم الا كان الله معهم : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » . (I)

(1) ش : ج 2 ، م 13 - 1 صفر 1356 هـ - 13 ابريل 1937 م .

الشرك والوثنية ودعوى النبوة

عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » .
رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

* * *

كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرف أصحابه بما يكون في أمته من بعده ، وهو تعريف للأمة كلها بما يكون فيها ، يعرفهم بذلك ليحذروه ويجتنبوا أسبابه ، ويبادروا إلى معالجته عند وقوعه .

لا يستبعد مسلم صدور الشرك والوثنية ودعوى النبوة من غير المسلمين ، وإنما يستبعد ويستنكر أن يكون شيء من هذا ممن يقولون أنهم مسلمون ، ولهذا قدم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا التعريف والانداز ، حتى إذا وقع شيء من هذا من هذه الأمة بودر إلى انكاره وعلاجه ، ولم يتساهل معهم في شيء من ذلك لأنهم يقولون أنهم مسلمون .

اللعوق بالمشركين :

من اعتقد مثل عقيدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل أقوالهم فقد لحق بهم ، وقد يكون اللعوق تاما مخرجا عن أصل الاسلام وقد يكون دون ذلك .

فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته ، ولكنهم كانوا يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لآلهتهم على اعتقاد أنها تقربهم الى الله .

وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الاموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تائبين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها الى الله ويتوسطون لها اليه ويزيدون أنهم ينصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب .

ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعاونتها .

وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام الى الأضرحة والمقامات تنحرونها عندها لإرضاء لها وطلبها لمعاونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضرر .

ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيما لها .

وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الاحياء أو الاموات فلا يكذبون .

لهذه الطوائف الكثيرة كلها قد لحقت بالمشركين . وصدق رسول الله (ص) في قوله : (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين) .

عبادة الأوثان :

كانت عبادة الأوثان في الجاهلية بالخضوع والتذلل لها ورجاء النفع وخوف الضر منها فيندرون لها الندور وينحرون لها النحائر ويلطخونها بالدماء ويتمسحون بها .

وفي الناس اليوم طوائف كثيرة لها أشجار ولها أحجار تسميها بأسماء وتذكرها بالتعظيم وتذبح عندها الذبائح وتوقد عليها الشموع وتحرق عندها البخور وتتمسح بها وتتمرغ عليها مثل فعل الجاهلية أو يزيد .

فصدق عليهم قول رسول الله (ص) : « وحتى يعبدوا الأوثان » .

هذا كله واقع في الأمة لا شك فيه ، وكما كان من نصيح نبيها - ص - أن أنذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه - فان من نصيح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه ، ويصوروه لها على صورته الشركية الوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه . ولو أن الأمة سمعت صيحات الانكار من كل ذى علم لاقلعت عن ضلالها . ورجعت الى رشدها فما أسعد من نصيحها من أهل العلوم وجاهد لانقاذها وما أشقى من غشها وزادها رسوخا في ضلالها ، وتماديافي هلاكها ، فحيها على العمل أيها المصلحون الناصحون المخلصون ، فان عهد الغش والخديعة قد آذن بذهاب ، وان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب .

دهوى النبوة : قد ضلت وهلكت باتباع أشخاص ادعوا النبوة من هذه الامة - طوائف كثيرة، وقد كان منهم اول الاسلام مسيلمة الكذاب، والاسود العنسى، ثم كان المختار بن عبيد الثقفى ثم كان منهم فى عصرنا وقبيله الباب، واليه تنسب البائية والبهاء، واليه تنسب البهائية، وغلام القاديانى واليه تنسب القاديانية، وقد كانت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلول وشيوخها، لولا أن قام فى وجوههم العلماء المصلحون وفضحوهم على صفحات « الشهاب » أيام كان اسبوعيا، فرد الله كيدهم، ووقى الله الجزائر شرا عظيما .

وقد أخبر النبى - ص - عن هؤلاء الكذابين بأنهم ثلاثون فلا بد الى أن يصلوا الى هذا العدد، وقد تكون بقيتهم فى أحشاء الايام .

وقد أخبر - ص - أنهم كذابون، وأنه لا نبى بعده، وقد صدق قوله - ص - فما من واحد منهم الا وقد ظهر من كذبه ما عسر تأويله على أصحابه، ومن غلظه وغلطه ما يدل على أنه لا مستند له من اليقين . فصلى الله على خاتم الانبياء وامام المرسلين (I) .

(1) ش : ج 1 ، م 11 - غرة محرم 1354 هـ - 5 ابريل 1935 م .

اتحاد المؤمنين وتعاونهم

(المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه) . رواه البخارى عن أبى موسى الاشعرى ، ومسلم عنه أيضا الى قوله بعضا .

* * *

المفردات :

المؤمن : آل فى اللفظين جنسية استغراقية ، فالمراد جميع الافراد ، للمؤمن : اللام لام الاختصاص ، يشد : يقوى بعضه بعضنا بالتضام والالتحام ، شبك : أدخل أصابع اليمنى بين أصابع اليسرى ، وأصابع اليسرى بين أصابع اليمنى .

التركيب :

الجملة الاولى خبرية لفظا ، طلبية معنى ، أى ليكون المؤمن للمؤمن كالبنيان ، وجيء بالطلب على صورة الخبر تنبيها على أن هذا المطلوب هو الشأن الذى لا ينبغي أن يكون سواه ، فهو بحيث يخبر عنه لا أن يطلب ، والجملة الثانية استئنافية لبيان وجه التشبيه .

المعنى :

الواجب على كل فرد من أفراد المؤمنين أن يكون لكل فرد من أفراد المؤمنين كالبنیان في التضام والالتحام حتى يكون منهم جسد واحد كما قال - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديث الآخر : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

زيادة بيان :

لقد قرر الحديث الشريف معنى الاتحاد الذي يجب أن يكون بين جميع أفراد المؤمنين على أكمل وجه في التصوير ، وأبلغه في التأثير ، فقد شبههم بالبنیان ، وذلك وحده كاف في افادة الاتحاد ، وزاد عليه التصريح بالشدة والتقوية ليبين أن في ذلك الاتحاد القوة للجميع تأكيداً للزوم الاتحاد بذكر فائدته ، ثم زاد عليه التصوير بالمحسوس ، لما شبك - صلى الله عليه وآله وسلم - بين أصابعه . هذا كله ليبين للمؤمنين لزوم الاتحاد وضرورته .

تبصر :

ألا ترى البنیان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة ، والحجارة الصغيرة والمواد الأخرى التي تلحم بها الحجارة وتكسى ، وكل ذلك محتاج إليه في تشييد البنیان ، فكذلك بنیان المؤمنين فانه متكون من جميع أفرادهم ، على اختلاف طبقاتهم ، فالكبير والجليل له مكانه ، والصغير والحقير له مكانه ، وعلى كل واحد أن يسد الثغرة التي من ناحيته ، مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنیان التي لا غناء لها عنه ، كما لا غناء له عن كل واحد منها فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته ، بمقدار

المركز الذى هو فيه ، والقدرة التى عنده ، ولا يجوز لاحد وان كان أحقر حقير أن يخل بواجبه من ناحيته ، فانه اذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل ، واذا ابتداء الخلل من الصغير تطرق للكبير .

ثم ألا ترى أصابعك وفيها القوي وفيها الضعيف ، حتى اذا شبكتها صارت كشيء واحد له قوة ومثانة زائدة ، وكل اصبع منها يمكن أن يلوى ما دام وحده ، فاذا اشبكتها عسر ليها ، وقوى أمرها ، فكذلك المؤمنون (I) باتحادهم وفيهم القوي وفيهم الضعيف تكون لهم قوة عامة زائدة ، وكل واحد منهم بمفرده يمكن قهره فأما اذا اتحدوا فانهم يكونون بقوة اتحادهم في مأمن من كل قهر .

تفقه :

لما قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : (المؤمن للمؤمنين ... الخ) . علق الحكم على الوصف ، فاقضى ذلك أن هذا هو واجب كل مؤمن من حيث أنه مؤمن مع كل مؤمن من حيث أنه مؤمن ، فيجب لهذا أن تطرح فى مقام الاتحاد والتعاون جميع المفرقات من المذاهب والمشارب ، وينظر الى وصف الايمان فقط . فهذه المذاهب وهذه المشارب ، أهلها كلهم أهل ايمان ، لا يدفع بعضهم بعضا عن ذلك ، والنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أمرهم بالاتحاد والتعاون باعتبار الوصف الاصلى الدين هم مشتركون فيه ، ليكون الاتحاد والتعاون فى مكنتهم ، دون التفات الى ما أحدثوه من مفرقاتهم ، فمن تعامى عن وصف الايمان الموجب للاتحاد ونظر الى مذهب أو مشرب من موجبات الافتراق فقد عصا أبا القاسم - صلى الله عليه وآله وسلم -

(1) كذا فى الاصل ، والصواب : المؤمنون .

وحاد الله ورسوله ، وأعرض عن دعوة الحق ، وأجاب داعي
الشيطان .

سلوك :

علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب ، أكيد ، محتم
علينا مع جميع المؤمنين ، وأن فيه قوتنا وحياتنا ، وفي تركه
ضعفنا وموتنا ، وأن نعلن ذلك بالسنتنا في كل مناسبة من
أحاديثنا ، وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا
مع اخواننا في كل ما يقتضيه وصف الايمان الجامع العام .
والله المستعان ، وعليه التكلان (I) .

(1) ش : ج 7 ، م 7 - غرة ربيع الاول 1350 هـ - جولييت 1931 م .

قيمة الرَّجُل بقيمة قومه

لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلُ المؤمنين في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائرُهُ بالحمى والسَّهرِ » . نبه على معنى عظيم في ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بكله ، وهذا الارتباط يقتضى أموراً كثيرة منها ما جاء نصاً في الحديث الشريف ، ومنها ما يؤخذ مما يقتضيه التشبيه ، ومن هذا أن الفرد منظور إليه في النظر الاجتماعي العام بما ينظر به إلى أمته ، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقى وانحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى ، فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها .

* * *

جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوروبي ، والمتأدب الأدب الأفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم ، وانساق بنا الكلام إلى ما تكتسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها ، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم ، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار . وأن الفرد الذي لا يحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بها من

ظروف الحياة ، وان تعلى بأعظم واحسن ما يتعلّى به الرأفون من
أمة أخرى لا ينظر اليه الا بالعين التى ينظر بها الى أمته .

أخذ أولئك الشبان - وقد زالت عن أبصارهم غشاوة الغرور
والغفلة لما أقنعتهم بأن قيمة الرجل بقيمه أمته - يقصون على
من الوقائع التى وقعت لهم هم أنفسهم ما يتّبت تلك الحقيقة
ويؤيدها .

قلت لأولئك الاخوان - وقد اندهشت مما لم أكن أحسبه
يقع - : لا تلوموا من عاملكم بما تقيضيه نظرة اجتماعية عامة ،
ولكن لوموا أنفسكم ان جهلتم هذه الحقيقة ، وأنتم أبناء دين
قررها من أول أيامه فى مثل الحديث الشريف الذى اففتحنا به
هذا المقال .

واليوم - وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعمليا - عليكم أن
تلتفتوا الى أمتكم فتنشلوها مما هى فيه بما عندكم من علم وما
اكتسبتم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها فى
موكب المدنية الحقّة بين الامم ، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون
الانسانية بانهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها ، ثم لا يمنع
هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأى لسان واقتباس كل ما هو
حسن مما عند غيرنا ومد اليد الى كل من يريد التعاون على الخير
والسعادة والسلام (I) .

(1) ش : ج 8 ، م 11 - شعبان 1354 هـ - نوفمبر 1935 م .

انما يُؤخذ الدين من العلماء

« قال عليه وآله الصلاة والسلام : (كان فيمن قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرض فدلَّ على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعةً وتسعين نفساً فهل له من توبةٍ؟ فقال لا، فقتله، فقال: فكمثل به مائةً ، ثم سأل عن أعلمِ أهلِ الأرض فدلَّ على رجلٍ عالمٍ فقال: إنه قتل مائةً نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة؟ إنطلق إلى أرضٍ كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون اللهَ فاعبده معهم ولا ترجعْ إلى أرضِكَ فإنها أرضُ سوءٍ ، فانطلق حتى إذا نصفَ الطريقَ أتاه الموتُ فاختمتُ فيه ملائكةَ الرحمةِ وملائكةَ العذابِ ، فقالت ملائكةُ الرحمةِ : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكةُ العذابِ : إنه لم يعملْ خيراً قطُّ ، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقياسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أرادَ ، فقبضتهُ ملائكةُ الرحمةِ) رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . »

* * *

الألفاظ :

الراهب : هو العابد وكانت الرهبنة فيمن قبلنا بالانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة ابتدعها أهلها دون ان يكتبها الله عليهم كما في سورة الحديد . ثم جاء الاسلام فشرع الجمعة والجماعة فابطل الانقطاع عن الناس للعبادة الا من فر بدينه أيام الفتنة خوفا على نفسه منها . والعالم من له دراية وملكة واشتغال بالعلم ، والمقابلة ما بينهما في الحديث تقتضى ان الراهب لم يكن عنده من العلم ما يقال في صاحبه عالم . والعالم لم يكن عنده من الانقطاع للعبادة ما يقال في صاحبه راهب . قال الامام محمد السنوسى - رادا على الابى - : تسمية النبى صلى الله عليه وآله وسلم الرجل الثانى بالعالم والاول بالراهب يدل على ان الراهب ليس بعالم ، والحجة فيما دل عليه لفضله صلى الله عليه وآله وسلم من ان كل واحد انما ثبت له فى نفس الامر معنى الوصف الذى أطلقه عليه ، واما دلالة الدال على الراهب وهو انما سأل عن العالم فليس فيه دليل على ان الراهب كان عالما لاحتمال ان يكون الدال رجلا جاهلا ، ولا يعرف العالم الا من هو عالم ، لا سيما والرهبانية كثيرا ما يعتقد الجهلة ملازمتها للعلم . والترهب ان سلم انه يقتضى العلم فانما يقتضى العلم بما يحتاج اليه فى ترهبه والا فكم من مترهب جاهل . اهـ

المعنى :

هذا رجل جنى هذه الجنايات العديدة ثم ذكر الله تعالى فاراد الرجوع اليه فسأل عن أعلم أهل الارض ليوجده سبيلا الى ذلك ، فدلّه من دله على راهب لاعتقاد العامة العلم فى كل مظهر للتعبد فلم يجد عنده مخرجا من جنايته فكمل بقتله المائة محمولا على

ذلك باليأس والجراءة والاستهانة بقتل النفس . ولكنه بقى مع ذلك يطمع ان يجد عند غيره سبيلا ، فدل على عالم فأفتاه بإمكان التوبة مستدلا بأنه لا شيء يحول بينه وبينها، وأشار عليه بمفارقة أرضه التى ضرى فيها على الجنايات فانها كانت أرض سوء عليه وأمره ان يذهب الى أخرى بها قوم صالحون يعبدون الله ويسرون بطاعته فيصاحبهم ويعبد الله معهم لاصلاح نفسه بمعاشرة الصالحين وتحقيق توبته بالعمل الصالح معهم ، فذهب الرجل على هذه النية وادركه الموت قبل ان يصل الى تلك الارض واختصمت فيه ملائكة الرحمة وحجتهم نيته التى خرج عليها ، وملائكة العذاب وحجتهم انه لم يعمل عملا صالحا ، فكان القضاء للملائكة الرحمة تغليباً بجانب القصد والنية وتأيدت النية بجده فى السير الى الارض التى قصد حتى كان أقرب اليها من الارض التى خرج منها .

الاحكام :

فى الحديث لزوم السؤال للجهال . وفيه ان أهل العلم هم الذين يسئلون عنه لا غيرهم وان كان أكثر عبادة ، ولذا قال مالك رحمه الله : (لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه معلى السفه وصاحب هوى يدعو اليه ، ورجل معروف بالكذب فى حديث الناس وان كان لا يكذب على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به) ، ذكره ابن عبد البر فى جامع العلم . وفيه صحة توبة القاتل وهو مذهب جمهور السلف وهذا الحديث من أدلتهم .

عبرة وتحذير :

العلم قبل العمل ومن دخل فى العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال ، وربما

اغتر به الجاهل فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضل وأضل .

فهذا الراهب قد دل عليه من دل عليه يحسبه أعلم أهل الارض فسئل فأجاب بما لا يعلم فعادت مصيبة ذلك عليه وعلى سائله ، ولو دل هو سائله على غيره من العلماء لسلم هو وسلم السائل ، فحذار من التقصير في العلم اللازم للعبادة . وحذار من الكلام في دين الله ، والافتاء للناس بغير علم مؤهل لذلك . وحذار من صرف الناس عن العلم وأهله اذا رأيتهم قد افتتنوا بك .

استشهاد :

جاء في حديث رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما عن ابن عباس - ض - وخرجه ابن عبد البر في جامع العلم عنه وعن أبي هريرة - ض - ان فقيها واحدا أشد على الشيطان من ألف عابد . وواقع هذا حديثنا مما يشهد لذلك ، فقد رأيت ماذا جر الراهب على نفسه وعلى غيره ، وكيف أنقذ العالم ذاك الشرير من الهلاك . نسأل الله الفقه في الدين وعمل الصالحين وتوبة الاوابين لنا ولجميع المسلمين آمين يا رب العالمين (I) .

كلمات الشرك

(النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت) (I) .

قال الامام ابن ماجه فى سننه : (حدثنا هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان ان رجلاً من المسلمين رأى فى النوم انه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أما والله ان كنت لأعرّفها لكم قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد) .

حدثنا محمد ابن عبد الملك بن أبى الشوارب ثنا أبو عوانه عن عبد الملك عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخرية أخى عائشة لأُمّها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنحوه .

* * *

السند الاول :

هشام ثقة اخرج له البخارى والاربعة ، وابن عيينة احد أئمة الاسلام المشهورين ، وابن عمير روى له الستة ، وابن حراش مثله ، وحذيفة الصحابى الشهير .

(1) ما بين الهالين هو ما ترجم به ابن ماجه على الباب .

السند الثانى :

ابن أبى الشوارب ثقة روى عنه مسلم والترمذى والنسائى ،
وأبو عوانه أحد الاعلام روى له الستة ، وعبد الملك وربيعي
تقدما ، والطفيل صحابى .

رتبة الحديث :

الحديث صحيح بسنديه مرفوع بهما ولا يضر إبهام الرجل
الرائى لأن حذيفة قال انه من المسلمين والمسلمون يومئذ هم
الصحابة وكلهم عدول ولأن حذيفة نقل بلوغ الرؤيا للنبي صلى
الله عليه وآله وسلم ونقل قوله عند سماعها . مزيد بيان : ذكر
أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب (ان سفيان وشعبة
وزائدة (يعنى ابن قدامة ثقة روى له البخارى وجماعة روى
عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل حديثه
هذا . وقال أبو عمر : وفى حديث زائدة عن الطفيل انه رأى
فى المنام ان قائلا يقول له من اليهود نعم القوم أنتم لولا قولكم
ما شاء الله وما شاء محمد ثم رأى ليلة أخرى رجلا من النصارى
فقال له مثل ذلك فاخبر بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم
فقام خطيبا فقال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، وقولوا
ما شاء الله وحده ، وزاد بعضهم فيه ثم ما شاء محمد .

فافادنا كلام ابن عبد البر تعدد الرواة عن عبد الملك ،
وبينت لنا رواية زائدة بن قدامة ان الرائي هو الطفيل
ابن سخبرة وان الرؤيا تكررت وان النبي صلى الله عليه وآله
وسلم قام خطيبا فى الناس لمزيد العناية والاهتمام بالامر ،
وانه قال : ما شاء الله وحده .

لا تعارض بين الروايات فيعمل بها كلها ، وقوله في رواية زائدة ما شاء الله وحده لا ينافي ثم ما شاء محمد فيكفي الاقتصار على ثم ما شاء محمد كما عند ابن ماجه والاحسن ان يزيد قبله لفظة وحده ليأتى بجميع الوارد .

الفاظ :

تشركون : أى تقرون بين مشيئة الخالق ومشية المخلوق بعبارة تفهم التسوية وهى العبارة المذكورة فى الجملة التالية المبينة وهى قوله : ((تقولون ما شاء الله وشاء محمد)) وهذه العبارة قد تكون فى نحو قولهم : افعل ذلك ما شاء الله وشاء محمد أو لا أفعله ما شاء الله وشاء محمد .

وفى الاستثناء فى اليمين نحو الا ما شاء الله وشاء محمد ، وفى باب اليمين أورد الحديث ابن ماجه . ان كنت لأعرفها لكم . ان نافية واللام فى لأعرفها لام الجحود والفعل بعدها منصوب فنفى معرفته بهذه العبارة منهم على وجه يفيد انها شئ ما كان ليخطر فى باله لمنافاتها لإيمانهم وتوحيدهم وعدم مناسبتها لحالهم . ثم . تفيد انحطاط مشيئة المخلوق عن مشيئة الخالق وتأخرها وتلك هى رتبتهما وقد شاء الله ما شاء وحده ثم كانت مشيئة المخلوق ، فلفظة وحده اصرح فى استقلال مشيئة الله .

المعنى :

كان بعض من الصحابة يقولون هذه العبارة دون ان يعلم بهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاراد الله ان يطلع عليها نبيه لينهاهم عنها ، وكان من حكمتها ان أطلعه عليها بهذا الوجه . أرى بعض الصحابة رؤيا فيها تعبير لهم بالشرك الذى

هو ابغض الاشياء اليهم من بعض اهل الكتاب وهم الذين اتخذوا
احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ليكون
ذلك اشد في الزجر واعظم في التوبيخ، فذكرت الرؤيا للنبي
صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا يقصون عليه رؤاهم فنفى
علمه بصدور تلك العبارة منهم واظهر انكاره وتعجبه من صدور
تلك العبارة الشركية التي ما كان ليظن صدورها منهم، وفي هذا
ما فيه من اللوم والتعنيف، فقام خطيبا فيهم فنهاهم عن العبارة
الشركية الباطلة، وبين عبارة التوحيد والحق الصحيحة، وهي
ان يقولوا ما شاء الله وحده ثم ما شاء محمد أو ما شاء الله ثم
ما شاء محمد.

الاحكام :

افاد الحديث النهي عن القرن بين مشيئة الخالق ومشيئة
المخلوق بالواو وجواز القرن بينهما بثم واثبت المخلوق مشيئة
ولكنها مقيدة ومتأخرة بخلاف مشيئة الخالق فانها سابقة ومطلقة
مستقلة « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وافاد ان القرن بين
مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق شرك، وان من
فعل ذلك يقال له قد أشركت لانه لما قصت عليه الرؤيا وفيها
قوله لولا انكم تشركون اقر ذلك ولم ينكره . وان كلمة الشرك
لا يجوز ان تقال ولو كان قائلها لا يعتقد المساواة بين الخالق
والمخلوق، كما هو حال الصحابة الذين لا يشك في علمهم
بذلك، وان قائل كلمة الشرك هذه وان كان يقال له أشركت
كما تقدم لا يخرج بذلك من الايمان حيث كان لا يعتقد التسوية
من قبله فانه لم يحكم بردتهم بتلك الكلمة وانما نهاهم عن قولها.

تأييد :

روى ابن ماجه فى هذا الباب بسند حسن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا حلف احدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت . وهذا الحديث فى معنى الحديث الذى تكلمنا عليه .

تفصيل أول : الشرك يكون بالاعتقاد وهذا مخرج عن الايمان ويكون بالقول مثل الكلمة المتقدمة وهذا لا يخرج صاحبه من الايمان وانما يحرم عليه النطق به .

تفصيل ثان : من الصفات ما يثبت لله على ما يليق بجلاله ويثبت للمخلوق على ما يليق به بحدوثه وافتقاره كالمشيئة وكالعطاء ، عند ما تكون للمخلوق أسباب فيها ، فهذا يسند اليهما ويحرم ان يسوى بينهما فى العبارة ، ويجب الاتيان بعبارة صريحة فى عدم التسوية ، فاما المشيئة فقد تقدمت واما العطاء فكأن تقول لمن اعطاك شيئاً هذا من فضل الله ثم من فضلك ، ومنها ما لا يجوز ان يجمع فيه بين الاسناد للمخلوق والخالق ابداً كالعطاء الذى لا دخل للمخلوق فيه لخروجه عن الاسباب الممكن هو منها فلا يجوز ان تقول فى غيث نزل مثلاً هذا من الله ومن فلان ولا ثم من فلان لانه لا دخل لاحد فيما وراء الاسباب .

تطبيق :

اذا نظرنا فى حالة السواد الاعظم منا معشر المسلمين الجزائريين فاننا نجد هذه الكلمات شائعة بينهم فاشية على السنتهم وهى (برى والشيخ) وهم يعنون ان ما يفعلونه هو بالله وبتصرف الشيخ « برى والصالحين » « برى والناس الملاح » « اذا حب رى والشيخ » ، « شوف رى والشيخ » . وهى كلها من

كلمات الشرك كما ترى ، فاما قولهم : « برى والشيخ » ونحوه
فمما لا يجوز ان يذكر فيه المخلوق مع الخالق قطعا لان ما فعله
هو بالله وحده أى بتقديره وتيسيره ولا دخل للمخلوق فيه ،
واما قوله : « اذا حب الله والشيخ » فمما لا يجوز الا بلفظة ثم .
فيكون بمعنى اذا شاء الله ثم شاء الشيخ اذا كان هذا الشيخ
حيا وكان الامر مما يمكن ان تدخل مشيئته فيه . ولقد شب على
هذه الكلمات ونحوها الصغير ، وشاب عليها الكبير ، وانقطع
عنها النهى والتغيير ، حتى صارت كأنها من الكلمات المشروعة ،
وصار قلعا من الالسنه من اصعب الامور ، وأصبحت كلمة بالله
وحده ونحوها مهجورة لديهم متسبة عندهم ثقيلة على أسماعهم
ثقل من يدعوهم اليها ويلهج بها على قلوبهم ، ولا حول ولا قوة
الا بالله العلى العظيم .

الملاج :

على من عرف هذا الحديث النبوى ان يعمل به فى نفسه وان
ينشره بين الناس وان يعالجهم به بتفهمهم فيه وتحذيرهم من
مغبة مخالفته والاصرار على معاندته . ولان يهدى الله بك رجلا
واحدا خير لك من حمر النعم . فالى التوحيد أيها المسلمون ،
والى الارشاد أيها العالمون ، والله مع الصابرين (I) .

الصدق والكذب

أين يهدي كل واحد منهما

(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ . وما يزال الرجل يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وإياكم والكذبَ فَإِنَّ الكذبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ . وما يزال الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) ، رواه البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ لمسلم .

* * *

المفردات :

عليكم : اسم فعل بمعنى تمسكوا . وإياكم منصوب على التحذير في معنى احذروا . والصدق : مطابقة الخبر للواقع وتصويره على ما هو عليه . والكذب عدم مطابقة الخبر للواقع وتصويره على خلاف ما هو عليه . يهدي إلى كذا : يعني يوصل إليه ، يتحرى الشيء : يقصده ويتعمده ولا ينحرف عنه ، البر : اسم جامع للخير كله ، والفجور : الانبعاث في الشر ، الصديق : الكثير الصدق ، والكذاب : الكثير الكذب .

التراكيب :

عبر بالمضارع فى يصدق ويكذب ويتحرى ليفيد التجدد وان ذلك هو شأنه الذى يتكرر منه .

المعنى :

تمسكوا بالصدق والزموه فان الصدق يوصل الى العمل الصالح الخالص من كل مذموم ، وان العمل الصالح يوصل الى الجنة ، وان الرجل ليتكرر منه الصدق ويتكرر منه تعمد الصدق والقصد اليه والتزامه حتى يكتب عند الله كتابة خاصة صديقا فيثاب ثواب الصديقين ويرضى عليه رضاهم . واحذروا الكذب واجتنبوه فان الكذب يوصل الى الشر والانبعاث فيه وان الشر يوصل الى النار . وان الرجل ليتكرر منه الكذب ويتكرر منه تعمده والقصد اليه حتى يكتب عند الله كتابة خاصة كذابا فيؤثم اثم الكذابين ويسخط عليه سخطهم .

تفصيل وتقسيم :

الصدق والكذب يكونان باللسان على ما تقدم من التفسير وهو الاصل فى اطلاقهما . وعليه محمل الحديث ، ويكونان - فى القلب من حيث الاعتقاد ، فالعقد الحق الجازم صدق ، والعقد الباطل كذب ، ويكونان فى الجوارح من حيث الافعال فالفعل الموفى حقه الواقع على وجهه صدق ، والفعل الناقص الواقع على غير وجهه كذب ، وجماعها كلها الحق والكمال فى الصدق والباطل والنقص فى الكذب فاقسام كل منهما مرتبط بعضها ببعض ارتباطا يكاد لا ينفصل ويكاد من التزم بعضها أن لا يفارق الآخر . ولا يكمل العبد فى مقام الصديقة الا بكماله فى اقسام الصدق كلها وبعده عن أقسام الكذب كلها .

توجيه وتعليل :

كان الصدق يوصل الى البر والكذب يوصل الى الفجور
لوجوه ، الاول : ما بيناه في الفصل السابق من الارتباط بين
اقسام كل منهما ورجوعهما الى أصل واحد . الثاني ان التزام
الصدق يحمل على الوفاء بالعقود والعهود والوعود في معاملة
الناس فتجرى أعمال المرء مع غيره على سداد واستقامة، والكذب
بضد ذلك . الثالث : ان الملتزم للصدق يمسك نفسه عن أعمال
السوء مخافة ان يسئل عنها فيصدق فيجر على نفسه سوءا أو
يكذب وهو لا يرضى الواقعة الكذب فتجرى أعماله على البر
سالة من الفجور ، والملتزم للكذب الضارى عليه يرتكب العظائم
ولا يبالي ان ينفى عن نفسه كذبا . اما البر فوصل الى الجنة
لأنها دار المتقين، واما الفجور فوصل الى النار لأنها دار الفاسقين،
واما كتابة الملازم للصدق صديقا فجزاء له من جنس عمله فانه
داوم على الصدق وثبت عليه حتى رسخ فيه وتمكن خلقا من
اخلاقه فاثبت اسمه كذلك في الصديقين ، ومثاله ملازم الكذب.

استفادتان :

الاولى : ان بين الخصال خصال البر وخصال الشر تناسبا
وتوالدا أو هذا أصل يحتاج اليها في تهذيب الاخلاق وتزكية
النفوس وعلاج أدوائها فان من عرف المرض الاصلى الذى
نشأت منه أمراض أخرى سهل عليه اذا عالجها ان يقتلع - باذن
الله - الباقي ، ومن عرف أصل الخير سهل عليه اذا تمسك به ان
يحصل على فروعه .

الثانية : ان تكرر العمل بمقتضى خلق من الاخلاق يقويه
ويثبتته وان العمل على مقتضى ضده يضعفه ويزيله ، وهذا
أصل عظيم أيضا فى التربية يعلمنا ان التساهل فى الاعمال

السيئة ولو كانت فى نظرنا طفيفه يفضى بنا الى استعصاء دام
الرديلة ، وان القيام بالاعمال الحسنه ولو كانت طفيفه يبلغ
بنا الى رسوخ الفضيله .

استنتاج :

قد كتب الله مقادير الاشياء قبل ان يخلق السموات والارض
وجفت الاقلام وجرت المقادير كما فى الصحيح ، فهذه الكتابة
كتابة اخرى من باب الجزاء للعامل على عمله يستحق بها صاحبها
وصف الصديقين وثوابهم او وصف الكذابين وعقابهم ويظهر
بذلك فى الملأ الاعلى عند ملائكة الرحمن ويكسى حلتة بين الناس
ويعرف به « **وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** » .

ترهيب :

ان من داوم على الكذب حتى كتب من الكذابين يخشى عليه
ان يحرم من التوفيق الى القربة وتلك هى أكبر مصيبة ، فان
الله من فضله على هذه الامة ان فتح امامها أبواب التوبة ، واذا
داوم العبد على الاعراض عن باب سيده متهاونا بمخالفة أمره
حتى كتب عنده فى سجل الشريرين كان ذلك خطرا عظيما عليه
فى ان يسد فى وجهه الباب ويضرب بسوط الحرمان ، ففى
هذا الحديث الشريف ترهيب شديد من سوء عاقبة هذه الحال .

تحذير :

مواطن الهزل ومجالس البسط مما يتساهل فيها الناس فيلقون
فيها الكلام بلا ضبط وتجري أسنتهم بالكذب من غير مبالاة
ولا احتياط فيقعون فى الاثم على الكذب والاثم على التهاون
بالمعصية ويتعودون ذلك التساهل حتى يقموا فى الوعيد المذكور

في هذا الحديث ، فليحذر المسلم من مثل هذه الحال وليتفطن
لنفسه في مثل هذه المقامات .

تعذير أوكد :

من قلة الاحتياط في الدين وعدم الاحترام للعلم ما يجرى
على السنة كثير من الناس من قولهم (قال رسول الله) صلى الله
عليه وسلم . دون معرفة برتبة الحديث عند أهله ، ومصيبة
بعض المتسمين بالعلم والقائمين بالخطب الجمعية في هذا أشد
وأضر لتعديها منهم الى غيرهم ونشرهم الموضوعات الكثيرة في
الناس ، ولا يكفيهم انهم سمعوا أو وجدوا فقالوا، فقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم : (كفى بالمرء كذبا ان يُحدِّث بكلِّ ما سمع)
رواه مسلم في مقدمة صحيحه، والكذب عليه صلى الله عليه وآله
وسلم عظيم والتحري فيما دونه واجب فكيف به ، خصوصا
وقد قال هو عليه وآله الصلاة والسلام : (يكون في آخر
الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا
أنتم ولا آباؤكم فأياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم) ،
رواه مسلم في مقدمة صحيحه . وقال الامام سيدى محمد
السنوسى رحمة الله عليه في شرحه لهذا الموضع (وعلماء السوء
والرهبان على غير أصل سنة كلهم داخلون في هذا المعنى
وما أكثرهم في زماننا (القرن التاسع) نسأل الله سبحانه
السلامة من شر هذا الزمان وشر أهله) انتهى كلامه .

سلوك :

على العاقل ان يضبط لسانه في الجدل والهزل وان يحترس
من الكذب في الجليل والحقير . وان يتثبت فيما ينقل ويروى
من حديث الناس وان يتثبت أكثر وابلغ فيما يروى في الدين

والعلم، وان يتحرى الصدق وتصوير الحقائق وان يجعل ذلك من
همه وأعظم قصده وان يبادر بالتوبة فيما يزل به لسانه الى ربه
ويعمل دائما على ان يطابق بين عقده بقلبه ونطقه بلسانه
وعمله بجوارحه حتى يكون متحررا للصدق بجميع اقسامه
ويكتب به بفضل الله ورحمته في الصديقين. وفقنا لهذا ويسرنا
له نحن والمسلمين أجمعين يا رب العالمين يا أرحم الراحمين (I).

(1) ش : ج 10 ، م 8 - جمادى الثانية 1351 هـ - أكتوبر 1932 م .

الراعى الغاش لرعيته

« عاد عبيد الله بن زياد مَعْقِلَ بن يسار المزني في مرضه الذى مات فيه ، فقال مَعْقِلُ : إني مُحَدِّثُكَ حديثًا سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . لو علمتُ أن لي حياةً ما حدثتك به ، إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : (ما من عبدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً يموتُ يوم يموتُ وهو غاشٌّ لرعيته إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة) . رواه مسلم .

* * *

الصحابي الجليل والامير الظالم مَعْقِلُ بن يسار (رض)

أسلم قبل الحديبية ، وشهد بيعة الرضوان . سكن البصرة ، وبها مات فى خلافة معاوية - ض - ، وحفر نهرا بالبصرة بأمر عمر - ض - واليه ينسب ، وفيه جاء المثل : « اذا جاء نهر الله بطل نهر مَعْقِل » .

عبيد الله بن زياد :

أبوه زياد بن سمية ، ألحقه معاوية بأبي سفيان فنسب اليه ، ولاه (عبيد الله) معاوية البصرة وأقره عليها يزيد ، وعبيد الله هذا هو الذى جهز الجيوش لقتال الحسين بن علي - رضى

الله عنهما - وهو الزمهم بقتاله - قتله الله - وقد قتله ابراهيم
ابن الاشعث بعد، وخبره مذكور معروف .

ترك الموعظة خوف المفسدة :

كان معقل بن يسار يرى من ظلم عبيد الله بن زياد وغشه
للعزية ولم يستطع أن يواجهه بما في هذا الحديث من الموعظة،
خوف أن يبطش به، فتثور من أجل قتله أو اذايته ثائرة بالبصرة
تؤدي الى سفك دماء المسلمين دون أن تكف ابن زياد عن ظلمه،
فاتقاء لهذا لم يواجهه بالموعظة ، حتى جاء عبيد الله لعيادته ،
وقد علم معقل أنه في مرض موته فاغتنم الفرصة وجابهه
بالموعظة لما خلصت للمصلحة وأمن المفسدة .

ما الراعي وما الرعية ؟ :

الرعاية حفظ الشيء ، وتفقد أحواله ، واعطاؤه ما يحتاج
اليه ، وصرفه عما يؤذيه ، وما لا فائدة له فيه ، ووقايته
مما يعدو عليه ، وكل من جعل الله تحت يده شيئاً من مخلوقاته
فقد استرعاه ذلك الشيء أى : جعله فى رعايته ، وطالبه وكلفه
بأن يرعاه فصار مسؤولاً عنه عند الله ، وما من بالغ عاقل ذكرا
أو أنثى الا وقد جعل الله له شيئاً فى رعايته ، ولو لم يكن من
ذلك الا نفسه وعقله وبدنه وأعظم بهما من شىء تجب رعايته .
وهذا معنى التعميم فى الحديث .

الواجب على الراعى فى رعيته :

يجب على كل راع - بالتعميم المتقدم المستفاد من الحديث
السابق - أن ينصح لما استرعاه الله من رعية فى القول والعمل،
وأن لا يدخر شيئاً من جهده فى حفظه وتفقد أحواله ، واعطائه
ما يحتاج اليه ، وصرفه عما يؤذيه وما لا فائدة له فيه ، ووقايته

من كل ما يمدو عليه . وأن يستصفي له من الآراء والأعمال
والأقوال أبلغ ما يقدر عليه ، فإذا قصر في شيء من هذا فقد
ش رعيته بما يدخله عليها من الضرر في ولايته عليها ،
وارتكب بذلك الكبيرة التي توعد عليها بالنار .

توجيه :

لما كانت أعظم الرعايات رعاية أمر العامة بالامرة والولاية ،
حدث معقل بن يسار بهذا الحديث عبيد الله بن زياد لانه كان
أميرا لمصر عظيم ، فيكون أول من يشمله عموم لفظ « ما من
أحد » وهذا هو وجه تخريج مسلم لهذا الحديث في كتاب
الامارة ، وأما اللفظ فهو على عمومته .

الوعيد : معناه ، شرطه ، وعمومه :

توعد الله على لسان نبيه - ص - الراعى الغاش بتحريم
الجنة عليه ، والتحريم هو المنع ، ويكون مؤقتا ويكون مؤبدا ،
فإن مات الغاش مستحلا للغش أو عوقب على اصراره بسوء
الختامة - عيادا بالله - فتحریمها عليه مؤبد ، وإن مات مسلما
مصرا فتحریمها عليه مؤقت ، يدخل النار بغشه ثم يخرج منها
بما في قلبه من ايمان « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وهذا المعنى - على تفصيله - عام بحسب صريح لفظه ، لكل
راع غاش واقتضى قوله - ص - في الحديث : (يموت يوم
يموت وهو غاش لرعيته) أن هذا الوعيد فيمن مات مصرا ولم
يتب ، فأما من تاب ولم يمت يوم مات على غشه فليس داخلا
في هذا الوعيد .

نعم ، ينجو التائب من عقوبة الغش بتوبته ، ولكنه تبقى عليه تبعات العباد وما الحق بهم من ضرر ، وهى حقوق أخرى جنى عليها زيادة على أصل الغش ، فلها عقوباتها والقصاص عليها .

تطبيق :

كل من تولى أمرا من أمور الامة فهو من رعاتها المسؤولين عنها ، المتوعدين بهذا الوعيد الشديد اذا غشوها على أى وجه كانت تلك الولاية من الوجوه التى تختلف باختلاف الامم وأوضاعها ، ومما هو من أعظم الولاية على الامة اليوم بحسب وضعها - النيابة عنها ، والتكلم بلسانها من أدنى درجات تلك النيابة الى أعلاها ، فليعلم هذا من يتقدم لهذه الولاية ، وليراقب الله فيها ، كما على كل راع أن يعلم هذا الوعيد ويحذر أن يقتحمه .

نسأل الله لنا وللمسلمين أن يوفقنا الى القيام بأحسن الرعاية ، فى كل ما استرعانا من أنفسنا وغير أنفسنا (1) .

(1) ش : ج 4 ، م 11 - غرة ربيع الثانى 1354 هـ - 3 جوليت 1935 م .

التستر بالنقائص

« عن أبي هريرة - رضى الله عنه - سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يَصْبِحُ - وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ - فَيَقُولُ : يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) .

رواه البخارى فى الادب ومسلم فى الزهد والرقائق .

* * *

الكلمات :

المعافى من العافية وهى السلامة ، فالمعافى هو السالم ، ويحتمل أن يكون المراد هنا سلامة العرض من القدح ، أو سلامة البدن من الحد ، أو سلامة العاقبة من المؤاخذة بالذنب ، والمجاهر هو المعلن بفسقه .

المعنى :

قد يرتكب المذنب المعصية مع شعوره بقبح ما أتى ، وخجله به من ربه ، وانكسار قلبه من أجل معصيته ، فهو لذلك يتستر بذنبه فلا يطلع عليه غيره لا بقول ولا بفعل ، فهذا قد سلم منه الناس فلم يؤذهم بشره ولم يدعهم الى الاقتداء به ، وسلم

منه الشرع فلم يكسر من هيبة . ولم ينقص عند الناس من
حرمته ، فسلم له هو عرضه من القدح ، وبدنه من الحد ،
وسلم له أصل إيمانه وهو حياؤه من الله ، وخوفه منه ،
واحترامه لدينه ، وبغضه لما يأتى من معصيته ، فيوشك بهذه
الحياة التى فى قلبه أن يقلع عن ذنبه ويتوب فيسلم من المؤاخذه
بسبب التوبة ، وقد يترجح ما فى قلبه من خوف وخجل ،
واحترام وبغض للمعصية وتألم بها - على نفس المعصية فيسلم
من المؤاخذه بها عند الموازنة يوم القيامة . فصدق فيه هذا
الوعد بأنه معافى من ذنبه ، وسالم من المؤاخذه به .

أما الذى يجاهر بمعصيته ويعلن بها ، فهذا قد تعدى على
مجتمع الناس بما أظهر من فساد ، وما أوجد من قدوة سيئة ،
وما عمل بمجاهرته على شيوع الفاحشة فيهم .

وقد تعدى على الشرع بما انتهك من حرمة ، وجراً من
السفهاء عليه . وهو بمجاهرته قد دل على استخفافه بحق الله
وحق عباده وعلى عناده للدين ، وخلو قلبه من الخوف والحياء ،
وإى إيمان يبقى بعدهما .

ولما كانت المجاهرة بالمعصية تطلق فى الغالب على من يعلن
أمره للجماعات ، بين النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - أن
مجاهرة الفرد كمجاهرة الجماعة من باب التنبيه على الجزئى
الخفى من جزئيات المنهى عنه ، لانه هو الذى شأنه أن لا يتنبه
له فيتساهل فيه ، ومن تساهل فى الجزئى الخفى أداه ذلك الى
التساهل فى غيره . وهذا الجزئى الخفى هو أن يعمل عملاً
يستره الله فيه ثم يحدث به رفيقه فيكشف ستر الله عنه .

استنباط :

قد تبين ما فى المجاهرة من المفسد والظلم ، وقد دل الحديث على أن أهلها غير معافين فهم هالكون ، فهى حرام ومعصية زائدة على أصل المعصية . فالمجاهر بمعصيته ارتكب معصيتين : المعصية والمجاهرة بها ، وقد تجر عليه المجاهرة آثاما كثيرة بما يتسبب عن معصيته من شيوع الفاحشة وسوء القدوة ، ويستمر ذلك يكتب عليه من آثاره مابقى متسبب عن آثاره الى يوم القيامة . فيا لفداحة الحمل يوم الفزع الاكبر .

وكما يحرم تحدث الشخص بمعصية نفسه لما فيه من المجاهرة كذلك يحرم عليه أن يتحدث بمعصية غيره ولو كان هو الذى بدئه ، لما فى ذلك من اذاعة الفاحشة ومن الغيبة .

تنبيه وتحذير :

المجاهر بفسقه الذى لا يستتر من أحد يجوز ذكره بفسقه الذى جاهر به ، اذا كان فى ذكره به مصلحة أو دفع مفسدة ، ويجب أن يحذر من ذكره لغير ذلك فإنه من الغيبة واذاعة الفاحشة .

اعتبار :

هذا فى الافراد ، ومثلها الامم ، فالامة التى تقوم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتضرب على يد سفهاؤها وأهل الفساد منها ، وتهجرهم وتنبذهم من مجتمعها تسلم من الشرور والبلايا ، وتقل أو تنعدم منها المفسد والمنكرات ، والامة التى تسكت عن سفهاؤها وأهل الشر من كبرائها ، وتدعهم يعجأرون فيها بالفواحش والقبائح — هى أمة هالكة ، متحملة جريرة المجاهرة بالمعاصى بالهلاك فى الدين والعذاب فى الآخرة .

تربية :

روى الحاكم في مستدرکه عن ابن عمر - رضى الله عنهما -
أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : (اجتنبوا
هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بشيء منها فليستتر
بستر الله) .

فليعمل المسلم على اجتناب المعاصي كلها . حتى إذا ألم بشيء
منها فليجتهد في اخفائه وستره ، وليضرع الى الله تعالى في
سجوده أن يتوب عليه من ذنبه ، وليتوسل اليه - تعالى -
بإيمانه به ، وحيائه وخوفه منه ، واحترامه لشرعه وعباده ،
فهو - جل جلاله - يحب التوابين ويحب المتطهرين (I) .

(1) ج 11 ، م 11 - غرة ذى القعدة 1354 هـ - فيفري 1935 م .

تفاوت الصدقات بنسبتها لأموال المتصدقين

(عن أبي هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .) قال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : رجلٌ له مالٌ كثيرٌ ، عرضَ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ تَصَدَّقَ بِهَا ، ورجُلٌ ليس له إلا درهماً فأخذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ) ، رواه النسائي وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، المنذرى .

* * *

الفاظ :

السبق : الوصول للغاية قبل غيره . وأصله فى الابدان ، وينتقل للعقول فى الوصول للفهم ، وللأعمال فى الوصول للأجر والفضيلة ومنه هذا العرض : - بضم العين - هو الجانب المرض الحائط أى جانبه .

المعنى :

يقول - صلى الله عليه وآله وسلم - ان درهما واحدا تصدق به صاحبه نال به من الاجر والفضل أعظم مما نال صاحب مائة الف درهم تصدق بها ، فبلغ بدرهما الى غاية من الاجر والفضل

لم يبلغ اليها الاخر . ولما خفى وجه هذا على السائل لان المعروف أن ثواب الكثير أكثر ، بين له - صلى الله عليه وآله وسلم - أن هذا حيث يكون الدرهم بالنسبة لمال صاحبه كثيرا ، فان درهم ذى درهمين هو شطر ماله ، وتكون المائة ألف بالنسبة لمال صاحبها قليلة ، فانها لم تكن الا من جانبه ، وسلم أصله ومعظمه .

توجيه :

الاجر على قدر المشقة ، والثواب على قدر النصب وما يجده ذو الدرهمين من انفاق أحدهما وهما كل ما يملك من المشقة والنصب أعظم مما يجده ذو المائة ألف وهى بعض ماله الكثير . وذو الدرهمين كان عنده من الايمان واليقين ما أنفق به شطر ماله ، فهو أعظم ايمانا ممن أنفق جزءا من مائة منه ، وما عند ذى الدرهمين من خلق الايثار والتضيحية والبذل فى سبيل الله أعظم بكثير مما عند ذى المائة ألف فهو أعظم منه أجرا وفضلا ، فقد كان أعظم منه مشقة ، وأقوى منه ايمانا ، وأبلغ منه تضيحية ، وبذل جهد فى سبيل الله وايثارا . لا جرم كان أعظم منه فضلا وأجرا .

تبصرة :

يقعد الشيطان للقليل المال فى طريق الانفاق فيزهد فيه ، ومن مداخله عليه أنه يحقر له ما ينفقه من قليل بأنه لا غناء فيه ، فيقبض يده عن الصدقة بذلك القليل الذى يستطيعه فيفوته أجر كبير ، فبصرنا نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - بالحقيقة وبين لنا أن ذلك القليل بالنسبة لمال صاحبه هو كثير ، حتى أنه يسبق كثير غيره من أهل المال العظيم ، ليشارك فقيرنا غنينا بقليله ، فيكون من السابقين الى الاجر الكثير .

تربية :

الأخلاق الفاضلة التي هي موجودة في فطرة الإنسان بأصولها
و بحسن التربية ، وتنطمس بالاهمال — قد حفظها الله
مالي علينا بما وفقنا اليه من الاسلام ، وما علمنا من آداب ،
وما شرعه لنا من أعمال ، ومما ينمي تلك الأخلاق ويقويها
الداومة على الأعمال التي تنشأ عنها ، ومن أعظم تلك الأخلاق
و ادخلها في باب النهوض بجلال الأعمال ، وحفظ سعادة
الاجتماع خلق البذل ، فجاء هذا الحديث الشريف وغيره يبين
لنا عظيم أجر صدقة المقل ، ليحثه على مشاركة الغنى في العطاء
بما استطاع ، فيكون البذل من الجميع عاما . والسخاء بينهم
مشاركة ، وآثاره عليهم ظاهرة ، فينمو خلقه بذلك في الأمة
كلها ، وترسخ أصوله في نفوسها ، فتصبح وهي أمة سخية بما
عندها في سبيل ما ينفعها ، متعاونة بالبذل في مهماتها ،
مشاركة بجميع طبقاتها في كل مشروع خيري من مشاريعها ،
واذا تربت الأمة على هذه الصفة ، وتدرجت الى الكمال فيها ،
فذلك عنوان نجاحها وفوزها وبلوغها غاية آمالها . وسعادتها
في الدارين .

وفقنا الله لبذل كل عزيز وغال في سبيله ، والمسلمين
أجمعين (I) .

(1) ش : ج 4 ، م 7 — غرة ذي الحجة 1349 هـ — أبريل 1931 م .

السيادة في البر لمن ساد في البحر (1)

(مالك عن اسحق بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله اذا ذهب الى قُبَا يدخل على أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مَلْحَانَ فتُطْعِمُهُ - وكانت أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ - فدخل عليها رسول الله فأطعمته وجلسَتْ تَفْلي في رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ثمَّ اسْتَيْقَظَ وهو يَضْحَكُ قالتُ فقلتُ ما يُضْحِكُكَ؟ قال: ناسٌ من أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُرَازَةً في سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هذا البحرِ ملوكاً على الأَسِرَّةِ أو مثلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ - يشك اسحق - قالتُ: فقلتُ يا رسولَ الله ادْعُ اللَّهَ أن يجعلَنِي منهم ، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ - يَضْحَكُ، قالتُ: فقلتُ يا رسولَ الله ما يُضْحِكُكَ؟ قال : أناسٌ من أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُرَازَةً في سَبِيلِ اللَّهِ ملوكاً على الأَسِرَّةِ أو مثلَ الملوكِ على الأَسِرَّةِ كما قال في الأولى، قالت : فقلتُ يا رسولَ الله ادْعُ اللَّهَ أن يجعلَنِي منهم، قال: أنتِ من الأولين. قال: فركبت البحرَ في زمان معاويةَ بن أبي سفيان فصرعت عن دابَّتِها حين خرجتُ مِنَ البحرِ فهلكتُ) .

* * *

السند :

ثبت عند البخارى من طريق الليث تصريح أنس بالرواية عن أم حرام خالته فكان أنس مرة يصرح بها ومرة لا يصرح ،

واذا روى الصحابي ما هو من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشؤونه عن غيره فلا يقدح في حديثه عدم تصريحه بمن روى عنه لأن غيره صحابي مثله والصحابة كلهم عدول . ورواة هذا الحديث - غير مالك - أقارب فإن اسحاق ابن عم أنس وأم حرام خالة أنس .

وقد روى هذه القصة بلفظ أخصر عن أم حرام راوٍ آخر هو عمير بن الاسود العنسي خرجه البخاري .

المتن :

جاء عنه بالفاظ متقاربة كلها متفقة على أصل المعنى وخرجه البخاري بتلك الفاظ في مواضع من صحيحه .

الصريية :

فلي الرأس تفتيشه لاجراج الهوام أو للتنظيف من غبار ونحوه والمقصود هنا الثاني ، لأن الأخبار متواترة تواترا معنويًا بنظافة جسمه - ص - وطيب ريحه وعرقه . وثبج البحر وسطه وهو معظمه ومحل هوله .

سؤال وجوابه : ما وجه دخوله - ص - عليها وتمكينها من فلي رأسه ؟ كانت محرما له بالخؤولة أو بالرضاعة حكاه الائمة .

تحقيق تاريخي :

أول ما ركب المسلمون البحر للغزو في خلافة عثمان - ض - استأذنه معاوية (ض) فأذن له فغزا قبرص سنة سبع وعشرين . ذكره ابن الأثير وغيره . وأول ما غزا المسلمون القسطنطينية وركبوا إليها البحر كان في خلافة معاوية ، سنة 28 وكان في ذلك الجيش أبو أيوب الانصاري دفينها .

تطبيق على هذا التحقيق :

خرجت أم حرام مع زوجها وركبت البحر في زمان معاوية
أى في زمان امارته وكان ذلك أول جيش ركب البحر وكانت
هى معهم وتوفيت بعد خروجها من البحر ونزولها فى أرض
قبرص كما ذكره ابن عبد البر وغيره .

وأما الجيش الثانى فهو الجيش الذى غزا القسطنطينية ولم
تكن أم حرام معهم ، وما جاء فى صحيح البخارى صريح فيما
قلناه من تعيين الجيش الاول والجيش الثانى . ونصه من طريق
عمير بن الاسود عن أم حرام قالت سمعت رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم يقول : أول جيش من أمتى يغزون البحر قد
أوجبوا، قالت أم حرام قلت يا رسول الله أنا فيهم قال أنت فيهم
ثم قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم أول جيش
من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت أنا فيهم يا رسول
الله قال : لا .

فكانت مع أول جيش غزا البحر وهو جيش معاوية الى قبرص
لا غيره كما حققنا .

الاحكام :

فيه دخول الرجل على محرمه دون حضور الزوج ، وفيه سنة
اطعام الزائر ، وفيه تصرف المرأة فيما تحت يدها من مال
زوجها من الطعام بالمعروف ، وفيه مباشرة محرم الرجل له فى
غير العورة . وفيه سنة القيلولة ، وفيه سنة اظهار السرور
بالنعم والطاعات ، وفيه جواز سؤال من بدر منه ما لا يعرف
سببه ، وفيه الاهتمام بكل ما يصدر منه - ص - ، وفيه جواز
ركوب البحر ، وفيه جواز التوسع بالحلال ، وفيه فضل الغزو

في البحر، وفيه سؤال الشهادة ، وفيه سنة طلب الدعاء ممن
ترجى اجابته ، وفيه الدعاء ممن طلب منه ، وفيه غزو النساء
مع الرجال .

الفوائد :

منها أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحي محفوظ، وقد
كان الصحابة يعلمون هذا علما عاما، ولذلك سألت أم حرام
أولا وثانيا سؤال المتيقين بوقوع الغزو على الوجه الذي ذكر
صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قد تكون رؤياهم بالمثال كما رأى
النبي - ص - بقرا تنحر ، فأولها بمن قتل من أصحابه في
غزوة أحد ، وقد تكون بالصريح الذي لا يحتاج الى التأويل
كما هنا . ومنها تحقيق استجابة دعائه اذا دعا ، ولهذا قال لها
في الثانية - جازما - أنت من الأولين . وهذا فيما لم يعلم
بالمنع منه كما في حديث رسالته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض .
يعنى أمته فمنعنيها . ومنها أن من معجزاته - ص - اخباره
بأمور غيبية لم يكن شيء مما يدل عليها أو يقتضى وقوعها يوم
أخبر فوقعت كما أخبر، فركب أصحابه البحر وغزوا الروم
ومدينة قيصر من بعده ، بينما كانوا يوم أخبر بهذا من أبعد
الامم عن ركوب البحر والبراعة فيه ، وكانت أم حرام مع
الطائفة الأولى كما أخبرها وكانت منهم على أبلغ وجه حيث فازت
بالثمرة المقصودة من الغزو وهى الشهادة وان كان موتها في
غير مباشرة القتال ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: من قتل في
سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد . رواه
مسلم . ولقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » .

علم الله ان السيادة في البر لمن ساد في البحر . وان اقسام الارض المتقاطعة وأصناف الامم المتباينة - لا يقرب بينها . ويفتح الطريق لتواصلها وتعارفها ، وينقل مدنياتها من بعض الى بعض منها - الا ركوب البحار وملك ناصيتها ، فجاءت الآيات القرآنية العديدة في ذكر البحر وصفاته ومنافعه وسفنه وبديع الصنعة فيه وعظيم النعمة به ، وجاء هذا الحديث يبشر الامة الاسلامية بما هيء لها من أسباب السيادة ويعرفها أنها أمة ملك وسلطان وقوة وأنها ستملك البحار ، وتغزو الامصار الكبار ، يعرفها بهذا ويدعوها اليه لتعد له عدته وتأخذ له طريقه وتتوصل اليه بأسبابه . اذ لا يكون ملك الا بأسباب الملك . ولا تكون قوة الا بأسباب القوة ولا تكون سيادة الا بأسباب السيادة ، وقد علمت من دينها أن السيادة لا تكون الا بالملك . وأن الملك لا يكون الا بالقوة : قوة الابدان وقوة العقول وقوة الاخلاق وقوة المال - وبهذه يكون العبد الذي هو أساس الملك وان لا قوة الا بالعلم والعمل والتهذب ، فاذا دعاهم هذا الحديث الى السيادة فقد دعاهم الى هذا كله ونبههم على هذا التقدير المعكم الذي ارتبط بعضه ببعضه ، وعلى انه لا سبيل الى غايته الا باتيانته من بدايته . وقد فهم المسلمون هذا دهرًا فسلكوه فأنجز لهم الله وعده . وجهلوه أدهارًا فتركوه فأذاقهم الله بأسه ، وما ربك بظلام للعبيد . ولئن عادوا اليه ليعودن اليهم ، ولن يُخلف الله الميعاد (I) .

(1) ش : ج 1 ، م 10 - غرة رمضان 1352 هـ - جانفي 1934 م .

الصحة والفراغ استغلالهما والاستفادة منهما

(قال - صلى الله عليه وسلم - : نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ) . البخاري عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم - .

* * *

اللفظة :

(النعمة) : ما يفعل على وجه الاحسان ضد النقمة ، وهى ما يفعل على وجه العقوبة . (المغبون) : المنقوص فى حقه أصله من غبن فى البيع اذا نقص من حقه ، ثم يستعمل فى كل من نقص من حظه فى كل شيء . (الصحة) : اعتدال المزاج ، وقوة البنية ضد المرض . (الفراغ) : الخلاء ومصدر فرغ يفرغ اذا كان خاليا من الشغل . وهذا هو المراد هنا .

التراكيب :

مغبون خبر مقدم لكثير ، والجملة خبر نعمتان والصحة والفراغ خبر لهما مقدر ، والجملة مستأنفة بيانيا .

المعنى :

ان كثيرا من الناس يكونون فى صحة من أبدانهم ، وفراغ من أشغالهم ، ولا يعمرّون أوقاتهم الفارغة بطاعة الله تعالى ، ولا يستعملون أبدانهم الصحيحة فيها ، فتضيع عليهم تلك الاوقات وتلك الصحة باطلا ، فيخسرونهما ولا يستفيدون منهما فيكون ما خسروه منهما نقصا فى حظهم من حياتهم ، واذا كانت الحياة هى أغلى شئ عند الانسان يحافظ عليه ، ولا يبذل شيئا منه الا بحقه ، فهؤلاء الذين نقصوا حظهم فى حياتهم هم أعظم المغبونين .

فقه الحديث ومقصوده :

عمر الانسان أنفـس كنز يملكه ، ولحظاته محسوبة عليه ، وكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد فقد أخذ حظه منها وربحها وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرهما . وكذلك بدنه فهو أنفـس آلة عنده ، وانما فائدة الآلة بالعمل ، فاذا كانت الآلة فى عمل فهو فى ربح وزيادة ، واذا كانت فى بطالة فهو فى نقص وخسران . فالرشيد الرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين ، وتلك الآلة العظيمة ، فعمر وقته بالاعمال ، وداوم على استعمال ذاته فيها فربحهما . والسفيه السفيه من أساء التصرف فيهما فأخلى وقته من العمل ، وعطل ذاته عن الشغل فخسرهما .

ولما كان الانسان مضطرا الى السعى فى معاشه ، فيشغله ذلك عن وجوه الطاعات من العلم ونوافل الصلاة والصوم والحج وغيرها ، ومعرضا للأمراض فتمنعه منها . ولكنه لا يخلو من حالة يكون فيها فارغا من الشغل لمعاشه ، ومعافا من المرض فى بدنه - ذكره هذا الحديث الشريف بما عليه فى هذه الحالة من

المحافظة عليها ، وعمارته بالطاعات حتى لا يخسرهما ، وتنقص من عمره بلا فائدة ، فيكون مغبوناً فيها .

تفريع على الحديث :

فإذا عمر الانسان وقت فراغه من الكد لعيشه بطاعة من طاعات الله ، واستعمل بدنه مفتنماً فرصة صحته فيها ، ثم عرض شغل من أشغال عيشه فقطعه عنها ، أو طراً عليه مرض فمنعه منها ، ونيته المداومة على تلك الطاعة لولا الشاغل والمانع فانه يكتب له في شغله وفي مرضه ثواب ما كان يعمل به في صحته وفراغه ، ومن الدليل على ذلك حديث البخارى - رضى الله عنه - عن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى - رضى الله عليه وآله وسلم - : إذا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا ، وَالسَّفَرُ نَوْعٌ مِنَ الشُّغْلِ .

تفريع آخر :

وإذا كان المؤمن عاملاً في طاعة الله تعالى أيام صحته وفراغه ثم مرض فان له أجرين : أجراً على ما كان يعمل في صحته بدليل ما تقدم ، وأجراً على مرضه . لقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) . رواه البخارى - رضى الله عنه - . وكذلك اذا شغل بالسعى على نفسه أو على العيال ، فان له أجرين أجر ما شغل عنه ، وأجر سعيه على عياله ، وأدلة ثواب الساعى على عياله كثيرة ، منها حديث الرجل الذى رأى الصحابة - رضى الله عنهم - من جلدته ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله : لو كان فى سبيل الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (إِنْ خَرَجَ

يسمى على ولده صفارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج
يسمى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان
خرج يسمى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله (. رواه
الطبرانى بسند صحيح . ومثله من شغل بطاعة عن طاعة ،
كمن شغل بالرباط عن نافلة الحج مثلا ، لانه اذا كان المشغول
بالسفر المأذون فيه يكتب له ما كان يعمل مقيما ، لان نيته
المداومة لولا عارض السفر - فالمشغول بالطاعة عن طاعة كان
ينوى فعلها لولا عروض الطاعة الاخرى - أخرى وأولى .

سلوك العاملين بهذه الاحاديث :

يعمرون أوقاتهم كلها بالاعمال ، أعمال القلب ، وأعمال
اللسان ، وأعمال الجوارح ، فلا يشتغلون عن طاعة الا بطاعة .
ولا يخرجون من عمل الا الى عمل ، فاذا مرضوا صبروا
واحتمسبوا ، وأتوا بما يستطيعون ، فتتضاعف أجورهم بأعمالهم
وبنياتهم ، ويربحون جميع حياتهم ، وأولئك هم الفائزون .
سلك الله بنا وبالمسلمين مسلكهم بمنه وكرمه . آمين (I) .

(1) ش : ج 2 ، م 7 - غرة شوال 1349 هـ - مارس 1931 م .

نظام الغذاء

(ما مَلَأَ آدَمِيٌّ وعاءَ شراً من بَطْنٍ . بحسبِ ابنِ آدمَ أَكَلَاتُ يَقْمُنُ صَلْبُهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لَطْعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لَشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ) . رواه الترمذى وغيره وقال حسن صحيح .

* * *

ان الانسان بجزئه الترابى . وهو بدنه - مخلوق ارضى ، و بجزئه النورانى - وهو روحه - مخلوق سماوى . فاذا جذبه جزؤه الترابى بزمam الشهوة الى السفليات الارضية ، طار به جزؤه النورانى على بساط العقل الى علويات السماء . وهو لن يزال دائما بين هذا وذاك فى انحطاط واعتلاء .

لم يخلق الانسان للارض وان خلق منها ، وانما خلق للسماء وللملكوت الأعلى ، وآخر كلمة قالها النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - : (اللهم الرفيق الأعلى) وانما ينتهى الى هذا بصفاء روحه واستنارة عقله ، وما البدن الترابى الا آلة لهما ، لاستكمال قوتيهما ، ومظهر لتلك الاستنارة وذلك الصفاء .

وعيار على ما فيهما من قوة وضعف بما يكسبانه ويكتسبانه فى طريق الاختبار والابتلاء . اينال الانسان ما يستحقه على حسن تصرفه أو سوء تصرفه من عادل الجزاء ، بعد خروجه من دار الفناء الى دار البقاء .

فالجسد آلة بديعة للروح لازمة لها في الدنيا وملازمة لها في
الآخرة . فمن العدل الإلهي أن يكون لها حظها هنالك كما كان
لها حظها هنا ، ومن العدل الواجب على الإنسان أن يعطيها
— كما يعطى الروح — حقها من الاعتناء ، فكما يغذى روحه
بما ينير عقلها من العلوم والمعارف ، وما يزكيها من الأخلاق
والآداب ، وما يقويها من صالح العمل ، ومفيد السعى في
وجوه الحياة . ويحفظها من كل ما يغشى العقل من جهالات
وأوهام ، وما يدسى النفس من رذائل ، وما يضعفها من كسل
وبطالة — كذلك عليه أن يغذى بدنه بما ينميها وما يصلحها
وما يقويه ، ويحفظه من كل ما يفسده أو ينهكه أو يؤذيه .

يتوقف بقاء هذا البدن وصلاحه على الغذاء ، وقد جعل الله
فيه لذلك وعاء وأى وعاء ، هو المعدة : مخزن الغذاء وبيت الداء
وعلى حفظ نظام هذا الوعاء تترتب الصحة والمرض والسقم
والشقاء .

فاذا ملأ ابن آدم بطنه كان عليه شر وعاء ، وانبعثت منه شر
الادواء : أسقام للبدن ، وأثقال على الروح ، وظلمات للعقل ،
فانقلب على الإنسان من الانتفاع به إلى أصعب الشر وأقسى
البلاء .

واذا اقتصر على أكالات تقيم الصلب وتمسك البدن حصل
من البدن على العمل ، وسلم من آلام المرض ، ونعم بالعافية ،
وكان انتفاعه بالآلة البدنية خالصا من شوائب الضرر .

واذا غلبته الشهوة ، وكان — لا محالة — منقادا للذة ، فليقف
دون الشبع ولا يملأ كل الملاء المعدة حتى لا تثقل حركتها في
الهضم ، وحتى لا تنتفخ في البطن فتسد مجارى النفس ، وبذلك

يكون له عدل بين أصول الحياة البدنية الثلاث طعامه وشرابه ونفسه ، فأعطى لكل واحد الثلث من بطنه .

غير أن الانسان اذا كان هكذا تغلبه الشهوة ، وتقوده اللذة فانه بمظنة أن يتجاوز - ولو في بعض الاحيان - العدل الى الامتلاء . فشرع له الصوم ليقاوم شر ذلك بما فيه من راحة للمعدة ونقاء وتربية على امتلاك زمام نفسه عن الشهوات والملذات ، وعلى استطاعة حملها على الجوع والعطش عند الاقتضاء . هذا للمعتدل وللماليء للبطن المملوك للشهوة بالاحرى والاولى . أما ذاك المقتصر على الاكلات فهو له زيادة في القوة ورسوخ لما تمكن منه من العادة المشروعة الحسنة .

فالصوم ضرورة لنظام الغذاء وحفظ الصحة البدنية وعون للانسان على حسن استعماله لآلته الترايبية الارضية للترقى الى آفاقه الروحية النورانية وكمالاته العلوية .

فالحمد لله الذي شرع لنا الصيام وفرض علينا رمضان ووفقنا الى القيام في كل عام .

نسأله المزيد انه الحميد المجيد .

ليس الخبز كل ما نريد :

نحن - المسلمين - ربينا تربية اسلامية على ألفة الجوع ، والتقليل من الاكل والاقتصار على قدرة الحاجة ، والمواظبة في المطعم والمشرب . فطعام الواحد عندنا يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الاربعة وطعام الثلاثة يكفي الستة وطعام الاربعة يكفي الثمانية وتعتقد عن تجربة ان الرجل لا يهلك عن نصف قوته .

بهذه التربية استطعنا ان نبقي ونعيش في مثل ما عليه حاله
معظم الامة الجزائرية من الفاقة والعمى والجوع والمسغبة ،
بينما هي تنظر الى ما ينعم فيه غيرها من النعمة والرخاء ،
مما لو أصاب أمة أخرى لاجتاحها وافناها ، أو لاثارها ودفعتها
الى موارد العذاب والردى .

وكما ربانا الاسلام هذه التربية من ناحية الغذاء فقد ربانا
تربية أخرى من نواحي أخرى . ربانا على محبة العلم والمعرفة
والرغبة فيهما والتلهف على ما فات منهما والاحترام لمن كان له
حظ فيهما .

وبهذه التربية استطعنا - رغم الفاقة ورغم الجوع ورغم
التشبيط والمعاكسة ان نحافظ على قرآننا وخطنا وبقايا علوم
لغتنا وديانتنا وجملة معارفنا ، واندفعنا الى تأسيس المكاتب
العربية رغم ما يحول بينها وبيننا واندفعنا الى المكاتب الحكومية
فضاقت عنا وبقيت مئات الآلاف في انياب الجهل والفقر من
ابنائنا .

ولولا تلك التربية الاسلامية التي زرعتها القرون فاستقرت
في قرارات النفوس ، وصارت من الخلق الموروث ، لكان ما نحن
فيه من ظلم وتعاسة وتقدير كل أحد علينا في وطننا والترك
لمعامل التجويع والتجهيل تخرج آلاتها الفتاكة المتنوعة للمقضاء
علينا - شاغلا لنا عن العلم وعن الشعور به وعن طلبه وعن
المزاحمة عليه .

جهل قوم من ذوى السلطة هذا الخلق منا فحسبوا - وهم
جد عالمين بما فيه الامة من جوع وفاقه - اننا قوم لا نريد
الا الخبز ، وان الخبز عندنا هو كل شيء ، واننا اذا ملئت بطوننا
مهدنا ظهورنا ، وانهم اذا اعطونا الخبز فقد اعطونا كل ما نطلب

اذ الخبز - فى زعمهم - هو كل ما نريد ، فاذا حادثناهم فى
حالتنا سكتوا عن كل شىء الا عن الجوع والخبز ، واذا رفعنا
اصواتنا بمطالبتهم بحقوقنا لديهم ، أو بانجاز مواعيدهم خرجت
المراسيم بتوزيع قناطير القمح أو الفرينة أو الدقيق أو سلفات
البذر التى لا ينال المحتاج الحقيقى منها ما يسد حاجته ، وتذهب
فى أثناء توزيعها فى تعاريج والتواءات أخرى ... فاذا صدرت
تلك المراسم طبل المطبلون وزمر المزمرون ، وحسب المفرورون
اننا قد رضىنا وفرحنا وانتهى أمرنا .

لا يا قوم ، اننا أحياء ، واننا نريد الحياة وللحياة خلقنا .
وان الحياة لا تكون بالخبز وحده ، فهناك ما علمتم من مطالبنا
العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات
فى الحياة . ونحن نفهم جيدا ضرورتها للحياة ، وقد بذلنا فيها
لكم ما كان - يوما - سببا قويا فى حياتكم فلا تبخلوا علينا
اليوم بما فيه حياتنا ان كنتم منصفين ، وللأيام والامم مقدرين .
والا فالله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين (1) .

(1) ش : ج 9 ، م 12 - رمضان 1355 هـ - ديسمبر 1936 م .

نظافة الطرق والمجالس

أو

مصلحة من مصالح البلدية

« قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (اتَّقُوا
اللَّعَّانِينَ) قالوا : وما اللَّعَّانانِ يا رسول الله ؟ قال : (الذى
يتغلى فى طريق الناس أو فى ظِلِّهم) رواه مسلم عن أبى هريرة
- رضى الله عنهما - . »

* * *

المفردات :

اتقوا : اجتنبوا ، اللعان : الكثير اللعن ، واللعن الابعاد متن
رحمة الله ، واللعان فى الحقيقة من يصدر منه اللعن بكثرة ،
وقيل فى التغلى فى الطريق ، والتغلى فى الظل ، لعانان لأنهما
سبب فى صدور اللعن بكثرة من الناس لفاعلهما ، فأسند ما فى
معنى الفعل الى سببه مجازا . التغلى أصل معناه الذهاب الى
الخلاء ، والمراد به هنا قضاء الحاجة البشرية من بول أو غائط .
وأطلق التغلى عليها لأن الشأن أن تكون فى الخلاء . ففى اسمه
أدب من آدابه .

المعنى :

إذا أردتم قضاء الحاجة ، فاجتنبوا الطرقات ، واجتنبوا
الاماكن التى اتخذها الناس للجلوس فى ظلها ، ومن تغلى فى
واحد من هذين فانه يجلب على نفسه لعنا كثيرا .

الحكم :

المتخلى فى طرقات الناس وأماكن جلوسهم متعد عليهم ، مؤذ، ظالم لهم ، فهو داخل فى لعن الله للظالمين ، وشأن الناس عند ما يجدون القدر فى طرقاتهم وأماكن جلوسهم أن يلعنوا من آذاهم بذلك وهم مظلومون منه ، فيكون لعنهم من دعوة المظلوم . ودعوة المظلوم مستجابة ، فصار المتخلى قد أوقع نفسه فى لعنة الله ولعنة الناس المظلومين ، والذنب الذى يؤدى الى هذا اللعن لا يكون الا من الكبائر ، فالتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم كبيرة من الكبائر .

تعميم :

تشمل الطرق الطرق الى البيوت ، والأسواق ، والقرى ، وموارد الماء ، والطرق كلها . ومثل المكان الذى اتخذته الناس للجلوس فى ظله . كل مكان اتخذوه للجلوس فيه لمنفعة من منافعهم فيدخل فى ذلك الأسواق والمنتزهات وغيرها ، فكل ذلك مما يحرم التخلى فيه ، ويلحق بالتخلى وضع القذر ، والوسخ ، والزبل ، والشوك ، وكل ما فيه مضرة ، لما فى الجميع من التعدى والاذاية .

تتميم :

كما انتظم الحديث الصحيح المتقدم النهى عن تقذير الطرقات والأماكن العامة بذلك الترهيب الشديد ، كذلك جاء الترغيب فى تنقيتها وإزالة الأذى عنها شاملاً ذلك ، ما كان من المستقذرات وغيرها من كل ما فيه أذى ، فقد ثبت فى الصحيح أن أبا برزة الأسلمى - رضى الله عنه - قال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : يا نبي الله ، علمنى شيئاً أنتفع به ؟ فقال - صلى

الله عليه وآله وسلم - : (أعزل الأذى عن طريق المسلمين)
وثبت قوله - ص - : (بينما رجل يمشى بطريق وجد حصن
شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) وإذا كانت
إزالة الأذى عن الطريق - ومثلها كل مجتمع عام - فيها الأجر
والثوبة ، فوضع الأذى فيه الإثم والعقوبة .

تطبيق :

من أحسن المصالح التي يقوم عليها اجتماع الناس في
التمدن الحاضر وألزمها - مصلحة التنظيم في الإدارات البلدية
وأنت ترى أن الأحاديث النبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك
التنظيم بالترهيب من التقدير وكل مؤذ ، والترغيب في
إزالتها . فوضع الاسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن
يعرفها تمدن اليوم . فعلى المسلم أن يلتزم ذلك كأمر ديني
يثاب عليه عند ربه ، ليكون دافعه الى القيام به من نفسه ،
ورقيه في تنفيذه ضميره الديني وإيمانه ، وقد شهد التاريخ
لمدن الاسلام أيام مدنيته الزاهرة بانفرادها بين مدن عصرها
بالنظافة وحسن المظهر ، وما ذلك الا من تطبيق مثل ما تقدم
مما وضعه الاسلام من أصول المصالح التي تقوم عليها الحياة ،
ويترقى بها المجتمع . فعلىنا - معشر المسلمين - أن نعى بما
دعتنا اليه هذه الأحاديث النبوية الشريفة لنكون بين الناس
مثلاً حسناً راقياً في النظافة البلدية ، لنفع أنفسنا ومجتمعنا
ونرفع اسم ديننا ، ونفوز بالاجر والرضى من ربنا .

وفقنا الله لأحياء معالم الدين ، ورفع اسم الاسلام
والمسلمين (I) .

(1) ش : ج 5 ، م 11 - غرة جمادى الاولى 1354 هـ - 1 أوت 1935 م .

بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة

- 1 -

عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - أن أم حبيبة وأم سلمة - رضى الله تعالى عنهما - ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير ، فذكرتا ذلك للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : (إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ ، فَأَوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ، رواه الشيخان رحمة الله عليهما .

* * *

هذا الحديث أحد الأحاديث الكثيرة المستفيضة التي جاءت في التحذير من بناء القبور على المساجد ، والتنبيه على أن ذلك يؤدي إلى عبادتها ، والتأكيد لذلك بذكر ما كان ممن قبلنا من ذلك وما أداهم إليه . فأخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذا الحديث أن أصحاب تلك الكنيسة كانوا يبنون المساجد على قبور صلحائهم ، ويصورون صورهم وإنما يفعلون ذلك تعظيما لهم واستئناسا بصورهم ، وليعبدوا الله تعالى عند قبورهم تبركا بهم ، فكانوا بسبب فعلهم من بناء المساجد على القبور ، ونحتهم للصور شرار الخلق عند الله يوم القيامة ،

لان تعريف المسند اليه بالاشارة - وهو اولئك - يفيد ان
المشار اليه الموصوف بصفات - وهى بناء المساجد على القبور ،
وتصوير الصور - حقيق وجدير بما يذكر بعد اسم الاشارة ،
وهو قوله : شرار الخلق - من أجل اتصافه بتلك الصفات .
وذلك لان القبر المعظم ببناء المسجد عليه ، والصورة المعظمة
لتمثيلها ذلك الصالح يصيران مما يعبد ويعتقد فيه النفع
والضرر ، والعطاء والمنع ، فيدعى ويسأل ، وتطلب منه الحوائج
وتخشع عنده القلوب ، وتنذر له النذور ، وهذه من العبادة التى
لا تكون الا لله ، وقد جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس
- رضى الله تعالى عنهما - أن وَدًّا وَسَوَاعًا وَيَفُوثًا وَيَعُوقًا
وَنَشْرًا التى كانت أصناما لقوم نوح ، وعبدتها العرب من
بعدهم - كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا
أوحى الشيطان الى قومهم أن أنصبوا الى مجالسهم التى كانوا
يجلسون أنصابا وسموها باسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى اذا
هلك أولئك - الذين نصبوها - وتنسخ - تغير - العلم عبادت ،
فعلم من هذا أن ما يكون موضوعا فى أصله بقصد حسن يمنع
وينهى عنه اذا كان يؤدى بعد ذلك الى مفسدة .

الأحكام :

هذا الحديث نص صريح فى المنع من بناء المساجد على قبور
الصالحين ، وتصوير صورهم ، وفيه الوعيد الشديد على ذلك ،
ونظيره حديث جندب - رضى الله عنه - عند مسلم - رضى الله
عنه - سمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول قبل
أن يموت عليه السلام بخمسة أيام : (أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ
مَسَاجِدَ ، إِنِّى أَنَهَاكُمْ عَلَى ذَلِكَ) .

تطبيق :

هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا . تجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها الى الصلاح ، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون . فان قيل : انما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم . قلنا : ان النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر ، بقطع النظر على قصد صاحبه ، ولو كانت صورة البناء للتبرك غير مرادة بالنهي لاستثناها الشرع ، فلما لم يستثنها علمنا أن النهي على العموم ، وذلك لانها وان لم تؤد الى عبادة المخلوق في الحال فانها في مظنة أن تؤدي الى ذلك في المآل . وذرائع الفساد تسد ، لا سيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد . وانظر الى ما جاء في حديث ابن عباس في أصنام قوم نوح وكيف كان أصل وضعها ، وكيف كان مآلها ، وتعال الى الواقع المشاهد نتحاكم اليه ، فاننا نشاهد جماهير العوام يتوجهون لأصحاب القبور ويسألونهم ، وينثرون لهم ، ويتمسحون بتوابيتهم ، وقد يطوفون بها ، ويحصل لهم من الخشوع والابتهال والتضرع ما لا يشاهد منهم اذا كانوا في بيوت الله التي لا مقابر فيها . فهذا هو الذي حذر منه الشرع قد أدت اليه كله ، وهبها لم تؤد الى شيء منه أصلا ، فكفانا عموم النهي وصراحته ، والعامل من نظر بانصاف ولم يغتر بكل قول قيل .

إيمان وامثال :

علينا أن نصدق بهذا الحديث بقلوبنا ، فنعلم أن بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأن تنطق بذلك ألسنتنا كما

نطق به هذا الحديث الشريف ، وأن نبني عليه أعمالنا ، فلا نبني مسجداً على قبر ولا نعين عليه ، وأن ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا ، ومن أعظم الانكار تبليغ هذا الحديث بنفسه ، وتذكير الناس به ، والعمل على نشره حتى يصير معروفاً عند عامة الناس وخاصتهم ، اذ لا دواء للبدع الشيطانية الا نشر السنة النبوية . ولا تستعظم انتشار هذه البدعة وكثرة ناصريها فانها ما انتشرت وكثر أهلها الا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به . ولنكن في ارشادنا مقتصرين على ايراد لفظ الحديث وشرحه - على أنه واضح مفهوم بنفسه - دون أن نمس شيئاً من شؤون أولئك المقبورين ، فانهم اخواننا سبقونا بالايمان ، فلم علينا حق الدعاء والاستغفار ، فاذا عملنا كلنا على هذا عن حسن قصد ومحبة في الخير للمسلمين ، رجونا أن يؤيدنا الله تعالى ، ويجعل النفع بأيدينا ، « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَكَبِيرٌ عَزِيزٌ » (1) .

لعن من اتخذ المساجد على القبور

- 2 -

« لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » ، البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

لما اخبر عليه وآله الصلاة والسلام أن الله لعن اليهود والنصارى بين علة وسبب لعنهم وهى اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد . وذلك بأن بنوا عليها المساجد أى أماكن العبادة كما هو صريح فى حديث آخر هكذا : (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا)

(1) ج 5 ، م 7 - غرة محرم 1350 هـ - ماى 1931 م .

والذكره في الجزء الآتي ان شاء الله ، فالمتخذ للمساجد على القبور ملمون ببلص هذا الحديث الصحيح الصريح .

فيا أيها المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، المصدقون لحديثه، إياكم والبناء على القبور ، إياكم واتخاذ المساجد عليها إن كنتم مؤمنين ، وعليكم بتبليغ هذا الحديث والتذكير به والتكرير لذكره يكن لكم أجر المجاهدين في سبيل رب العالمين، وثواب العاملين لإحياء سنة سيد المرسلين ، عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين «I» .

النهي عن البناء على القبور

— 3 —

(نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) مسلم من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

* * *

هذا حديث صحيح صريح في النهي عن البناء على القبر ، ومعضداته من السنة كثيرة ، وهو من الظهور والصراحة بحيث لا يحتاج الى تفسير ، وانما نسأل كل مؤمن بقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » وقوله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » ، نسأل كل مؤمن بهذه الآيات ان يعمل بنهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن البناء على القبر ، فلا يبن على قبر ، ولا يعن بانيا ، ويعلن هذا الحديث

(1) ش : ج 3 ، م 9 - غرة ذي القعدة 1351 هـ - مارس 1933 م .

فِي النَّاسِ وَيَذْكُرُهُمْ بِهِ وَلَا يَفْعَلُ بِقَرَعٍ بِهِ اسْمَاعُ الْغَالِبِينَ ،
وَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنَ الْجَاهِلِينَ » وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا
وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ « (1) .

بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ شَرَارِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

- 4 -

(إِنْ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرْتَا كَنِيسَةً رَأَيْتُهَا بِالْحَبَشَةِ، فِيهَا
تَصَاوِيرُ، لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ - ص - : (إِنْ أَوْلَيْتُكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ
بَنَوْنَا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوهُ فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرُ ، أَوْلَيْتُكَ شَرَارُ
الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها .
* * *

كَانُوا شَرَارَ الْخَلْقِ بِسَبَبِ بَنَائِهِمُ الْمَسَاجِدَ عَلَى قُبُورِ صَالِحِيهِمْ
وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ لَهُمْ ، وَكِلَاهُمَا ذَرِيعَةُ الشَّرِّ وَالْوَثْنِيَّةُ ، وَإِنْ كَانَ
النَّصَارَى يَقْصِدُونَ التَّبَرُّكَ بِأَثَارِ الصَّالِحِينَ . وَلَا يُقَالُ أَنَّ هَذَا
فِي مَنْ جُمِعَ بَيْنَ الْبِنَاءِ وَالتَّصْوِيرِ ، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ لَعْنُهُمْ عَلَى الْبِنَاءِ
وَحْدَهُ ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَتَّقِمِ فِي جُزْءٍ مَضَى ، وَلَا يُقَالُ أَنَّ هَذَا
لِأَنَّهُمْ نَصَارَى ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ النَّهْيَ عَنْ مِثْلِ فَعْلِهِمْ هَذَا ، وَالتَّحْذِيرَ
مِنْهُ بِبَيَانِ الْعِقَابِ الْمَتَرْتَبِ عَلَيْهِ ، حَتَّى لَا يَفْعَلَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا
الْفِعْلَ فَيَتَرْتَبَ عَلَيْهِ عِقَابُهُ .

فَحَذَارُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مِنْ فَعْلِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَمُشَاكَلَةِ الْأَشْرَارِ
وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ (2) .

(1) ش : ج 2 ، م 9 - غرة شوال 1351 هـ - فيفري 1933 م .

(2) ش : ج 6 ، م 9 - غرة محرم 1352 هـ - ماي 1933 م .

تأكيد النهي عن اتخاذ القبور مساجد

- 5 -

(عن جندب قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يموت بخمس يقول : (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلًا ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصُلَحَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّي أَنَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ) . رواه مسلم .

* * *

هذا الحديث كالأحاديث الماضية ، صريح في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، وذلك ببناء المساجد عليها كما تقدم في حديث أم حبيبة وأم سلمة - ض - في الجزء الماضي وبالصلاة اليها كما فيما سننقله في الجزء الآتي . وفي هذا الحديث تأكيد النهي بكلمة « ألا » مرتين ، وبتكرير النهي المستفاد أولا من « لا » وثانيا من الجملة الأخيرة المصريح فيها بمسادة النهي مع التأكيد بان . وبعد هذا التأكيد في هذه الصراحة لا يبقى من يشك أو يشكك في معناه إلا من أعمى الله بصيرته واستغوى الغرض والهوى على لبه ، وإن كسبه على قلبه عياذا بالله .

هذا واننا بعد أن نفرغ من نقل متون هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة ، نأتى بكلام الأئمة من شراحها عليها ، ثم بكلام الأئمة من فقهاء المالكية ، رحم الله الجميع ، ونفعنا بمحبتهم ، وحشرنا في زمرة من لا مبدلين ولا مغيرين ، آمين (1) .

وتمت

(1) ش : ج 7 ، م 9 - غرة صفر 1352 هـ - جوان 1933 م .

غرة صفر 1352 هـ - جوان

من اتخاذ القبور مساجد ، الصلاة اليها

- 6 -

(عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في مرضه الذي مات فيه : (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) . قالت : ولولا ذلك لأُبْرَزَ قبره ، غير أنني أخشى أن يُتَّخَذَ مسجداً) . رواه الشيخان واللفظ للبخاري .

* * *

أفادت عائشة - ض - أنهم لم يبرزوا قبره - ص - للناس خوفاً من أن يتخذ مسجداً بالصلاة اليه ، فاتخاذ القبور مساجد ، الذي تكرر النهي عليه ، ولعن مرتكبه ، يكون بالبناء عليها كما في الأحاديث الماضية ، وبالصلاة اليها كما في هذا الحديث (I)

(1) ش : ج 8 ، م 9 - غرة ربيع الاول 1352 هـ - جوليت 1933 م ٠

حق النساء في التعلم

عن أبي سعيد الخدري (ض) : « قالت النساء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك . فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن . فكان فيما قال لهن : ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها الا كان لها حجاباً من النار . فقالت امرأة : واثنيتين ، فقال : واثنيتين » . رواه البخاري .

* * *

الشرح :

كان الرجال يلزمون النبي (ص) فيحيطون به للتعلم فلا يستطيع النساء مزاحمتهم عليه، وكنّ يجلسن في آخر صفوف المسجد، فاذا تحدث النبي (ص) بالعلم بعد الصلاة لا يتمكن من كمال السماع ، وكانت لهن رغبة في العلم مثل الرجال ، اذ كلهن يعلمن انهن مكلفات باحكام الشريعة مثلهم . فلذا سألن رسول الله (ص) ان يعين لهن يوماً باختياره هو يخصصهن به . فاجابهن الى ما طلبن ووعدهن يوماً يعينه ووفى لهن بوعده فلقينهن في ذلك اليوم وحدهن فوعظهن وأمرهن بأشياء مما عليهن من أمر الدين . واخبرهن بان كل واحدة منهن يموت لها ثلاثة من ولدها فتقدمهم قبلها فان ذلك التقديم يكون لها حجاباً ووقاية من النار لعظم الأجر بعظم المصيبة ، فطمعت احداهن في فضل الله وخافت ان يكون هذا الفضل محصوراً فيمن قدمت ثلاثة

فسالت ممن قدمت اثنتين فاجبرها رسول الله (ص) بانه لمن قدمت اثنتين أيضا .

الأحكام والفوائد :

النساء شقائق الرجال في التكليف فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علمهن (ص) واقرهن على طلب التعلم ، واعتز بهن، وتفقدن كما في حديث ابن عباس : ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج ومعه بلال فظن انه لم يسمع النساء فوعظهن وامرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه .

لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعلم ، فاما ان يفردن بيوم كما في هذا الحديث ، واما ان يتأخرن عن صفوف الرجال كما مر في حديث ابن عباس (ض) .

يجعل لتعليم النساء يوم خاص بهن ويتكرر هذا اليوم بقدر الحاجة . ولما كانت الحاجة دائمة فالיום مثلها .

فيه عظيم أجر من أصيب في افلاذ كبده اذا حزن ولم يقل قبيحا، وجاء التنصيص على الرجال فهم مثل النساء في هذه المثابة .

وفيه البداية في التعليم بما تشتد اليه حاجة المتعلم فان حنان النساء وضعفن يحملانهن على الجزع الشديد وقد يخرج بهن الى القبيح ، فذكر لهن ما يكون عدة لهن ووقاية عند نزول المصيبة .

وفيه ما ينبغي من تهيئة القلوب وتحضير النفوس لتلقى التكاليف الشرعية لتشرح لها الصدور وتنشط فيها الجوارح ولذا قدم الوعظ على الامر (I) .

(1) ش : ج 2 ، م 15 - صفر 1358 هـ - مارس 1939 م .

تعليم النساء الكتابة

عن الشفاء بنت عبد الله قالت : « دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا عند حفصة . فقال لي : ألا تعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة » رواه أبو داود .

* * *

السند :

رجاله رجال الصحيح الا ابراهيم ابن مهدي البغدادي فلم يخرج له فيهما لكنه ثقة . وثقه أبو حاتم وابن نافع وابن حبان وقد تابعه غيره وخرج الحديث أيضا النسائي والبيهقي في السنن الكبرى والامام أحمد .

المتن :

الأشخاص : الشفاء هي بنت عبد الله القرشية العدوية من السابقات والمهاجرات الاوائل (رض) وحفصة هي بنت عمر ابن الخطاب أم المؤمنين رضي الله عنهما .

الالفاظ :

النملة: قروح تخرج في الجنب . ورقيتها: كلام كانوا يقولونه عليها مما لا محذور فيه، فأقره النبي (ص) ولم يذكر الرواة نصه

المعنى :

عرف (ص) ان الشفاء كانت علمت حفصة الكتابة وكانت الشفاء من عاقلات النساء وعارفاتهن، فدعاها الى تعليم حفصة رقية النملة وحثها عليها ، ونشطها لذلك بتذكيرها بتعليمها لها الكتابة فمن كان من شأنه عمل من الأعمال خف عليه القيام به . مبينا لها بذلك ان تعليم هذه مثل تعليم تلك فى النفع وفعل الخير .

الأحكام والفوائد :

فيه مشروعية الرقية وذلك بشرط أن تكون بالكلام المفهوم الذى لا محذور فيه كما دلت عليه الآثار . واذا كانت الأدوية سببا للشفاء بخواصها فبعض الأقوال تكون فى ذلك مثلها، تلك من ناحية البدن وهذه من ناحية الروح، وقد دلت على هذا وذاك التجربة وأقرت الجميع الشريعة .

وفيه تعلم الرقية وتعليمها مثل كل ما يمكن ان ينتفع به على الوجه المشروع ، وفيه حث العارف بشيء مما يحتاج اليه الناس ان ينشره بينهم ويعلمهم اياه .

وفيه تعليم النساء الكتابة، واستدل به على ذلك جماعة من الائمة منهم الخطابى فى شارح السنن ، وصاحب المنتقى .

توسع فى الاستدلال :

وأقوى منه فى الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فان مذهب الجماهير وهو المذهب الحق ان الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء الا بمخصص يخرجهن من نص أو اجماع أو بضرورة طبيعية . لان النساء شقائق

الرجال في التكليف ، ولا خلاف في انه اذا اجتمع النساء والرجال ، ورد الخطاب أو الخبر مذكرا على طريقة التغليب .

وتأمل قوله تعالى : « وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » وقوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » كيف نص في الثانية على الرجال لما كان الحال مقتضيا لهم واطلق في الاولى فدل على انه لا فرق بين ان يكون الكاتب رجلا أو امرأة وهو من أدلة مشروعية تعلم النساء الكتابة . وكل آية دعت للعلم ، قد دعت للكتابة لان الله قد بين لنا انه علم بالقلم ليبين لنا ان القلم هو طريق العلم وآلة حفظه وتدوينه ، واقسم بالقلم تنويها بشأنه وجاء ذلك كله على الخطاب العام الشامل للنساء شموله للرجال ، والعمومات اذا تكاثرت أفادت القطع ولهذا جعلنا هذا الطريق من الاستدلال بالحديث الذي هو خبر آحاد وخبر الآحاد - من حيث ذاته - يفيد الظن وان كان صحيحا . وحيث تواردت تلك العمومات وثبت هذا الحديث فقد بلغ الدليل بنصه وقطعيته غاية القوة والبيان .

الاقتداء :

فاستنادا الى هذه الادلة ، وسيرا على ما استفاض في تاريخ الامة ، من العائلات الكاتبات الكثيرات - علينا ان ننشر العلم بالقلم في ابنائنا وبناتنا ، في رجالنا ونسائنا ، على أساس ديننا وقوميتنا الى أقصى ما يمكننا ان نصل اليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء ، وثمار جهادها في احقاب التاريخ المتطاولة . وبذلك نستحق ان نتبوا منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الامم (I) .

(1) ش : ج 3 ، م 15 - ربيع الاول 1358 هـ - ابريل 1939 م .

خير النساء

«عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خطب أمَّ هانئ بنتَ أبي طالب فقالت يا رسول الله : إني قد كبرتُ ولي عيالٌ». فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : خيرُ نساءٍ ركبُن الإبلَ نساءُ قرَيشٍ ، أحنَّاهُ على ولدٍ في صغرِهِ ، وأرْعاهُ على زوجٍ في ذاتِ يَدِهِ » ، رواه مسلم .

* * *

السند :

الحديث ثابت في الصحيحين ، وانما انفرد مسلم بهذه الرواية التي فيها ذكر سبب ورود الحديث وهو خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم هانئ - ض - وما أجابت به .

الكلمات :

حنا عليه يحنو حنوا : عطف . فالأحنى هو الأكثر عطفًا . وحننت المرأة على ولدها حنوا فهي حانية اذا لم تتزوج بعد أبيه ، فاذا تزوجت فلا يقال فيها حانية .

رعى الشيء يرعاه رعاية : حفظه . فالارعى هو : الاحفظ ، وذات اليد هي : الاموال . لانها صاحبة اليد تجعل فيها .

التراكم

ركب الأهل كناية عن نساء العرب ، وقصد بها التعميم ،
أي خير نساء العرب كلهن . وجملة أحناء مستأنفة لبيان ما كن
به خير النساء ، وأفرد الضمير في أحناء باعتبار الجنس .

الأشخاص :

أم هانئ بنت أبي طالب كانت تزوجت هيرة بن عمرو
المخزومي ، أسلمت عام الفتح ، وهرب زوجها إلى نجران ،
فأولادها منه هم العيال الذين اعتذرت به ، وأبت أن تتزوج
عليهم ، فقبل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عذرها .

المعنى :

خير نساء العرب نساء قريش ، لجمعهن بين : الرأفة بالولد
والشفقة عليه والعناية به في تربيته ، حتى يترك الزوج
من أجل التفرغ للقيام به ، وحفظهن للمال وحسن التدبير فيه
والأمانة عليه ، فيكفين الزوج أعز شيء لديه وهو ماله وولده
اللذان بهما حسن حاله وبقاء أثره .

تنبيه على استلزام :

لا تستطيع ترك الزوج بعد تأيمها للتفرغ لتربية أولادها ،
إلا المرأة الكاملة العفاف ، الشديدة الرأفة ، التي أنساها حبها
في أولادها والشفقة عليهم داعية النفس إلى الزواج ،
وما استطاعت ذلك إلا بما عندها من ملكة العفاف فوصفها بأنها
حانية يستلزم أنها عفيفة .

توجيه :

لا بقاء لامة من الامم الا بانتظام اسرها وحفظ نسلها .
وقد خصص الله المرأة للقيام بهذين الامرين العظيمين ، وزودها
من الرحمة والشفقة ما يعينها عليهما ، وانما تقوم بهما اذا
جمعت ما بين العفة في نفسها ، والاقتصاد في نفقتها ، والتفرغ
للقيام بأولادها ، ولهذا لما جمع نسوة قريش ذلك كله كن خير
نساء العرب .

ارشاد :

يبين لنا هذا الحديث الشريف ما خلقت له المرأة من العمل
العظيم في الحياة . ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها
وتهيئتها لذلك بالتربية والتعليم ، فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما
يقوى فيها هذه الصفات : العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة
فيه ، والشفقة على الولد وحسن تربيته ، وكل زيادة على هذه
— بعد تهذيب أخلاقها ، وتصحيح دينها ، وتحبيبها في قومها —
فهي ضارة بها ، أو مخرجة لها عن مهمتها العظيمة ، ملحقة
الضرر بقومها ، فلنجعل هذا الحديث الشريف دليلنا ومرشدنا
في كل ما نسعى اليه من تعليم النساء والبنات .

الاحكام :

امتنعت أم هانئ من التزوج للقيام بأولادها ، فأقرها
النبي — ص — وأثنى على المتصفات به ، فدل ذلك على استحسانه
لمن ملكت عفتها وقدرت عليه . وثناء النبي — ص — على نساء
قريش بوصفهن دليل على ما ينبغي من اختيار المرأة المتصفة
بمثل هذا الوصف ، ودليل ما ينبغي أن يتخير من معادن النساء
في بيوتهن وأقوامهن فان الاخلاق تتوارث ، والبنات متأثرات
بالامهات في الغالب .

تسديد :

ان نساء انجين من انجين من رجالات قریش فی الجاهلیة
والاسلام ، وولدن محمدا - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم
خير نساء فی کل ما توصف به النساء من خير . فصدق رسول
الله - ص - وبر ، وشهدت بصدقه الايام (1) .

(1) ش : 9 ، م 11 - غرة رمضان 1354 هـ - ديسمبر 1935 م .

النساء والكمال

عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (كَمُلَ من الرجال كثيرٌ ، ولم تَكْمُلْ من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسيةَ امرأةِ فرعونَ . وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعامِ) . رواه البخارى ومسلم . -

* * *

تمهيد :

ان الكمال الانسانى متوقف على قوة العلم وقوة الارادة وقوة العمل ، فهى أسس الخلق الكريم ، والسلوك الحميد ، اللذين ينهض بهما بجلال الأعمال ، ويبلغ بهما الى أسمى غايات الشرف والكمال ، والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلى أعطيت من القوى الثلاث القدر الذى تحتاج اليه منها وهو دون ما يحتاج اليه الرجل الذى خلق للقيام بقسم الحياة الخارجى ، فكانت بخلقتها أضعف منه فى العلم والارادة والعمل ، فكانت لذلك دونه فى الكمال . وتقسيم الحياة الى قسميها ضرورى لبقاء النسل وحفظه ، وتقسيم وظيف الحياة بين الرجل والمرأة ، واعطاء كل واحد منهما القدر الذى يحتاج اليه فى وظيفه - من بديع صنع الحكيم الخبير . فلو لم يعط الرجل ما أعطى

من كمال القوى لما استطاع القيام بالاعمال الكبيرة فى قسمه ،
ولو أعطيت المرأة مثل ما أعطى لما صبرت على البقاء فى قسمها
فأخلته ، فاختل النظام فحصل الفساد . ونحن نرى اليوم المرأة
فى المدنية الغربية ومقلديها لما خيل اليها أنها قوية مثل الرجل
هجرت وظيفتها أو أهملتها ، وخرجت تزاحم الرجل فى وظيفته
فأضرت بالقسم الداخلى من الحياة بإهماله واضطرابه ، وأضرت
بالقسم الخارجى بمزاحمة الرجل وزحزحة قسم كبير منه عن
العمل ، وتعريضه للفتن ، والامم الغربية اليوم تشكو من
الشكوى من تفكك نظام الاسرة وانحلال رباط الاخلاق الزوجية
وبعضها عاجز عن تدارك أمره بما فيه من فوضى الآراء ،
وتشعب الاهواء ، وتأصل الداء ، وبعضها قد أخذ يعالج الحالة
بما فرضه على العزابة من ضريبة مالية ، وما جعله من مكافآت
للمتزوجين والمتزوجات .

الارشاد النبوى :

فأراد النبى - ص - أن يعرفنا بهذا الضعف فى جنس المرأة
حتى لا نعدو بها ما خلقت له من وظيفة القسم الداخلى من
الحياة ، فنظلمها ونظلم الحياة ، وأراد أن يدلنا على ضعفها
بدليل تاريخى مشاهد للأجيال ، فذكر لنا تخلفها عن الرجل
فى بلوغ ذروة الكمال ، فأخبرنا أنه قد كمل فى الامم الماضية
من الرجال كثير ، وما كمل منهم من النساء غير امرأتين . وذكر
فضل عائشة على نساء وقتها كفضل الثريد على الطعام من أطعمة
العرب ، ليجمع بين الحديث على الامم الماضية وأمته ، ويدل
على استمرار الكمال فى النساء مثل استمراره فى الرجال
كل بما قدر ويسر له .

الى اى درجات الكمال بلغنا ؟ :

قد بينت درجات الكمال فى قوله تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » .
وقد ذهب بعض الناس الى أن كمال مريم وآسية ببلوغهما درجة النبوة . وذهب الاكثرون الى أنهما لم تبلغا اليها ، وانما بلغتا ما دونها من رتبة الصديقية ، واستدلوا بما تقتضيه رتبة النبوة من الظهور لهداية الناس وارشادهم وذلك غير ما خلقت له المرأة ، وهذا الحديث ليس نصا فى كمال النبوة فلا تقوم به الحجة . وقد جاء فى صحيح مسلم من طريق على - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : (خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة) ، فأخبر بخبر نساء الدنيا فى الامم الماضية ، وخبر نساء الدنيا فى هذه الامة ، فكما لم تكن هذه نبيه ، لم تكن تلك نبيه . على ظاهر القرن ما بينهما فى الخيرية . وذهب قوم الى نبوة مريم بدليل أن الملائكة خاطبتها باصطفاء الله لها وأمرها بالقنوت والسجود والركوع فى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » . وهذه هى النبوة : تبليغ الملائكة وحي الله بالاصطفاء والتكليف لمن يشاء من عباده . فهذا الدليل القوى دليل على خصوصية مريم البرة النقية عليها السلام بهذه المزية بين بنات حواء كلهن .

الالتداء :

هؤلاء السيدات الكاملات كلهن قد كملن في الدين ،
فمنهن أم نبي ، ومنهن زوجة نبي ، ومنهن منقذة نبي ، فها
ان نكمل النساء تكميلا دينيا يهيئهن للنهوض بالقسم الداخلي
من الحياة واعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي
منها . وبذلك تنتظم الحياة انتظاما طبيعيا تبلغ به الانسانية
سعادتها وكمالها (١) .

(١) ش : ج ٦ ، م ١١ - حمادى الثانية ١٣٥٤ هـ - سبتمبر ١٩٣٥ م .

ستر وجه المرأة من الدين على ما فيه من تفصيل

(مالك عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت :
كنا نُخْمِرُ وَجُوهَنَا وَنَحْنُ مُحْرِمَاتٌ وَنَحْنُ مَعَ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) .

* * *

السند : هذا سند من بيت البركات على المسلمين ، بيت
الصديق رضى الله عنه ، فعروة هو ابن الزبير وأمه أسماء
والمنذر أخوه شقيقه وهشام وفاطمة زوجان وابنا عم، وجدتهما
أسماء رضى الله عنهم .

المتن : تخمير الوجه تغطيته بغير النقاب وما فى معناه
مما يشد على الوجه ، فذلك بأن تسدل الثوب على وجهها نازلا من
رأسها ، وجاء مبينا فى حديث عائشة الذى رواه أحمد وأبو داود
وابن ماجه وغيرهما ، قالت : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات فإذا حاذوا بنا
اسدلت احدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزونا
كشفناه .

الاحتجاج : أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما
من أهل العلم والدين فما كان يخفى عليها ما جاء من نهى المرأة

عن النقاب - وهى محرمة فلو كان التخمير مثله لما أقرتهن عليه وما كانت لتفرق بينهما برأيها، وفى كليهما ستر وتغطية، لولا أنها على توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم فى التفريق ما بينهما، ولهذا احتج مالك رضى الله عنه بتقريرها فخرجه فى موطنه .

التأييد :

يؤيد هذا حديث عائشة المتقدم وفيه تقرير النبى صلى الله عليه وسلم لهن على ما فعلن . وهو حديث محتج به ، والذي وقع فيه كلام من رواته - وهو يزيد بن أبى زياد - قد قبله مسلم وجعله ممن يشمله اسم الستر والصدق وتعاطى العلم . كما فى مقدمة صحيحه .

الأحكام والاستدلال :

ستر وجه المرأة عن رؤية الاجنبى مشروع بالتقرير النبوى له فى وقت الاحرام الذى هو وقت كشف وجه المرأة ، ولذلك كن - كما فى حديث عائشة - يكشفن وجوههن اذا جاوزهن الركبان وما نهيت المرأة عن النقاب فى الاحرام الا وقد كان النقاب من شأنها وعادتها - والعادة التى يقرها النبى صلى الله عليه وسلم لمصلحة تصير من الدين باستنادها الى التقرير النبوى الذى هو أصل من أصول التشريع . والمصلحة المراعاة هنا هى سد ذريعة افتتان الرجال بالنساء بسبب النظر ، ودفع هذه الفتنة دل على اعتباره القول والفعل النبويان كما فى حديث الخثعمية الآتى قريبا ، ولما لم يكن وقوع الافتتان محققا دائما لم يكن ستر الوجه حتما لازما فى كل حال ، بل يجوز للمرأة الكشف عند عدم تحققها ، كما فى حديث الخثعمية أيضا على ما سيأتى من البيان .

حديث الخثعمية :

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال كان الفضل ابن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر اهـ . المقصود منه ، رواه مالك والجماعة .

وفى رواية الترمذى من طريق علي كرم الله وجهه قال : واستفتته جارية شابة من خثعم فقالت : أبى شيخ كبير قد أدركته فريضة الله فى الحج أفيجزئ أن أحج عنه قال حجبى عن أبيك قال - على - ولوى عنق الفضل ، فقال العباس يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك ؟ قال : رأيت شابا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما .

ففى قوله صلى الله عليه وسلم لم آمن عليهما الشيطان أن الفتنة لم تقع وانما خاف وقوعها فسد ذريعتها . وفى قوله هذا وفعله دليل على مراعاة الفتنة وسد ذريعتها . وفى عدم أمره للمرأة بستر وجهها دليل على جواز ذلك لها وهذا بناء على أنها كانت مكشوفة الوجه كما هو الظاهر من نظر الفضل اليها ومن خوف الفتنة ، وهو الذى فهمه أكثر الناس ، وان احتمل أن تكون مستورة الوجه بما سدلت من رأسها كما قاله ابن العربى .

تصيل :

ستر وجه المرأة مشروع راجح وكشفه عند أمن الفتنة جائز وعند تحققها واجب ، وأمر الفتنة يختلف باختلاف الاعصار والامصار والاشخاص والاحوال فيختلف الحكم باختلاف ذلك ويطبق فى كل بحسبه .

تطبيق :

من المسلمين اليوم أقوام - معظمهم من غير أهل المدن والقرى - ألفوا خروج نسائهم سافرات فلا يلفتن أنظارهم بذلك فهؤلاء لا يطالبن بستر الوجوه مع بقاء حكم غض البصر وحرمة تجديد النظر .

ومن المسلمين أقوام - معظمهم من أهل المدن والقرى - ألفوا ستر وجوه النساء فكشف المرأة بينهم وجهها يلفت الانظار اليها . ويفرى أهل الفساد بها ويفتح بابا للقليل والقال فى شأنها وشأن أهلها وعشيرتها . فهؤلاء يجب عليهن ستر وجوههن اتقاء للشر والفتنة والوقية فى الاعراض .

هذه أحكام عامة لنساء المؤمنين، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم - أحكام خاصة بهن (I) على أنهن خير القدوة للنساء أجمعين .

تفرقة وتحذير :

هنا سفور اسلامى وهو كشف المرأة وجهها - دون شعرها وعنقها - عند آمن الفتنة ، مع عدم اظهار الزينة - غير الوجه والكفين ، وعدم اثاره الفتنة بروائح الطيب وخشخشة الحلى ورنين الخلخال .

وهناك سفور افرنجى فيه كشف الشعر والعنق والاطراف مع التبرج بالزينة وما اليها فعلينا - معشر المسلمين - أن نوجه قوتنا كلها الى منع السفور الافرنجى الذى قد طغى على نساء أمراء الشرق المسلمين ووزرائه ، وأن نحذر كل ما يؤدى اليه وأن نحافظ على الوضعية الاسلامية العفيفة الطاهرة بسفورها

(1) وفى الاصل : بهم .

— اذا كان سفور على ما فصلنا — فى دائرة محدودة ليس فيها
اثارة ولا اغراء .

توصية :

على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه
الحقائق الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها وبما يطبعهم ويطبعهن
عليه من التربية الاسلامية العالية لميادين الحياة فيكونوا ويكون
— ان شاء الله تعالى — مثال الطهر والعفاف والصون للأجيال .
حقق الله الآمال ويسّر الصالح من الاعمال ، انه عظيم الفضل
كريم النوال (I) .

خروج النساء إلى المساجد

(روى مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : (سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (لا تَمْنَعُوا نساءَكُم المساجدَ إذا أَسْتَأْذَنَكُم إِلَيْهَا) قال : فقال بلال بن عبد الله : والله لَنَمْنَعُهُنَّ . قال : فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبًّا سيِّئًا ما سمعتهُ سبَّه مثله قطُّ . وقال : أَخْبِرْك عن رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وتقول : والله لَنَمْنَعُهُنَّ) .

* * *

الشرح :

قد صح من السنة العملية والسنة القولية خروج النساء الى المساجد وحضورهن مشاهد الخير ، وثبت نهى الرجال عن منعهن من ذلك ، ومنه ما فى هذا الحديث . وعليهن قبل الخروج أن يستأذن الرجال كما هو مقتضى قوله : (إذا أَسْتَأْذَنَكُم إِلَيْهَا) كما ثبت أيضا نهيهن عن مس الطيب اذا أردن الخروج ، وعليهن أن لا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها ، وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن ، وأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وهى ما يجعل فوق الثياب كلها كالملاءة ونحوها ، وأن لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، فلا يسمع منها خشخشة الحلى ،

ولا رنين الخلخال ، وأن يمشين فى حافات الطريق ، ولا يحاqqن الطريق ، أى لا يمشين فى وسطه . وهذه كلها مأخوذة من الآيات والاحاديث فى هذا الباب . ولما سمع بلال بن عبد الله أباه يحدث بهذا الحديث عن رسول الله قابله بالرد وقال والله لنمنعن ، فغضب أبوه غضبا شديدا وسبه وشتمه سبا سيئا مقابلا لقوله السىء ومقابله للحديث النبوى بالمعارضة .

نفى تعارض :

ثبت عن عائشة انها قالت لو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ما أحدث النساء لمنعن المسجد كما منعت نساء بنى اسرائيل ، وهذا لا يعارض ما تقدم لان الذى أحدثه هو الطيب والزينة ، وهو نهى عن منعن ونهاهن عن مس الطيب عند ارادة الخروج ، فلو رأى ما أحدثن لمنعن لاخلالهن بالشرط حتى يلتزمه ، ولا يمنعن منعا يكون ابطالا لنهيه الاول عين منعن .

قدوة :

لما سمع عبد الله بن عمر ابنه بلالا يصارحه بمعارضة السنة ومخالفتها لم يملك نفسه واشتاط غضبا حتى سبه سبا سيئا لم يكن من عادة ابن عمر صدور مثله منه .

وهكذا كل مسلم غيور على الاسلام والكتاب والسنة يسمع من أهل الاسلام التكذيب بهما أو التعدى عليهما أو المعارضة لهما بالرأى والهوى أو تحريفهما عن مواضعهما كذلك، فإنه لا يملك نفسه ان يدافع عنهما ، وقد يملكه الغضب لله فيكون منه بعض ما ليس من عادته ان يصدر منه من قول .

تعزيز وارشاد :

هذا الذي وقع من بلال كثيرا ما يقع مثله أو نحوه من أهل الجهل والبدعة الذين شبوا عليهما وشاخوا حتى صارت البدعة عندهم سنة والسنة بدعة ، فاذا ذكرت لهم الحكم الشرعي بدليله من الكتاب والسنة صدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين .

فحذار اذا سمعت حكما شرعيا ونصا قرآنيا أو حديثا صحيحا نبويا أن تقابل بالخلاف أو تضمم الخلاف ، بل انشرح بذلك صدرا ، ولا يكن في صدرك من حرج مما قضى الله ورسوله وسلم تسليما (I) .

(1) ش : ج 5 ، م 8 - غرة محرم 1351 هـ - ماي 1932 م .

تحریم الخلوة بالاجنبية خصوصا على الاقارب

(اخرج مسلم فى صحيحه عن عقبه بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إِيَّاكُمْ والدخول على النساء . فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسولَ الله أفرأيتَ الحمَّو . قال: الحمَّو الموتُ) .

* * *

المفردات :

الحمو على وزن دلو ، قال الليث بن سعد هو أخ الزوج وما اشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه ، فالاحماء أقارب الزوج ، والاختان أقارب الزوجة ، والاصهار يقال عليهما .

التركيب :

نصب إياكم على التحذير . أفرأيت : معناه أخبرنى . الحمو الموت : تشبيهه بليغ كزيد اسد وفى الموت استعارة تصريحية ، شبه فساد البيوت وخرابها وانحلال روابطها بالموت بجامع الهلاك والزوال فى كل . فجاء عليه وآله الصلاة والسلام بهذا التركيب البليغ البالغ للمبالغة فى التحذير والبلوغ الى غاية التأثير .

المعنى :

حذر عليه وآله الصلاة والسلام الرجال من الدخول على النساء - وكانوا يتساهلون فى الدخول على نساء اقاربهم - فسأل هذا الانصارى رضى الله تعالى عنه عن اقارب الزوج ، فاجابه صلى الله عليه وآله وسلم بان الخوف منه أكثر والشر منه اقرب والفتنة به اشد لانه متمكن من الدخول الى بيت أخيه دون انكار عليه فيتوصل الى المرأة ويخلو بها دون كلفة ولا مراقبة ، بخلاف الاجنبى فهو بعيد عن الدار ينكر عليه دخولها ويخشى من مراقبة أهلها ، فاذا كان الاجنبى ممنوعا من الخلوة بالاجنبية فأحرى وأولى قريب زوجها وبين عليه وآله الصلاة والسلام ان الخلوة بالاحماء مؤدية الى الهلاك والفتنة فى الدين والى خراب البيت وفساد الاسرة واضمحلالها .

الاحكام :

حرم الحديث الخلوة بالاجنبية خصوصا على الاقارب اما المحرم كزوجة الابن أو زوجة الاب فلا تحرم الخلوة بها للمحرمة ، واما الدخول دون خلوة فاذا انتفتت الريبة فهو غير ممنوع .

العمل بالحديث :

الناس - الا من شاء الله - بهذا الحديث جاهلون . وعن سوء العاقبة التى حذر منها غافلون . وفى الهلاك الدينى والعرضى واقعون . فحق على من قرأ هذا الحديث ان يعلمه للناس وينشره فيهم ويحث نفسه واياهم على العمل به والسير على أدبه ، ولا يستعظم من يراه من جهل ، فانه ما جاء الا من قلة نشر العلم فاذا نشر العلم - ولو كان فى أوله قليلا - فانه لا يلبث باذن الله ان يصير كثيرا . « وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »^(١)

(١) ش : ج ٩ ، م ٨ - غرة جمادى الاولى ١٣٥١ هـ - سبتمبر ١٩٣٢ م .

على رسلكما ، انما هي صفة

من صفة أم المؤمنين (أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب ، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقلبها حتى اذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرة رجلاً من الأنصار فسلاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم : علي رسلكما إنما هي صفة بنت حبي ، فقالا سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الشيطان يلمن من الانسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

* * *

الألفاظ :

تنقلب : ترجع الى بيتها ، يقلبها : يردها ويمشي معها .
وما يزال هذا الفعل قلب بمعنى رد مستعملاً في اللغة الدارجة باللفظ المعقودة ، على رسلكما : على هينتكما أي مشيتكما ،
الهيئة التي لا عجلة فيها أي تسرعاً . كبر عليهما : عظم وشق ،
يبلغ مبلغ الدم : يصل حيث يصل . ان يقذف : ان يرمى .

الاشخاص :

صفية بنت حيي بن اخطب تزوجها النبي - ص - سنة سبع من الهجرة سببت في فتح خيبر فأعتقها النبي - ص - وتزوجها، توفيت في شهر رمضان سنة 50 .

المعنى :

كان النبي - ص - يواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فجاءته زوجته صفية ليلة تؤانسه وتحادثه ، فلما أرادت الانصراف الى بيتها قام معها النبي صلى الله عليه وآله يؤنسها الى بيتها، كما جاءت هي اليه، وبلغ معها باب المسجد، فمر بهما رجلان من الأنصار فأسرعا في مشيهما واستحييا لما رايا رسول الله - ص - ، فخشى النبي - ص - عليهما من وسوسة الشيطان المسلط على الانسان بأن يلقي في قلوبهما شيئا من وجود امرأة مع النبي - ص - ، والشيطان يقنع بالخطرة يلقيها في قلب المؤمن يؤلمه بها ولو كان صدق إيمانه يرد عنه كيد الشيطان ويدفعه، ويقنع باذاية المؤمن ولو بخطرة السوء تمر بالقلوب تمسه في دينه أو عرضه ، فأراد النبي (ص) أن يسد في وجه الشيطان باب الكيد لدينك الرجلين الصحابييين رضى الله عنهما ويقطع عليه طريق اذايتهما واذايته معهما ، فقال لهما تمهلا ولا تسرعا في مشيتكما وأعلمهما بأنها زوجته صفية ، وكان الصحابييان الجليلان لم يقع في قلوبهما شيء ولم يخطر أدنى خاطر منه في بالهما، فاستعظما وكبر عليهما واشتد عليهما أن يظن النبي - ص - فيهما خطور مثل هذا ببالهما حتى يحتاج الى تعريفهما وهما كانا يريان انفسهما بصدق إيمانهما ابعد ما يكون عن هذا ، فبين لهما النبي - ص - الداعي الذي دعاه الى تعريفهما بالواقع وهو الخوف عليهما مما قد يكون

بالغاء الشيطان دون قصد منهما لا شيء هو واقع منهما وبين لهما ما يعرفهما بإمكان ذلك وسهولته بما جعل للشيطان من التمكن من القاء الوسواس للإنسان وبلوغه منه في الاحاطة والتمكن مبلغ الدم .

الأسوة - ولكم في رسول الله اسوة حسنة :

- حماية الاعراض من التهم : كما على المسلم أن يقي عرضه من طعنات اللسان بالسوء عليه أن يقيه من هواجس النفوس به فان الهواجس مبادئ الظنون ، والظنون مطايا الأقوال ، والأقوال سهام نافذة ، وقلما يثبت غرض على كثرة الرمي ، ومن خسر عرضه خسر قيمته وخسر كل شيء ، فلخطر هذه النهاية لزم الاحتفاظ على العرض من تلك البداية .

فلا ينبغي للمسلم ان يرى حيث تقع في امره شبهة وتتوجه عليه تهمة ولو كان عند نفسه بريئا ، وعما يرمى به بعيدا ، فليس الانسان يعيش في هذه الدنيا لنفسه بل يعيش لنفسه ولاخوانه ، واذا تعرض للمتهم خسر نفسه وخسره اخوانه وادخل على نفسه البلاء منهم وادخل البلاء عليهم به فكانت مصيبته على الجميع وضرره عائدا على الاسلام وجماعة المسلمين خصوصا اذا كان المرء ممن يقتدى به ويرجع اليه فان زوال الثقة به خسارة كبرى وهدم لاركان الدين وتعطيل لانتفاع الناس بالعلم وانتفاعه هو بعلمه ، واذا وقف الانسان موقفا مشروعا وخاف ان تتطرق اليه في خواطر الناس شبهة كان عليه أن يبادر للتصريح بحقيقة حاله والتعريف بمشروعية موقفه .

وليس لأحد ، بعد رسول الله - ص - ، ان يفتر بمنزلته عند الناس فلا يبالي بما قد يخطر لهم . بل ذو المنزلة احق

بالتبيين والتصريح لمطعم حاجة الناس الى بقاء ثقتهم به وتوقف استفادتهم منه وقيامه بما ينفعهم على تلك الثقة .

قال الامام ابن دقيق العيد رحمه الله : (فى الحديث دليل على التحرز مما يقع فى الوهم نسبة الانسان اليه مما لا ينبغى . وهذا متأكد فى حق العلماء ومن يقتدى بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب ظن السوء بهم وان كان لهم فيه مخلص ، لان ذلك سبب الى ابطال الانتفاع بعلمهم) .

مدافعة الشيطان عن القلوب :

علينا - وقد علمنا ان الشيطان متمكن من الوسوسة لنا من جميع نواحينا متصلا بنا اتصالا وقريبا منا قريبا مثل اتصال وقرب الدم لا يمكننا الانفصال عنه كما لا يمكننا الانفصال عن الدم - ان نأخذ جميع الحيلة لرد كيده وابطال تدبيره واحباط وسوسته وذلك بالمبادرة الى الاستعاذة بالله منه بالاستعاذة الثابتة عن النبى - ص - فى الاحوال المختلفة وبمقابلة كل نوع من وسوسته بما يبطله من ذكر الله ، فاذا جاء من ناحية الايمان بادرنا الى لا اله الا الله ، واذا جاء من ناحية التنزيه بادرنا الى سبحان الله ، واذا جاء من ناحية الانعام بادرنا الى الحمد لله ، واذا جاء من ناحية التخويف من الخلق بادرنا الى الله أكبر ، وهكذا نبادر الى رد ما يوسوس به من كلمات الباطل الى ضدها من كلمات الحق ، وكما على المؤمن ان يدفع ذلك عن قلبه عليه ان يدفعه عن قلب أخيه بمصارحته بما يزيل اساءة الظن به أو حمل شيء عليه أو نفرة من ناحيته أو اشغال لامره ، وان يبين له ما يقصد بذلك من مدافعة الشيطان وردة عن نفسه

وعن أخيه ليكون عوناً له على قصده فيرجع الشيطان عنهما مذوراً
مدحوراً .

وهذه المدافعة للشيطان وحماية القلوب منه من أعظم الجهاد
وأوجبه وألزمه بل هي أصل الجهاد كله فانه هو أصل البلاء كله
فالسلامة منه هي السلامة من كل سوء ، والتمكن من نيل كل
خير والفوز بكل سعادة في الدنيا والآخرة (I) .

(1) ش : ج 2 ، م 10 - غرة شوال 1352 هـ - جانفي 1934 م .

أحاديث في أغراض مختلفة

(1) العلم وفضله

١ - عن سفيان بن عيينة قال سمعت جعفر ابن محمد يقول :
« وجدنا علم الناس كله فى أربع أولها أن تعرف ربك ، والثانى
أن تعرف ما صنع بك .. والثالث أن تعرف ما أراد منك ،
والرابع أن تعرف ما تخرج به من ذنبك » .

ذكره الحافظ أبو عمر عبد البر (١ : 3) . وكل ما ننقله عنه
من غير عزو الى كتاب فمن كتابه «جامع بيان العلم وفضله».

٢ - عن ابن عباس (رض) عن النبى (ص) قال : « فضل
المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة » . رواه ابن عبد
البر (22.1) .

٣ - عن جابر بن عبد الله (رض) عن النبى (ص) قال :
« يبعث الله العالم والعابد ، فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويقال
للعالم اشفع للناس كما احسنت أدبهم » رواه ابن عبد البر
(22.1) (١) .

٤ - قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لموت ألف عابد قائم
الليل صائم النهار أهون من موت العاقل البصير بحلال الله
وحرامه . ذكره ابن عبد البر (26.1) .

(١) السنة - السنة الاولى ، العدد 3 ، 29 ذى الحجة 1351 هـ 24 ابريل 1933 م .

١ - قال عمر بن عبد العزيز (ض) من عمل لي غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . رواه ابن عبد البر بسنده (27.1) .

(2) السنة والبدعة

١ - عن العرياض بن سارية (ض) قال : « وعظنا رسول الله (ص) موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، ودرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشيٌّ . وأنه من يمش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

2 - عن جابر بن عبد الله (ض) قال : « خطب رسول الله (ص) الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن أفضّل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم . وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » رواه مسلم مطولاً ، ورواه مختصراً بهذا اللفظ الحافظ محمد بن وضاح المالكي المتوفى سنة 286 في كتابه « البدع والنهي عنها » (ص 23) وكل ما ننقله عنه من غير وعز إلى كتاب فمنه .

3 - عن أبي هريرة (ض) أن رسول الله (ص) قال : « سيكون في أمتي دجالون كذابون يأتونكم ببِدَعٍ من الحديث لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم لا يفتنونكم » رواه ابن وضاح (27) وأخرجه مسلم في صحيحه (1) .

(١) من اسد الى اسد

روى ابن وضاح عن غير واحد ان اسد بن موسى كتب الى اسد بن الفرات : اعلم اى أخى أنما حملنى على الكتاب اليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من انصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السنة ، وعيبك لاهل البدعة وكثرة ذكرك لهم ، وطعنك عليهم ، فقمعهم الله بك وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم باظهار عيبهم والطعن عليهم فأذلهم الله بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين .

فأبشر اى أخى بثواب ذلك وأعتد به أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد وأين تقع هذه الاعمال من اقامة كتاب الله واحياء سنة رسوله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من احيا شيئا من سنتى كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » وضم بين اصبعيه .

وقال : « ايما داع دعا الى هذا فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه الى يوم القيامة » فمن يدرك أجر هذا بشيء من عمله ؟ وذكر أيضا أن الله عند كل بدعة كيد بها الاسلام وليا لله يذب عنها وينطق بعلاماتها .

فاغتتم يا أخى هذا الفضل وكن من أهله فان النبى صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن وأوصاه وقال : لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من كذا وكذا - واعظم القول فيه - فاغتتم ذلك وادع الى السنة حتى يكون لك فى ذلك الفة وجماعة يقومون مقامك ان حدث بك حادث ، فيكونون ائمة بعدك فيكون ذلك ثواب لك الى يوم القيامة كما جاء الاثر .

فاعمل على بصيرة ونية وحسبة فرد الله لك المبتدع المفتون الزائغ الحائر فتكون خلفا من نبيك صلى الله عليه وسلم فانك

لن تلقى الله بعمل يشبهه وإياك ان يكون لك من أهل البدع أخ
أو جليس أو صاحب فانه جاء الاثر (من جالس صاحب بدعة
نزعت منه العصمة و وكل الى نفسه ومن مشى الى صاحب بدعة
مشى فى هدم الاسلام) . وجاء « ما من اله يعبد من دون الله
أبغض الى الله من صاحب هوى » . وقد وقعت اللعنة من رسول
الله صلى الله عليه وسلم على أهل البدع وأن الله لا يقبل منهم
صرفا ولا عدلا ولا فريضة ولا تطوعا وكلما ازدادوا اجتهادا
وصوما وصلاة ازدادوا من الله بعدا ، فرفض مجالسهم واذلهم
وابعدهم كما ابعدهم الله واذلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وائمة الهدى بعده .

هذا مثال من رسائل الاوائل يريك عناية السلف بالسنة
والذب عنها ، وبغضهم للبدعة ومحاربتهم لاهلها، ومن عرف مقام
الاسدين المخاطب والمخاطب عرف مكانة تلك الرسالة .

فالمخاطب (بالكسر) هو أسد بن موسى بن ابراهيم ابن الخليفة
الوليد بن عبد المالك بن مروان . كان ثقة حافظا يلقب بأسد
السنة . استشهد به البخارى واحتج به أبو داود والنسائى .

وذكر الحافظ الذهبى فى الميزان أنه لا يعلم به بأسا وأن
ابن حزم الظاهرى ضعفه وتضعيفه مردود - وكانت وفاته
سنة 212 .

والمخاطب (بالفتح) هو أسد بن الفرات بن سنان ، تفقه
بأصحاب مالك ، ثم ارتحل فسمع من مالك موطأه وغيره وأخذ
عن أصحاب أبى حنيفة . قال فى الديباج : « وكان ثقة لم يزن
ببدعة » وتوفى غازيا بصقلية سنة 213 (1) .

(1) السنة - السنة الاولى العدد 7 ، محرم 1352 هـ ، ماي 1933 م .

4) العلم وتعلمه :

I - عن أبي الاحوص قال قال عبد الله : « ان الرجل لا يولد عالماً . وانما العلم بالتعلم » رواه ابن عبد البر (1001) .

2 - عن عبد الله بن عباس (ض) قال قال رسول الله (ص) : « من جاءه أجله وهو يطلب علماً ليحيى به الاسلام لم تفضله النبيون الا بدرجة » . رواه ابن عبد البر (1 : 90) (وروى نحوه من مرسل الحسن وسعيد بن المسيب (4601) .

3 - عن ابن عباس (ض) قال : « لما قبض رسول الله (ص) وأنا شاب قلت لشاب من الانصار يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله (ص) ولنتعلم منهم فانهم كثير . قال العجب لك يا ابن عباس ! أترى الناس يحتاجون اليك وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله (ص) ، قال فتركت ذلك وأقبلت على المسألة ، وتتبع أصحاب رسول الله (ص) فان كنت لآتى الرجل في الحديث يبلغنى أنه سمعه من رسول الله (ص) فأجده قائلاً ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفى الريح على وجهي حتى يخرج فاذا خرج قال : يا ابن عم رسول الله (ص) مالك ؟ فأقول بلغنى حديثك عنك أنك تحدثه عن رسول الله (ص) فأحببت أن أسمعه منك . قال فيقول فهل بعثت الي حتى آتيك فأقول أنا أحق أن آتيك ؟

فكان الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله (ص) ، واحتاج الناس الى فيقول كنت أعقل منى . رواه ابن عبد البر (1 : 85 - 86) .

(السنة) : ان هذا الخبر لجليل وانه ليشتمل على فوائد تنبه القارئ الى اثنتين منها خشية أن يتنبه لهما .

أولاهما حسن أدب آل رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم
مع العلم وأهله وعدم اعتزازهم بغيرهم واحترازهم بقرابتهم
القريبة المحققة .

ثانيهما سمى ابن عباس في العلم ذلك السعى وهو الذي روى
عنه البخاري في صحيحه أنه قال : « ضمنى النبي (ص) الى
صدره وقال اللهم علمه الحكمة » فلم يتكل على دعاء رسول
الله (ص) وهو يؤمن بقبوله لانه يفهم أن الدعاء بالشئ دعاء
بتيسير أسبابه فالدعاء لا ينافى تعاطي الأسباب . بل من الداعي
أو المدعو له أن لا يهمل الأسباب اكتفاء بالدعاء .

(5) العلم وتعليمه

I - عن أبي حنيفة عن حماد عن ابراهيم قال : « بلغني أنه
إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في
الكفة الأخرى . فتشيل حسناته . فإذا أيسر وغلن أنها النار جاء
شئ مثل السحاب حتى يقع في حسناته . فتشيل سيئاته . قال
فيقال له اتعرف هذا من عملك ؟ فيقول لا . فيقال هذا ما علمت
الناس من الخير فعمل به من بعدك » .

رواه ابن عبد البر (I : 46) وحماد هو ابن أبي سليمان
وابراهيم هو النخعي .

2 - عن معاذ بن جبل (ض) مرفوعا وموقوفا : « تعلموا العلم
فان تعليمه لله خشية . وطلبه عبادة . ومذاكرته تسبيح .
والبحث عنه جهاد . وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة . وبذله لأهله
قربة . لانه معالم الحلال والحرام . ومنار سبل أهل الجنة ، وهو
الانس في الوحشة . والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة .
والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين

« عند الاخلاء يرفع الله به القواما فيجعلهم في الخير قادة وأئمة
يمسح اثارهم ويقتدى بالفعالهم وينتهى الى رايهم ترغب الملائكة
في خلقتهم وبأجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس
وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه .

« لان العلم حياة القلوب من الجهل ومصاييح الابصار من
الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الاخيار والدرجات العلا في الدنيا
والآخرة .

« التفكير فيه يعدل الصيام . ومدارسته تعدل القيام . به
توصل الارحام . وبه يعرف الحلال من الحرام .

« هو امام العمل . والعمل تابعه ، ويلهمه السعداء ويحرمه
الاشقياء » . رواه ابن عبد البر (55.54.1) .

3 - عن كعب قال : « أوحى الله الى موسى (ص) تعلم الخير ،
وعلمه الناس ، فاني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى
لا يستوحشوا لمكانهم » . رواه ابن عبد البر (61 - 1) .

6) العلم وتعليمه بالمساجد :

1 - أواخر كتاب العلم :

« باب ذكر العلم والفتيا في المسجد » .

2 - عن علي الازدي ، قال : « سألت ابن عباس عن الجهاد ،
فقال الا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد ؟ تبني مسجدا تعلم فيه
القرآن وسنن النبي (ص) والفقه في الدين » . رواه ابن عبد
البر (62 : 1) وروى نحوه (31 : 1) .

3 - عن أبي بكر بن عبد الرحمن انه كان يقول : « من غدا
أوراح الى المسجد لا يريد غيره ليتعلم خبرا أو ليعلمه ، ثم رجع

الى بيته كان كالمجاهد فى سبيل الله رجع غانما » . رواه مالك فى الموطأ (I : 34 ، ط مصر 1248) .

(7) العلم واحترام أهله :

I - عن أبى الحسن المدائنى قال : « خطب زياد ذات يوم على منبر الكوفة ، فقال : أيها الناس، انى بت ليلتى هذه مهتما بخلال ثلاث ، رأيت أن أتقدم اليكم فيهن بالنصيحة : « رأيت اعظام ذوى الشرف واجلال ذوى العلم وتوقير ذوى الاسنان ، والله لا أوتى برجل رد على ذى شرف ليضع بذلك منه الا عاقبته ولا أوتى برجل رد على ذى شيبة ليضعه بذلك الا عاقبته ، انما الناس بأعلامهم وعلمائهم وذوى أسنانهم » .

رواه ابن عبد البر (I : 53) .

2 - عن الشعبي قال : « صلى زيد بن ثابت (ض) على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس (ض) فأخذ بركابه ، فقال له زيد خل عنه يا ابن عم رسول الله (ص) فقال ابن عباس هكذا يفعل بالعلماء والكبراء » .

رواه ابن عبد البر (I : 128) .

3 - روى عن النبى (ص) أنه قال : « ارحموا من الناس ثلاثة . عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ، وعالما بين جهال » .

ذكره ابن عبد البر (I : 131) (I) .

(8) شكوى علماء الدين من الارذال المفسدين

روى ابن عبد البر فى (جامع بيان العلم وفضله) عن الحسن البصرى أحد كبار علماء التابعين أنه قال : (اللهم اليك نشكو

هذا الغشاء الذى كنا نحدث عنه ، ان اجبناهم لم يفقهوا ، وان
سكتنا عنهم وكلناهم الى عيب شديد . والله لولا ما أخذ الله على
العلماء فى علمهم ما أنبأناهم بشيء أبداً (١ : ٦) .

تعليق :

الغشاء فى الاصل ما يخالط زبد السيل من أعشاب وأوراق ،
والمراد به هنا أراذل الناس وسقطهم .

وقد أفاد الاثر أولاً : أن علماء الدين المرشدين كانوا من
قديم الزمان يعانون متاعب فى الارشاد ، ويتحملون اذايات
المفسدين ، ويتلقون اعتراضات من أدعياء العلم المفتونين .

وثانياً : أن تلك المتاعب والاذايات والاعتراضات لا تسقط
عن العالم فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا تنجيه
من تبعة الكتمان الثابتة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ
مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » . وبقوله صلى الله عليه
وآله وسلم : (من سئل علماً علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً
بلجام من نار) رواه ابن عبد الله فى الجامع وأبو داود والترمذى
وابن حبان والحاكم والبيهقى وغيرهم بروايات متحدة المعنى
متقاربة اللفاظ

وثالثاً : أن العلم أمانة عند العلماء ، وهم مكلفون بأدائها
لمستحقيها ، وليس العلم ملكاً لهم يستغلونه فيكتمونه ان رأوا
الكتمان أوفق بمصالحهم الشخصية وينشرون منه ما لا يصادم
أهواء العامة ، بل يزيدهم جاهاً لديهم . ولا ابخس صفقة ممن
اشترى الحياة الدنيا بالآخرة .

(٧) حكم طلب العلم :

روى ابن عبد البر فى جامعه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (اُطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ ، فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (١ : ٧) .

تعليق :

أفاد الحديث أمرين : أحدهما وجوب طلب العلم ، وثانيهما عدم اعتبار المشقة فى طلبه مانعا من وجوبه ، بلغت المشقة ما بلغت . والحديث رواه ابن عبد البر من طرق متعددة تم قال : (... فى أسانيده مقال لاهل العلم بالنقل ، ولكن معناه صحيح عندهم وان كانوا قد اختلفوا فيه اختلافا متقاربا) .

ومثار الخلاف الذى أشار اليه ابن عبد البر ما فى لفظة العلم من الاجمال ، فان المراد من العلم العلم الدينى قطعا ، لكن مسائل الدين منها ما هو فرض ومنها ما هو غير فرض ، ومنها ما هو فرض عينى ومنها ما هو فرض كفائى .

وقد أورد ابن عبد البر أقوال الائمة فى معنى الحديث ، فروى عن اسحاق بن راهويه أنه قال : (معناه أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج اليه من وضوئه وصلاته وزكاته ان كان له مال وكذلك الحج وغيره ، وما وجب عليه من ذلك لم يستأذن أبويه فى الخروج اليه وما كان فضيلة لم يخرج اليه حتى يستأذن أبويه) .

وروى عن مالك أنه سئل عن طلب العلم أهو فريضة على الناس ؟ فقال : لا ، ولكن يطلب من المرء ما ينتفع به فى دينه . وروى عن ابن المبارك أنه سئل عن معنى هذا الحديث فقال : فريضة على من وقع فى شىء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى

يعلمه . وروى عن ابن عيينة أنه قال : فريضة على جماعتهم
 وجزء فيه بعضهم عن بعض وتلا هذه الآية : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ
 كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا
 رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » . ثم أورد ابن عبد البر جملة من المسائل الواجبة
 وجوباً عينياً ، وجملة من الواجبات الكفائية ونحن لا نرى
 لزوماً للتفصيل فانه يلوح من كلام الائمة المتقدم أن طلب العلم
 على وجهين : أحدهما الاشتغال بتحصيل مسائله والانقطاع الى
 تعلم قواعده . وهذا هو الواجب كفاية . وثانيهما السؤال عن
 حكم ما نزل به من أمر دينه واستفتاء أهل العلم فيه ، وهذا
 واجب عينياً فاحفظ هذا الضابط واعتبر به مسائل دينك يسهل
 عليك الفرق بين ما هو واجب على عموم المسلمين يسقط عنهم
 بوجود عالم بينهم ، وما هو واجب عليك في خاصة نفسك لا تبرأ
 منه ذمتك الا بمعرفته (I) .

(10) براءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممن غيّر دينه :

روى مالك في الموطأ ، وروى غيره أيضاً عن أبي هريرة
 - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 خرج الى المقبرة فقال : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا
 ان شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت إخواننا) .
 فقالوا : يا رسول الله ألسنا بإخوانك ؟ قال (كلاً ، أنتم
 أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ ، وأنا فرطهم على
 الحوض) . فقالوا : يا رسول الله ، كيف تعرف من يأتي بعدك
 من أمتك ؟ قال : (أرأيت لو كان لرجل خيلٌ غرٌّ محجلةٌ في خيل
 دهم بهم ألا يعرف خيله ؟) قالوا بلى يا رسول الله . قال :
 فانهم (يأتون يوم القيامة غرّاً محجلين من أثر الوضوء ، وأنا

(1) الصراط - السنة الاولى العدد 12 ، شعبان 1352 هـ ديسمبر 1933 م .

لرطهم على الحوض . فليزادن رجال عن حوضي كما يزداد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلم ، ألا هلم ، ألا هلم . فيقال : انهم قد بدّلوا بعدك . فأقول : - فسحقا ، فسحقا ، فسحقا) .
* * *

تعليق :

قد أتينا هذه المرة بحديث فيه طول . ولكن ما فيه من الفوائد نعتقد أنه يكون حافزا للقارئ الى حفظه . وليس حفظ الحديث الجليل بكثير على همة المستفيدين وفوائد هذا الحديث :

أولها : جواز زيارة القبور ، غير أن الجواز مقيد بكونها على الصفة التي وقعت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن أصحابه - رضوان الله عليهم - . وصفة الزيارة في هذا الحديث مركبة من ثلاثة أشياء :

أحدها حق الدعاء للموتى .

ثانيها الاعتبار بحالهم .

ثالثها دعاء الزائر لنفسه بحسن الخاتمة .

الأول مستفاد من جملة السلام عليكم . والثاني مستفاد من جملة " أنا بكم لاحقون " . والثالث مستفاد من جملة " ان شاء الله " . فقد قال أبو القاسم الجوهري : معناه (لا نبدل ولا نغير ، نموت على ما متم عليه ان شاء الله تعالى) نقله الباجي في شرح الموطأ .

الفائدة الثانية : تسميته - صلى الله عليه وآله وسلم - لمن لم يره من أمتة باخوانه ، فنحن من اخوانه - صلى الله عليه وآله وسلم - وآله وسلم - وكفى بهذه النسبة شرفا ، فما على المسلم الا أن يعمل بسنة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى تتحقق فيه هذه النسبة ، وليس من الأدب ولا من الإيمان أن يستضعف المسلم

هذه النسبة ويحاول تقويتها بنسبة أخر ، الى شخص اخر يكونه
خوني فلان او حبيبه او درويشه .

وعدم تسميته - صلى الله عليه وآله وسلم - لاصحابه
بالاخوان يدل على فضل الصحبة وأن لها مزية زائدة على مطلق
الاخوة ، وهذا لا خلاف فيه .

الفائدة الثالثة : عنايته - صلى الله عليه وآله وسلم - بأمته
في الآخرة ، كما كان حريصا على هدايتهم في الدنيا ، يدل
على هذه العناية قوله : (وأنا فرطهم على الحوض) قال الباجي في
شرحه : يريد أن يتقدمهم اليه ويجدوناه عنده . رواه ابن حبيب
عن مالك . يقال فرطت القوم اذا تقدمتهم لترتاد لهم الماء وتهييء
لهم الماء والرشاء .

الفائدة الرابعة : ان عنايته - صلى الله عليه وآله وسلم -
بأمته في الآخرة خاصة بالثابتين على سنته منهم ، فأما المبتدعون
الذين بدلوا سنته وأحلوا محلها بدعتهم فانه - صلى الله عليه وآله وسلم -
وآله وسلم - يبعدهم عنه بقوله : (فسحقا ، فسحقا ، فسحقا) .
ثم هذا الابعاد معناه الحرمان من ماء الحوض في وقت شدة
الحاجة اليه ، فان كان الابتداع والتبديل بالمروق من الدين
فالابعاد حرمان من الشفاعة أيضا ، ويبقى ذلك المبتدع مغلدا
في النار ، وان كان الابتداع لا يخرج من الدين ، فالابعاد
عن الحوض لا يمنع المبتدع أن تناله الشفاعة ، غير أن في الابعاد
عن الحوض عذابا بالظما وخزيا بالطرد . نسأل الله أن يحيينا
على سنة رسوله الكريم ، وأن لا يحرمنا من ماء حوضه العذب
ولا من شفاعته المرجوة (1) .

(1) الصراط : السنة الاولى العدد 13 ، شعبان 1352 هـ ديسمبر 1933 م .

(11) الترغيب في الذكر :

قال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن انس :
« ان الله يذكر من ذكره ، ويشكر من شكره ، ويعذب من كفره » . نقله الحافظ ابن كثير في تفسيره : (1 : 360) .

* * *

تعليق :

الاحاديث والآثار في فضل الذكر والترغيب فيه كثيرة ،
وليس فيها - على كثرتها - ما يدل على احتياج الذاكر الى اذن
في ذكره من غيره ، وليس فيها - على كثرتها - ما يدل على أن
الله قد نصب بعض عباده لاعطاء الاذن في ذكره لمن يريده .

فاذكروا الله أيها المؤمنون ، ولا تتخذوا وسطاء بينكم وبين
الله في الاذن بالذكر ولا في قبوله ، وما أصدق قول الناس :
« باب الله ما عليه بواب » .

(12) ما هو الذكر ؟ ومن هو الذاكر ؟

عن خالد بن أبي عمران قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم : « من أطاع الله فقد ذكر الله وان قلت صلاته
وصيامه وتلاوته القرآن . ومن عصى الله فقد نسى الله وان
كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن » . اخرجه سعيد
ابن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الايمان ، نقل ذلك
السيوطي في الدر المنثور (1 : 149) .

وعن سعيد بن جبير أنه قال - في جواب مسائل سأله عنها عبد الملك
ابن مروان - : « وتسأل عن الذكر ، فالذكر طاعة الله ، فمن
أطاع الله فقد ذكر الله ، ومن لم يطعه فليس بذاكر وان أكثر

التسبيح وتلاوة القرآن . ونقله ابن غيلان في شرحه على حلية
الابرار للنووي (I : 15) .

تعليق :

قد جمعنا بين الحديث المرفوع والاثار الموقوف على سعيد
ابن جبير من كبار علماء التابعين لاتحادهما في المعنى
وورودهما على غرض واحد ، وقدما الحديث لانه الاصل ،
وأخرنا الاثر لانه الفرع الشاهد المقوى لسند ذلك الحديث ..

وقوله في الحديث : وان قلت صلاته ... الخ . يريد صلاة
التطوع وصيام التطوع . أما من قلت صلاته الواجبة أو صيامه
الفرض فانه عاص لا يوصف بالطاعة .

وبهذا الحديث وذلك الاثر تعلم المراد من الآيات الآمرة بالذكر
كقوله تعالى : « فاذكروني اذكركم » وقوله : « اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا
كَثِيرًا » فليس المراد من الذكر في أمثال هاتين الآيتين خصوصا
الذكر اللساني ، بل المراد الطاعة بجميع أنواعها من صلاة
وصيام وصدقة ونصيحة وتلاوة القرآن وتسبيح وتحميد
وتهليل وغير ذلك ، فان المطيع انما أطاع الله لكونه ذكره بقلبه
أو بلسانه .

وغرضنا من تقديم هذين الحديث والاثار الى القراء أن
يعلموا أولا : أن معنى الذكر أوسع مما يتخيلون ، وأن بعض
من يعدونهم من العباد في غير الذاكرين هم في عرف الشرع من
الذاكرين .

وأن يعلموا ثانيا : أن ما عليه كثير من العوام من الاعتماد
على السبح (I) دون الطاعة هو غرور في غرور ، وان كثيرا

(1) كذا في الاصل ، ولعل الصواب : التسبيح .

ممن يعد نفسه ويعده الناس من الذاكرين هو في عرف الشرع من الغافلين .

فيا أيها المسلمون تثبتوا في الحقائق الشرعية واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة أو ممن قرب زمنه من زمنه ، ولا تعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعاداتكم ، فان الجهل بالسنة وخروج أمر العامة من يد العاملين بها مما ابتليت به الامة الاسلامية قديما .

(13) هل ينفع الذكر مع تعدى حدود الله ؟

عن أبي هند الدارمي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « قال الله : أذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، فمن ذكرني وهو مطيعٌ فحق علي أن أذكره بمغفرتي ، ومن ذكرني وهو لي هائصٌ فحق علي أن أذكره بمقت » . أخرجه الديلمي وابن عساكر ونقله السيوطي في الدر المنثور (I : 148) .

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه قيل له : رأيت قاتل النفس وشارب الخمر والزاني يذكر الله وقد قال الله : « فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » ؟ (اذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت) . أخرجه عبد الله بن حميد وابن أبي حاتم نقله في الدر المنثور (I : 149) .

تعليق :

ان في ذلك الحديث وهذا الاثر لذكرى لقوم يؤمنون ، كثيرا ما يعظ المسلم أخاه وينكر عليه تكاسله في الواجبات ونشاطه في المنهيات فيجيبه بقوله : ان الله غفور رحيم ، أو نحن أخذنا

الورد عن سيدى فلان ، ولد ضمن لمن يذكر ورده الجنة ، للامام
المسلمون ان ذكر الله على هاته الصفة ونحوها مما يوجب مقت
الله ولعنته . أيها المسلمون من وعظ منكم فليتمظ ، ومن نهى
منكر فلينته ، ومن أمر بمعروف فليأتمر « وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (1) .

(14) الحث على تعلّم القرآن :

عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله
عليه وآله وسلم - : (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) . أخرجه
البخارى فى كتاب فضائل القرآن .

تعليق :

قد تقاصرت هم المسلمين فى هذه المدة الاخيرة عن تعليم
القرآن وتعلمه ، فقل المحافظون له ، فعلى كل من نصب نفسه
لارشاد المسلمين فى دينهم أن يحثهم على العناية بحفظ كتاب
ربهم ، وعلى الكتاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي .
هذا يأتيه من ناحية فضيلة القرآن ، وذلك من ناحية اختيار
المعلمين وما هى الصفات المطلوبة فيهم ، والآخر من ناحية أسلوب
التعليم وما هو الاقرب الى التحصيل من أى الاساليب ، ورابع من
ناحية تحسين حال المعلمين وتوفير أجرتهم ، وكل من هذه
النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيرا فى
المجتمع وتكون رأيا عاما فى الموضوع . وحسبنا فى هذا الباب
باب الآثار والاخبار ما أرشدنا اليه . والحديث صريح فى فضل
من جمع بين تعلم القرآن وتعليمه لغيره وأنه خير من غيره ، وانما
ثبتت له هذه المزية لان المراد من متعلمه من حفظه وفهمه وعمل

(1) الصراط : السنة الاولى العدد 14 ، رمضان 1352 هـ ديسمبر 1933 م .

به ، والمراد من معلمه من يلقنه غيره ويفسره له ويرشده الى العمل به . واذا كان هذا النوع الممدوح فى الحديث المفضل على غيره بشهادة الصادق المصدق مفقودا من بيننا أو كالمفقود فالواجب علينا السعى فى تكوينه ، ولهذا دعونا الكتاب الى العناية بهذا الموضوع .

قال الحافظ ابن حجر فى بيان وجه خيرية معلم القرآن ومتعلمه : « ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدى ، ولهذا كان أفضل ، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . والدعا الى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن ، وهذا أشرف الجميع » . هذا كلام ابن حجر ، ثم أفاد أن ليس المراد بهذا الحديث من كان قارئاً أو مقرئاً محضاً لا يفهم شيئاً من معانى ما يقرأه أو يقرئه .

(15) الاعتصام بكتاب الله :

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : « أتانى جبريل فقال يا محمد أمتك مختلفة بعدك ، قال : فقلت له : فأين المخرج يا جبريل ؟ قال : فقال : فى كتاب الله ، به يقصم الله كل جبار ، من اعتصم به نجا ، ومن تركه هلك (مرتين) قول فصل ، وليس بالهزل ، لا تخلقه اللسان ، ولا تفى عجائبه ، فيه نبأ من كان قبلكم ، وفصل ما بينكم ، وخبر ما هو كائن بعدكم » . أخرجه الامام أحمد ، نقله الحافظ ابن كثير أوائل كتابه فضائل القرآن الذى ختم به تفسيره .

تعليق :

صدق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد وقع الاختلاف ، وقد دعونا الناس الى المخرج ، وهو كتاب الله ، وسنة رسوله المبينة له ، فقال المعاندون ما قالوا ، الا من كان يؤمن بان محمدا رسول الله فليمتثل ارشاده ، وقد أرشدنا الى المخرج من هذا الاختلاف ، فلنعمل بارشاده ، وهدانا الى طريق الحق عند الالتباس فلنهدى . وقد وصف الله كتابه بقوله : « هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » . فهو هدى بين واضح ، لا يلتبس على مريد الحق التماس الهدى منه . واذا كانت طباعنا العربية وسلائقنا فى فهم لسان العرب قد حالت وفسدت وصعب علينا أو تعذر فهم كلام ربنا ، فان فى تعلم اللغة العربية وعلومها ما يجعل لنا سلائق مكتسبة ، وان فيما كتبه أئمة التفسير قبلنا ما يجبر نقص السليقة الكسبية عن السليقة الفطرية .

وقد أوصل الجهل بكتاب الله بعض أدعياء العلم الى أن جعلوا الدعوة الى توحيد الله ونبذ ضروب الشرك طريقة خاصة بابن تيمية على معنى أنها بدعة حصلت بعد انعقاد الاجماع ، فمن سلك هذه الطريقة فقد عرض دينه للخطر ، ولو نظروا فى كتاب الله وتأملوه لوجدوا جل آياته دعوة الى التوحيد ونبذ الشرك .

واذا ذكرت لهم هذا قالوا : تلك آيات نزلت فى مشركى مكة ، فكيف تطبقونها على من يشهد الشهادتين ؟ وهذا نوع آخر من جهالاتهم وتلبيس ابليس عليهم ، فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد قال الله تعالى : « وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » . قال المفسرون : معناه من بلغه القرآن ، فتخصيص انذاره بمشركى مكة تعطيل للقرآن . قال الغزالي فى الاحياء : « وينبغى للتالى أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى

القرآن ، فان سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور ، وكذا ان سمع وعدا أو وعيدا ، وكذا ما يقف عليه من القصص فالمقصود به الاعتبار . قال تعالى : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ » . وقال تعالى : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » . وقال : « وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » قال محمد بن كعب القرظي : « من كلمه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل » اهـ كلام الغزالي (I) .

(16) مدح العامل بالقرآن

عن أبي موسى الاشعري - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأُتْرَاجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ . وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا . وَمِثْلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مَرٌّ . وَمِثْلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مَرٌّ وَرِيحُهَا مَرٌّ » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

* * *

تعليق :

جعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - طيب الطعم دائرا مع العمل ، وجعل طيب الرائحة صفة للتلاوة . والمجدى على المرء هو عمله . أما التلاوة وحدها فانها لا تجدى . فالمنافق يتلو القرآن ولكنه فى الدرك الاسفل من النار .

وقد دل الحديث على أن العمل بالقرآن درجتان (I) أعلاهما الجمع بين التلاوة والعمل . ودل على أن لمخالفة أوامره ونواهيه

(1) الصراط : السنة الاولى العدد 15 . رمضان 1352 هـ ديسمبر 1933 م .
(2) فى الاصل : والصواب (درجتان) .

دركت ادناهما الجمع بين الاغراض عن حفظه والاضراب عما
دعا اليه .

والعمل بالقرآن يقتضى فهم معانيه، وكذلك كان المخاطبون بهذا
الحديث، فان القرآن بلغتهم نزل. ولهذا لم يقل في الحديث: «المؤمن
الذى يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به» . لأن ذكر الفهم لأولئك
المخاطبين حشو ، تتحاشى عنه البلاغة النبوية فيا أيها القراء
المؤمنون تطلبوا معانى ما تقرأون ، واعملوا بما تفهمون ، كى
تكونوا أترجة ، ويا أيها المؤمنون الاميون ، اسألوا أهل الذكر
والعلم بكتاب ربكم وتحروا العمل بما دعاكم اليه كى تكونوا
ثمرة . وقد دلت مقابلة القارئ العامل بالقارئ المنافق على
تسمية من يخالف ما يقرأه منافقا ، والمنافقون فى الدرك الاسفل
من النار وهم أخس صنوف الكفار . ولكننا نجد من الناس من
لا يختلف فى ايمانه ثم هو يخالف ما يقرأه . وقد قال العلماء :
ان هذا النوع من المؤمنين يسمى نفاقهم نفاق عمل لا نفاق كفر،
ويسمون منافقين مجازا لان فيهم خصلة من خصالهم وهى المخالفة
للاوامر . فالقارئ ان لم يعمل بما يقرأه فهو منافق حقيقة أو
مجازا . أعاذنا الله واياكم من النفاق حقيقته ومجازه وجعلنا
ممن يتلو كتابه عالما بمعانيه عاملا بما يفهمه منه .

(17) ذم المباهي والمتعیش بالقرآن :

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى
الله عليه وآله وسلم - : « تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل
ان يتعلمه قوم يسألون به الدنيا . فان القرآن يتعلمه ثلاثة
نفر : رجل يباهى به ، ورجل يستأكل به ، ورجل يقرأه لله »
رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن ، وصححه الحاكم ، نقله
الحافظ فى فتح البارى (9 : 82) .

* * *

تعليق :

حديث أبى سعيد أخرجه الامام أحمد بلفظ آخر ، وفى آخره : « ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر » . وفسر الراوى عن أبى سعيد الفاجر بمن يتأكل بالقرآن . فقوله فى رواية أبى عبيد : (ورجل يستأكل به) بمعنى الفاجر فى رواية الامام أحمد . ويكون حينئذ قوله فى رواية أبى عبيد (رجل يباهى به) بمعنى قوله فى الرواية الاخرى : (ومنافق) . وقد دل الحديث على ذم المباهى بتلاوته . وكثيرا ما يقصد قراء زماننا المباهاة بأصواتهم والفخر بحفظهم ، ولا سيما اذا كانوا يتلون مجتمعين بصوت واحد ، فليحذر من يجد هذا من نفسه وليعلم أن كتاب الله هداية تخشع لها القلوب ، وتستسلم الجوارح . ودل أيضا على ذم المسترزق بالقرآن ، وكثير من قراء زماننا لا يقصدون من حفظه الا التوسل به للتلاوة على الموتى بأجرة ونحو ذلك من الاغراض الدنيوية المحضة . ولا يتناول هذا الذم من يأخذ الاجرة على تعليم القرآن اذا كانت فى مقابلة تعب ، وشغل وقته ، ولم يتخذ تعليمه صناعة من الصناعات المادية المحضة ، بل على هذا المعلم - ان أراد السلامة من ذلك الذم - أن يكون هو نفسه عاملا بكتاب الله ، وأن يقصد من تعليمه الدعوة الى العمل به .

(18) الغاية من قراءة القرآن :

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه كان يقول :
(أنزل عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتخذوا درسه عملا . ان أحدهم ليعلم القرآن من فاتحته الى خاتمته ، ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به) .

نقله الثعالبى فى تفسيره (1 : 9) .

* * *

تعليق :

ذم ابن مسعود من اتخذ تلاوة القرآن عملا . فكيف حال من أجر نفسه للتلاوة ، وباع عمله ذلك ؟

وللفقهاء خلاف في حصول الاجر لمن يقرأ القرآن من غير فهم ولا تأمل . وهذا اذا قصد التالى بتلاوته وجه الله تعالى ، لان الاخلاص شرط شرعى لترتيب الثواب الاخرى ، فهل هذا الذى يتلو القرآن من غير فهم بأجرة مخلص لله فى تلاوته حتى يختلف فى اثابته على التلاوة ؟ وقد فتحنا بابا للبحث فى موضوع « الفداوى » والبيب يكفيه ما اقتصرنا عليه (I) .

(19) معنى ليلة القدر

قال الشوكانى :

« قيل سميت ليلة القدر ، لان الله سبحانه وتعالى يقدر فيها ما شاء من أمره الى السنة القابلة ، وقيل : لعظيم قدرها وشرفها ، وقيل : لان للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال الخليل : لان الارض تضيق فيها بالملائكة كقوله تعالى :

« وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ - أَيْ ضَيْقُ »

تفسير الشوكانى (5 : 159) .

تعليق :

هذا كلام الشوكانى حذفنا منه كلمات قليلة لا تؤثر فى فهم الراى ، والاقوال الثلاثة ، الاول ذكره أيضا محيى السنة أبو محمد البغوى فى تفسيره .

(1) الصراط : السنة الاولى العدد 16 ، رمضان 1352 هـ جانفى 1934 م .

ولا أرى مانعا من صدق هذه الأقوال مجتمعة ،
فهى ليلة قدر بمعنى تقدير الارزاق والآجال
وغيرها ، لوقوع هذا التقدير فيها وهى ليلة قدر وشرف لنزول
القرآن فيها وللطاعات فيها قدر وفضل على الطاعات فى غيرها ،
وهى ليلة تكثر فيها الملائكة بالارض كثرة لا تكون فى غيرها
لقوله تعالى : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا » .

وعلى تفسير القدر بمعنى تقدير أمور الخلق
يقال كيف يتجدد هذا التقدير كل سنة وقدر
الله أزلى ؟ وقد نقل البغوى جواب هذا السؤال فى تفسيره فقال :
« قيل للحسن بن الفضل : أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق
السموات والارض ؟ قال : نعم . قيل فما معنى ليلة القدر ؟
قال : سوق المقادير التى خلقها الى المواقيت تنفيذا للقضاء
المقدر » . وقد استبان من هذا أن الليلة التى تقدر فيها أمور
الخلق ، هى الليلة التى قال الله فيها : « خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » .
وسماها فى آية الدخان مباركة ، اذ قال : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
مُبَارَكَةٍ » . فليلة القدر والليلة المباركة اسمان لليلة واحدة ،
وهى ليلة انزال القرآن . وهذه الليلة فى رمضان ، لقوله تعالى :
« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » . وليست فى شعبان كما
يظنه العوام الذين يفرقون بين ليلة القدر والليلة المباركة ،
ويعتقدون اعتقادا مخالفا للقرآن ، ان الليلة المباركة ليلة
النصف من شعبان ، وبعض العوام يسمون ليلة النصف من
شعبان « ليلة قسام الارزاق » ولهم فى هذه الليلة خرافات
يبنونها على أساس الجهالات ، وغرضنا من هذا التنبيه ، ارشاد
المسلمين الى معرفة هذه الليلة معرفة صحيحة كما نطق الكتاب
الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبهذه المعرفة
على هذا الوجه ، تتطهر عقولهم من خرافات وتزول عنهم جهالات .

(20) معنى خيرية ليلة القدر

عن أنس قال: «العملُ في ليلةِ القدرِ والصدقةُ والصَّلاةُ والزكاةُ أفضلُ من ألفِ شهرٍ». أخرجه عبد الله بن حميد ، نقله في الدر المنثور (6 : 370) .

* * *

تعليق :

بين هذا الاثر - وفي معناه آثار كثيرة - أن خيرية ليلة القدر راجعة الى تفضيل الطاعة فيها والعمل الصالح على غيرها من الليالي والايام . وهذا يفيد أن المسلم الذي يتطلب ليلة القدر إنما يتطلبها ليعمل فيها صالحا ويجد في العبادة، فالؤمن إنما يطلبها للدين لا للدنيا . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

(21) الدعاء ليلة القدر :

عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : يا رسول الله ، ان وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : قولى : « اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني » . رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم ، نقله ابن كثير فى تفسيره (9 : 261) .

* * *

تعليق :

ليلة القدر من أوقات الاستجابة ، فينبغى للمؤمن أن يكثر فيها من الدعاء ، ولهذا سألت عائشة - رضى الله عنها - عن صيغة تدعو بها تلك الليلة ، وقد بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لزوجه الكريمة عليه صيغة الدعاء - فيتعين أن يكرر المسلم هذا الدعاء ليلة القدر ، وأن يفضل على ما

سواه ، لانه لفظ الفضل المخلق الذى علمه لاحب زوجاته . ثم هذا يؤكد ما قدمناه من ان ليلة القدر تراد للدين لا للدنيا ، وكثير من العوام يتمنى لو يعلم ليلة القدر ليطلب بها دنياه ، فليتب الى الله ، من وقع له هذا المخاطر السيء . فان الله يقول فى كتابه العزيز : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ » . وكثير من العوام يعتقدون فى بعض البيوتات الغنية ان مؤسس ذلك البيت رأى ليلة القدر ، فسأل الله أن يجعل ماله ونسله خيرا من مال الناس ونسلهم ، فكان ذلك . ثم يجعلون هذه الميزة الدنيوية دليلا على ولاية ذلك الداعى وصلاح ذريته . وحديث عائشة - رضى الله عنها - وآية « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ » وما فى معنى ذلك من الآيات والآثار شاهدة بفساد ذلك الاعتقاد ، وضلال تلك الافكار ، وأن الفرق بين التقى والفاجر هو الاقبال على الآخرة أو الاقبال على الدنيا . ولسنا ننكر على من يطلب الدنيا بأسبابها التى جعلها الله تعالى . وانما ننكر على من يكون همه الدنيا دون الآخرة حتى أنه يترصد ليلة القدر ليطلب فيها الدنيا غافلا عن الآخرة . ثم يعتقد أن من نال ثروة دنيوية بغير أسباب ظاهرة لديه ، فانما ذلك لولايته ودعائه ليلة القدر .

(22) علامات ليلة القدر

عن ابن عباس : أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال فى ليلة القدر : « ليلةٌ سَمْعَةٌ طَلْقَةٌ ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفةً حمراءً » . أخرجه أبو داود الطياليسى ، ونقله ابن كثير (9 : 257) .

* * *

تعليق :

الاحاديث فى تعيين ليلة القدر كثيرة متضاربة ، والصحيح أنها فى رمضان . والراجع أنها فى العشر الاواخر منه .

وهذه العلامات التى ذكرها الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ليلة القدر ليس فيها أن السماء تنشق وأنه يظهر فيها ألوان من نور ، كل نور له لون خاص ، الى غير ذلك من خرافات العوام . وان مما يؤسف المؤمن أن الاوقات المفضلة فى ديننا قد غمرناها بالخرافات ، وصرفنا أنفسنا عما يراد فيها من الطاعات ، فحرمتنا من خير كثير ، وقلما تجد وليا صالحا ، أو وقتا فاضلا ، الا وهو محاط بخرافات تعين ابليس على ابراز قسمه فى الاغراء ، وتقف حجر عثرة أمام الداعى المرشد الى الصراط المستقيم . وان مما يؤسف المؤمن ان هذا الشهر ، شهر رمضان الذى جمع الله لنا فيه بين الصيام والقيام ، وأودع فيه أفضل ليالى العام يقطعه أكثرنا فى اللهو والقمار ، والنوم والشجار .

أيها المسلمون: طهروا عقولكم من الخرافات، ونوروا قلوبكم بالطاعات ، وانتهزوا فرصة الاوقات المفضلات ، ولا تهملوها فتعود عليكم بالحسرات. اللهم صل وسلم على من أنزلت عليه : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (1) .

(1) الصراط : السنة الاولى العدد 17 ، رمضان 1352 هـ جانفى 1934 م .

موضوعات متصلة بالسنة

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 1 -

مكانتها - ثمرتها - القسم العلمي - معناها لغة - معناها
شرعا - مزية لفظها - من تكون منه - من تكون عليه - نفى
الاشتراك عنها - تفسيرها باللازم .

تمهيد :

الصلاة على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من أصول
الاذكار في الاسلام ومن أعظمها . فان الله تعالى أمر بها المؤمنين
على أبلغ أسلوب في التأكيد ، وأكمل وجه في الترغيب ، وجعلها
من الاذكار اليومية المتكررة في الصلوات ، وهي ذكر لسانی
بتلاوة لفظها ، وقلبي بتدبر معانيها ، ومثمرة لرسوخ الايمان
وشدة المحبة وتمام التعظيم له صلى الله عليه وآله وسلم المثمرین
لاتباعه ، المحصل لمحبة الله عبده . وتلك غاية سعادة المخلوق
ونهاية كماله .

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

فمما يتأكد على كل مسلم أن يكون على شيء من العلم بهذا الكنز العظيم . وسنأتي من ذلك بما يفتح الله تعالى به في هذا المقال .

القسم العلمي :

الصلاة في لسان العرب قبل الاسلام وردت بمعنى الدعاء .

قال الاعشى :

وصهباء (I) طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم
وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتسم
قال صاحب اللسان : دعا لها أن تحمض ولا تفسد .

وقال الاعشى أيضا :

عليك مثل الذي صليت فاغتمصني

نوما فان لجنب المرء مضطجعا .

أى دعوت . فالدعاء هو معناها اللغوى الاصلى وعليه جاءت كلمات كثيرة في الكتاب والسنة فمنها « وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ »
أى دعواته « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ » أى أدع لهم وحديث (اذا دعي أحدكم لطعام فليجب فان كان مفطرا فليطعم وان كان صائما فليصل)
أى فليدع لأرباب الطعام و (الصلوات لله) أى الادعية التى يراد بها تعظيم الله هو مستحقها لا تليق بأحد سواه كما فى (اللسان) .

جاءت هذه الكلمات وأمثالها على المعنى اللغوى الاصلى . وجاء مثل قوله تعالى : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » .

(1) الصهباء : الخمر سميت بذلك للونها ، واللون الاصهب الذى يخالط باضه حمرة .

قوله - ص - (لا صلاة لجار المسجد في غير المسجد) . مراداً به عبادة مخصوصة ذات أقوال وأفعال وترك على هيئة خاصة من جملة اجزائها الدعاء . ولا شك أن إطلاقها على هذا المعنى إنما هو إطلاق شرعي ولكنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، فإنه من باب تسمية الشيء باسم جزئه ، فإطلاق هذا اللفظ على هذه العبادة المخصوصة حقيقة شرعية، مجاز لغوي، وليس هذا هو مرادنا هنا .

وقد كان الظاهر لما كانت بمعنى الدعاء أن تتعدى باللام ولكنها تعدت بعلى لما فيها من معنى العطف ، فصلى عليه يؤدي معنى قولنا : دعا له عاطفاً عليه وهذا هو السر في اختيار لفظها على لفظه لتؤدي المعنيين : الدعاء والعطف . وإن كان لفظ الدعاء يقتضي عطفاً فذلك بطريق الاستلزام وهو دون دلالة التضمن .

تكون هذه الصلاة من المخلوق على المخلوق ومن الخالق على المخلوق . فمن الأول صلاة النبي - ص - على المؤمنين كما في آيتي سورة التوبة المتقدمتين ومنها قوله - ص - اللهم صل على آل أبي أوفى فقد دعا لهم وسأل الله تعالى أن يصلي عليهم .

وصلاته على نفسه في تشهده في الصلاة . ومنه صلاة الملائكة على النبي - ص - كما في آية الصلاة من سورة الاحزاب ، وصلاتهم على المؤمنين كما في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » ، ويفسر هذه الآية قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » ، وهذا منهم دعاء عام ، وقوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » ، وهذا دعاء خاص . وكما في حديث من صلى على صلاة صلت عليه الملائكة عشراً ، وحديث (إذا صلى أحدكم ثم جلس في مصلاه لم تنزل الملائكة تصلي عليه، اللهم اغفر له اللهم أرحمه)

ومنه صلاة المؤمنين على النبي - ص - وعلى الانبياء وعلى
الملائكة وعلى عامة المؤمنين بطريق التبع فهي سؤالهم من الله
تعالى ودعائهم اياه أن يصلى على نبيه ومن ذكر قبل معه ، فهذه
كلها من القسم الاول وهو صلاة المخلوق على المخلوق وكلها لم
تخرج عن معنى الدعاء .

وأما القسم الثانى وهو صلاة الخالق على المخلوق فمنها
صلاته على المؤمنين فى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ
وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا »
وصلاته على الصابرين فى قوله تعالى : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » . وعلى نبيه محمد (ص)
فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

قد تنوعت عبارات العلماء سلفا وخلفا فى تفسير صلاته
تعالى على من ذكر من خلقه ففسرت بالرحمة - والجمع فى قوله
« صَلَوَاتٌ » باعتبار أنواع آثارها ومواقعها ، وقوله بعدها
« وَرَحْمَةٌ » نوع منها خاص - وفسرت بالمغفرة ، وفسرت
بثنائه عند ملائكته على المصلى عليه - من باب ذكرته فى ملاخير
منه - وفسرت باعطائه واحسانه ، وفسرت بتعظيمه ، ولا خلاف
فى الحقيقة بين هذه التفاسير فان مغفرته من رحمته وان ثنائه
من رحمته وان اعطائه واحسانه من رحمته وان تعظيمه من
رحمته ، فرجعت كلها الى تفسيرها بالرحمة .

لو قلنا بعد هذا ان الصلاة لها معنيان الدعاء والرحمة لكانت
من باب المشترك ، والاشتراك خلاف الاصل ، فلذا نقول - كما
قال جماعة من المحققين - ان الصلاة معناها واحد وهو الدعاء
فاما من المخلوق فبدعائه الخالق وهو ظاهر ، واما من الخالق

فبدعائه ذاته لإيصال الخير والنعمة للمصلى عليه على تفاوت
المراتب ، ومن لازم هذا رحمته له بالمغفرة والثناء والتعظيم
وأنواع العطاء والاحسان ، فالذين فسروا الصلاة من الله
بالرحمة فسروها باللازم ، والذين فسروا بغير الرحمة فسروا
بمقتضيات ذلك اللازم فلها اذن معنى واحد وهو الدعاء ولكنه
يحمل في كل واحد من الجانبين على ما يليق به (I) .

(1) ش : ج 5 ، م 5 - غرة محرم 1348 هـ - جوان 1929 م .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 2 -

تاريخ مشروعيها - آية مشروعيها - شيء من تفسير الآية .

الصلاة على النبي - ص - من أذكار الصلاة ولكنها لم
تشرع يوم شرعت الصلاة بمكة بل كانت مشروعيها بعد بضع
سنوات من الهجرة ، وذلك يوم نزلت آية الأمر بها من سورة
الأحزاب وهي سورة مدنية ، ففي الترمذى وغيره - عن كعب
ابن عجرة - لما نزلت **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ** الآية قلنا يا رسول الله
لقد علمنا السلام فكيف الصلاة (فعلمهم حينئذ كيفيتها كما
سألت بيانه .

قوله تعالى : **« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا »** - هو آية الأمر
بالصلاة على ابلغ أسلوب في التأكيد وأكمل وجه في الترغيب
لمن التأكيد للأمر التوطئة له بجملتين : الجملة الاسمية المصدرة
بمعرف التأكيد ، والجملة الفعلية الندائية ، ومن أعظم الترغيب
في امتثال هذا الأمر جعل امتثاله اقتداء بالله وملائكته .

وفى صفات الملائكة عليه تعالى تلبية على ثمرة الامتنان
والاقتداء وهى نيل اشرف المنازل العليا - فان الملائكة - عليهم
السلام بامثالهم امر ربهم واقتدائهم به - جل اسمه فى الصلاة
على اكرم خلقه صلى الله عليه وآله وسلم نالوا شرف اقتران
اسمهم باسمه ، وفى هذا ووراءه من الشرف والسعادة ما فيه .
وقوله تعالى : « يُصَلُّونَ » على معناه اللغوى الاصلى وهو الدعاء .
غير ان الملائكة يدعون ربهم له صلى الله عليه وآله وسلم ، والله
تعالى يدعو نفسه ، والمراد - وتذكر ما قدمنا - لازم ذلك وهو
انعامه الخاص الذى يرضاه لاكم خلقه ، وتقصر عقولنا عن
الاحاطة به ، وقد عبر الناس عنه بعبارات نقلنا بعضها فى
القسم الاول .

وفى صيغة الفعل المضارع دليل على تجدد هذه الصلاة ،
فالملائكة - س - لا يفتؤون يصلون ويدعون ، والله تعالى - لا
تنقطع انعاماته على هذا النبى الكريم وهو (ص) بتلك الانعامات
الربانية لا يزال أبدا مترقيا فى درجات الكمال ، ويؤيد هذا
عموم قوله - تعالى - : « وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » ، وفى هذا
ترغيب للمؤمنين فى مداومة الصلاة عليه حسب الجهد والطاقة
فى الصلاة وغيرها .

وقيل هنا « عَلَى النَّبِيِّ » ولم يقل على الرسول وهو - ص -
نبى ورسول ، ذلك لان الرسول هو المبعوث لاداء الرسالة من
الخالق الى الخلق ، فالجانب الاول الاساسى لمعناه يرجع الى معنى
التلقى والاخذ عن الذى أرسله ، والنبى هو المخبر المبلغ
للمرسالة الى الخلق من الخالق ، والجانب الاول الاساسى لمعناه
يرجع الى معنى اعلام الخلق وارشادهم وهدايتهم بما جاء به
من عند خالقهم . فاختر اسم النبى هنا على اسم الرسول لوجهين :

الاول - التنبيه على أنه قام بأعباء الرسالة وبلغ الامانة ونصح الخلق ونفعهم فجزاه الله على هذا العمل العظيم بهذا الجزاء العظيم ، وكما كان هو - ص - معلنا بتوحيد الله وتسبيحه وتقديسه وحمده أمام العالم بأسره ، كذلك أعلن الله فضله ومكانته بصلاته عليه أمام جميع خلقه ، وفي هذا تنبيه للمؤمنين على عظم الجزاء عند عظم العمل ، وعلى اعلاؤه - تعالى - شأن العاملين على اعلاء كلمته على قدر جهادهم في سبيله واخلاصهم في ابتغاء مرضاته .

الثاني : - أنه بذلك التبليغ قد جلب للمؤمنين اعظم النفع وأكمل الخير وهو سعادة الايمان في العاجل والآجل . فمن بعض حقه عليهم أن يقوموا - لتعظيمه وتكريمه - بالصلاة عليه . فتكون صلاتهم عليه - وهي سبب أجر عظيم ونفع كبير لهم كالجزاء لعظيم احسانه والاعتراف بجزيل جميله .

فاسم « النبي » بهذين الوجهين - انسب بالمقام ، وادخل في التأكيد والترغيب ، ولهذا اختير .

وقوله - تعالى - : « وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » امر ثان معطوف على الامر الاول ، فيفيد النسق طلب الجمع بين مدلوليهما في الامتثال ، ولذا كره العلماء افراد الصلاة عن السلام .

وسلم يأتي بمعنى الانقياد ويتعدى بالسلام ومنه قوله - تعالى - : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ويأتي بمعنى قال له السلام عليكم ، ويتعدى بمعنى ومنه قوله - تعالى - : « فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً » ، ومنه هنا « وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » أي حيوه بتحية الاسلام . وقد ثبت عن الصحابة - ض - أنهم لما

سألوه عن كيفية الصلاة قالوا له : السلام قد علمناه فبين لهم كيفيتها ، وقال لهم والسلام كما قد علمتم ، وقد كان علمهم كيفية السلام فى التشهد وهى « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » كما فى حديث ابن مسعود الثابت فى الصحيح . وبعد هذا لا يبقى وجه لتجويز حمل التسليم هنا على معنى الانقياد كما زعمه الجصاص وغيره ، وبالله من الجرى وراء الاحتمالات والغفلة عن التفسير النبوى الصحيح الثابت المأثور .

وقوله - تعالى - : « تسليما » مصدر مؤكد . والتأكيد بالمصدر يكون لرفع احتمال المجاز كما فى « قتلته قتلا » دفعا لتوهم المجاز عن الضرب الشديد ، ويكون لتثبيت معنى الفعل من جهة الحدث ببيان أنه فرد كامل من نوعه لا نقص فيه كما فى « اكرمت زيدا اكراما » بمعنى أن الذى كان منك له هو اكرام لا شبهة فيه ، والتأكيد هنا من هذا النوع ، فان المسلّم على النبى (ص) لا يكمل سلامه الا اذا طابق قلبه لسانه وجرى على مقتضاهما عمله ، فلم تكن منه للنبى - ص - الا السلامة فى دينه وكتابه وأمته ، وهذا هو الذى يقال فيه أنه سلم تسليما .

ونظير هذا ما فى الآية الاخرى : « وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فيكون منهم الانقياد التام لحكمه فى الظاهر والباطن بلا ادنى شبهة فى العقل ولا أدنى حزازة فى القلب ولا أدنى توقف فى العمل .

فقد أمرنا فى الآيتين بالتسليم الكامل بمعنييه ، ليكون هو الغاية التى نرمى اليها ونسعى فى تحصيلها ، حتى اذا أخطأنا مرة أصبنا مرات ، واذا انحرفنا رجعنا الى الجادة من قريب ، ومن داوم على القصد أعين على الوصول « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

ومن لازم التوبة اتحف بالقبول « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ
وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » ، وفي قول المربي الأكبر - عليه - وآله
الصلاة والسلام (استقيموا ولن تحصوا) وقوله : (سدّدوا
وقاربوا) جماع السلوك الاسلامي كله الى غايات الكمال والله
المستعان (I) .

(1) بش : ج 6 ، م 5 - غرة صفر 1348 هـ - جوليت 1929 م .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 3 -

توقف الصحابة (ض) - وجوه توقفهم - سؤا لهم - أولا من
سأل منهم - مما يستفاد من هديهم فى هذا المقام - لزوم
الاقتداء بهم - حديث بيان الكيفية - رواته - ألفاظه - الجمع
بينها - الاقتصار على الصحيح من الروايات - كلام الحافظ
ابن العمادى .

لما سمع الصحابة - رضى الله عنهم - الامر بالصلاة على
النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الآية المتقدمة فهموا أنهم
أمرؤا بالدعاء له لان الدعاء هو معنى الصلاة لغة كما قدمنا .
وانما الذى اشكل عليهم هو كيفية هذا الدعاء ووجه هذا
الاشكال أمور :

الاول : علمهم بكمال حال النبي - ص - ورفعة مقامه عند
ربه وجزيل انعامه لديه ، فلم يدروا ما هو النوع الاكمل من
الانعام اللائق بمنصبه الرفيع ليدعوا له به .

الثانى : أن ألفاظ الدعاء كثيرة ، وصفاتها مختلفة فما هو
أنسبها بمقامه الشريف ؟

الثالث : ان الصلاة عليه - ص - أمر تعبدى ، والمبادات لا سبيل اليها الا التوقيف ، وأكد لهم هذا أن الصلاة قد قرنت بالسلام وقد تقدم لهم التوقيف فى السلام فتوقعوا مثله فى الصلاة .

فلما اشكل عليهم الامر طلبوا منه - ص - البيان . ففى الترمذى عن كعب بن عجرة (لما نزلت : ان الله وملائكته الآية قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام فكيف الصلاة) وقوله : « لما » يفيد أن سؤالهم كان عند النزول ، وقوله : « قلنا » يفيد أن السؤال كان من جميعهم ولو كان السائل المتكلم واحدا فانه يتكلم بلسان الجميع لانهم له موافقون ، ومثل هذا قول أبى حميد (انهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك) وقول أبى سعيد : (قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلى) وأول من سأله فيما أرى ، بشير بن سعد الانصارى لانه لما سأل (ص) كيف نصلى عليك) سكت ثم اجابه بالبيان . والظاهر ان سكوته كان لانتظار الوحي اليه . فلما أوحى اليه بالبيان بين . وجاء البيان متأخرا عن نزول الآية واقعا بعد سؤالهم لانه من البيان التفسيرى وجائز تأخره على الصحيح وهذا من امثلته .

وهنا نكت من هدى الصحابة - رضوان الله عليهم - فى هذا المقام ينبغى التنبه لها والتدبر فيها . فمنها شدة تعظيمهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمام تحريمهم فى اجلال ذكره واحترام كل ما يتصل بجنابه . ومنها حرصهم على الاتيان بعين ما يختاره الله لهم ويرضاه منهم من اللفظ الاكمل الافضل الذى يتقربون به اليه فى تعظيم حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وآله وسلم . ومنها شدة تحريمهم لدينهم بتوقفهم فيما كان عندهم محتملا ، ولم يقطعوا فيه بشيء . ومنها شدة عنايتهم بالعلم

فادروا الى طلب البيان . ومنها وقوفهم في باب العبادة عند التوقيف، لانه لا مجال فيها للرأي ولا مدخل فيها للقياس .

كل هذا من هديهم - رضوان الله عليهم - حق على المسلمين ان يتدبروه ويتبعوهم فيه وينظروا في أمورهم ما هو منها موافق لهديهم أو قريب منه وما هو مباين له بعيد عنه ، فلا وربك لا يكون الخير الا في موافقتهم ولا غيره الا في مخالفتهم . وكل امرئ - بعد هذا - بنفسه بصير .

عدنا الى حديث بيان كيفية الصلاة . ونقتصر من متونه على الصحيح الثابت المتفق عليه مما في الموطأ والصحيحين .

وقد جاء فيها عن أربعة من الصعابة - ض - :

الاول : أبو حميد الساعدي عند الثلاثة ، والشيخان خرجاه عنه من طريق مالك . قال - ض - انهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال قولوا : اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ اِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ اِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ (وفي رواية مسلم (وعلى أزواجه) بزيادة (على) في الموضعين .

الثاني : أبو مسعود الانصاري في الموطأ وصحيح مسلم ، ومن طريق مالك رواه مسلم قال - ض - : اتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير ابن سعد (ابن ثعلبة) أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال فسكت رسول الله - ض - حتى تمنينا انه لم يسأله (لانهم كانوا يكرهون كل ما يروونه أنه يكرهه أو يشق عليه) ثم قال قولوا : اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ اِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ اِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ . والسلام

كما قد علمتم) وفى بعض روايات الموطا (كما صلى ، صلى
إبراهيم) و (كما باركت على إبراهيم) بدون لفظ (ال) فى
الموضعين وفى بعضها بدونها فى الأول .

الثالث : كعب بن عجرة فى الصحيحين قال - ض - سألنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة
عليكم أهل البيت فان الله قد علمنا كيف نسلم ، قال قولوا : اللَّهُمَّ
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى
آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ
كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) ،
هكذا أخرجه البخارى فى أحاديث الانبياء من كتاب بدئى
الخلق . وأخرجه فى سورة الاحزاب من كتاب التفسير وفى كتاب
الدعوات هكذا : (كما صليت على آل إبراهيم) و (كما باركت
على آل إبراهيم) بدون (على إبراهيم) فى الموضعين وعلى هذا
الوجه أخرجه مسلم .

الرابع : أبو سعيد الخدرى عند البخارى فى أحاديث الانبياء
والتفسير قال - ض - : (قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك
فكيف نصلى : - قال قولوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ
كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ . وفى رواية أخرى للبخارى
(كما صليت على آل إبراهيم) بزيادة لفظة (آل) وليس
فى آخرها وعلى آل إبراهيم .

وهذه المتون الصحيحة كلها قد اتفقت ، واختلفت ، اتفقت
فى عمود الكلام وصلب المعنى ومعظم الكلمات ، واختلفت فى
كلمات قليلة . فمنها لفظة على كما فى حديث أبى حميد وهى
كلمة ذكرها كحذفها من جهة المعنى لان حرف العطف مفعن عنها ،
فقد تكون فى الاصل واسقطها الراوى نسيانا واختصارا ، وقد

لا تكون وزادها من زادها نسيانا أو بيانا ، ومنها لفظة الآل
في حديث أبي مسعود فهي ثابتة في رواية من اثبتها وتحتمل
السقوط على وجه النسيان في رواية من اسقطها ، ويحتمل
أنه كذلك سمع بدونها ، وإن النبي - ص - مرة ذكرها ومرة
حذفها . ومنها زيادة عبدك ورسولك في حديث أبي سعيد
وزيادة في العالمين في حديث أبي مسعود وذكر الأزواج والذرية
بدل الآل في حديث أبي حميد ، والظاهر في هذه أن النبي (ص)
تنوع بيانه في المقامات فاختلفت الروايات وهي مختلفة غير
متناقضة فتفيد المعاني المتغايرة غير المتضاربة وهي بهذا
نظير اختلاف القراءات في صحيح الروايات .

هذا الذي ذكرناه من الروايات هو الصحيح المتفق على صحته
وثبوته ، ووراءها روايات ليست في درجتها رأينا الاكتفاء
بالصحيح عنها . وقد قال الإمام الحافظ بن العربي في تفسير
سورة الأحزاب من أحكامه بعد ما ذكر ثمانى روايات - :
(من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما روى مالك
(حديث أبي حميد وحديث أبي مسعود فاعتمدوه) . ورواية
من روى غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها (غير
الرحمة) لا يقوى . وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم
نظرهم في أموالهم وهم لا يأخذون في البيع دينارا معيبا وإنما
يختارون السالم الطيب ، كذلك في الدين لا يؤخذ من الروايات
عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح سنده لئلا يدخل في
خبر الكذب على النبي - ص - . فبينما هو يطلب الفضل إذا به
قد أصاب النقص بل ربما أصاب الخسران المبين (I) .

(1) ش : ج 7 ، م 5 - غرة ربيع الاول 1348 هـ - أوت 1929 م

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 4 -

صيغ الصلاة الثانية :

تفسير الصيغ : لفظ البركة - الأزواج - الذرية - الآل ،
معناه اشتقاقه - موارد استعماله - توجيه الخلاف في تفسيره
الراجح منها - آل إبراهيم - تفسيره ، دخول إبراهيم فيه -
توجيه ذلك .

قد حصل لنا مما تقدم في روايات حديث بيان الصلاة أربع
صيغ لها .

الاولى :

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ
إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ) .

الثانية :

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ) .

الثالثة :

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ . اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ) .

الرابعة :

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ) .

فأما الصلاة المطلوبة من الله تعالى في جميع هذه الصيغ فهي مغفرته وثنائؤه وتعظيمه وإحسانه واعطاؤه وكلها ترجع الى رحمته كما تقدم .

وأما البركة المطلوبة في جميعها أيضا فهي - لغة - النماء والزيادة . والمقصود هنا زيادة الخير والكرامة وتكثير الأجر والمثوبة . وفسرت بدوام ذلك وثباته لان أصل مادة - ب ر ك يدل على الثبوت ومنها بروت الابل وثبوتها على الارض وقد يعتبر في الشيء الثابت قوته وزكاوة أصله فيستلزم ذلك كثرته ونماؤه وعلى هذا الاعتبار جاء لفظ البرك (كحبل) اسما للابل الكثيرة في قول متمم بن نويرة :

إذا شارف منهن قامت ورجعت

حينئذ فابكى شجوها البرك أجمعا

فتفسيرها بالنماء والزيادة ما خوذ فيه ثباتها ورسوخها
فلا يكون خارجا عن المعنى الاصلى للمادة .

واما أزواجه فى الصيغة الاولى فهن امهات المؤمنين الطيبات،
الطاهرات، عليهن الرضوان ، وأما ذريته فيها أيضا فهم من كان
للنبي - ص - ولادة عليه من ولده وولد ولده ممن آمن به .

وأما آل فى جميعها فهو - لفة - أهل الرجل وعياله، وهو
أيضا الاتباع، ومن الاول قوله - ص - «إن الصدقة لا تحل لآل
محمد إنما هي أوساخ الناس»، ولا خلاف أن المراد بالآل هنا
ذوو قرابته من بنى هاشم والمطلب أو من بنى هاشم فقط أو
من بنى قصي أو قریش كلها على اختلاف بين الفقهاء فى تحديد
القرابة المرادة . ومن الثانى قوله تعالى : « أَذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ » ، والمراد هنا اتباعه فى ملته وملكه وسلطانه .

ومنه قول الاعشى :

فكذبوها بما قالت فصبحهم

ذو آل حسان يزجى السم والسلما

قال فى اللسان يعنى جيش تبع ،

وفسر هنا بجميع أمته ممن آمن به ، واليه ذهب مالك . قال
النووى وهو اختيار الازهرى وغيره من المحققين .

وفسر بقرابته ، وفسر بأهل بيته صلى الله عليه وسلم
أزواجه وذريته ، وتحقيق هذه المسألة ان لفظة (آل) أصله

أول ، من مادة - أ - و - ل . وقد ثبت تصغيره على أويل فرد
التصغير ألفه الى الواو أصلها فعرفت بذلك مادته المذكورة .

وزعم بعضهم ان أصله أهل وادعوا انه صغر على أهيل ولا
حجة لهم في ذلك لاننا نسلم مجيء لفظ أهيل عن العرب ونمنع
أن يكون تصغير لآل بل هو تصغير لاهل . وكونه تصغير لاهل
ظاهر ملفوظ وكونه تصغير الآل دعوى لا دليل عليها ، وما كان
في نفسه دعوة بلا دليل لا يصلح أن يكون دليلا لدعوى أخرى
فلم يقم حينئذ دليل على أن آل أصله أهل يعارض الدليل الذي
قام على ان أصله أول .

واذا ثبت ان آل من مادة أ - و - ل ، وهى بمعنى الرجوع ،
تقول آل الى خير بمعنى رجع الى خير - فال الشئ هو ما يرجع
الى ذلك الشئ وينتهى اليه بوجه من الوجوه .
وعلى هذا جاء استعماله فى كلام العرب .

قال الفرزدق :

نجوت ولم يمنن عليك طلاقة
سوى ربة التقريب من آل اعوجا

عنى فرسا من نسل اعوج وهو فعل مشهور فى خيل العرب
تنسب اليه الاعوجيات فناله نسله لانه يرجع اليه بالنسب .

وقال عبد المطلب بن هاشم - فى قصة ابرهة الحبشى لما جاء
لهدم البيت داعيا ومستنصرا الله على ابرهة وجنده :

لا هم ان العبد يم	نع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهن	ومحالهم غدوا محالك
وانصر على آل الصلي	ب وعابديه اليوم آلك

قال الصليب هم العبشة النصارى عباد الصليب فرجعوا اليه
بوجه العبادة والتعظيم .

وآل الله هم قريش سدنة بيته وقطان حرمه وأواة حجيجه
فرجعوا الى الله تعالى بهذه الاسباب .

فأتباعه - ص - وأقاربه وأزواجه وذريته - كل يصدق
عليه آل لانهم كلهم يرجعون اليه .

وانما الخلاف فى ترجيح المعنى الذى ينبغى حمل اللفظ
عليه .

فى احاديث الصلاة ، فمن فسرہ بالازواج والذرية قال لانهم
هم المصرح بهم فى الرواية الاولى فحمل احدى الروايتين على
الاخرى .

ومن فسرہ بالاقارب حمل حديث الصلاة على حديث تحريم
الصدقة . والآل هنالك بمعنى الاقارب فلا خلاف . فرجيع
بالمختلف فيه الى المتفق عليه .

ومن فسرہ بالاتباع رأى ان اتباعه بالإيمان به أمر لا بد منه
فى الدخول تحت لفظ الآل هنا ، فان من كان من اقاربه غير
متبع له - كأبى لهب - غير داخل فى لفظ الآل هنا قطعاً . فحمل
اللفظ على الاتباع لانه المعنى المشتمل على الوصف الذى لا بد منه
فى هذا المقام . ورأى أيضاً أن هذا المعنى أعم فهو الانسب
بمقام الدعاء وكما ان مساق حديث الصدقة عين معنى الاقارب
هنالك كذلك مقام الدعاء يرجح معنى الاتباع هنا . ولا معارضة
بين الروايات التى فيها لفظ الآل مراداً به الاتباع ، والرواية
التى فيها الازواج والذرية ، لان تلك جاءت بالمعنى العام وهذه
خصصت بالذكر نوعاً من ذلك العام لمزية فيه .

فازواجه وذريته - رضوان الله تعالى عليهم - مصلى عليهم
فى اللفظ العام على وجه العموم ، وباللفظ الخاص على وجه
الخصوص لما لهم من مزيد الاختصاص . ولهذه الأدلة نرى هذا
التفسير أرجحها .

وأما آل ابراهيم فقد قال قوم هم ذريته ، وقال ابن عباس
رضى الله عنه هم اتباعه على ملته . ونزع بقوله تعالى :
« إِنْ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ كَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ » واقتصر على قوله
ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية من تفسيره الكبير .

فابن عباس فى تفسيره آل بالاتباع هو سلف مالك فى
تفسيره له بذلك . وابن جرير فى ترجيحه لقوله هو سلفنا فى
الترجيح .

قال الامام ابن عبد البر : (آل ابراهيم يدخل فيه ابراهيم
وآل محمد يدخل فيه محمد) . ومن هنا جاءت الآثار مرة
بابراهيم ومرة بآل ابراهيم وربما جاء ذلك فى حديث واحد .
ومعلوم ان قوله تعالى : « ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ،
ان فرعون داخل فيهم) .

وهذا من طريق مفهوم الاضافة الاخرى لان المضاف اذا
تعلق به حكم بعله الاضافة فالمضاف اليه اخرى بذلك الحكم
وأولى كما تقول : ما ثبت للتابع بعله التابعة فالمتبوع اخرى
به وأولى ، فاذا كان آل ابراهيم مصطفى ومصلى عليهم لانهم
آله أى اتباعه - فهو مصطفى ومصلى عليه الاخرى للوجه الذى
ذكرنا (I) .

(1) ش : ج 8 ، م 5 - غرة ربيع الثانى 1348 هـ - سبتمبر 1929 م .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 5 -

معنى العبد فى اللغة - استعماله فيها - ما اقره الاسلام
وما ابطله - معنيا الملك - عموم العبودية - وجها اضافة العبد
لله - معنى العبادة - لمن تكون ؟ - مقام العبودية - اكمل
العباد - اصدق وصف المخلوق - تواضعه - معنى الرسول -
توجيه الترتيب - حديث الاطراء ومعناه .

أما قوله « عبدك » فى حديث أبى سعيد عند البخارى فالعبد
قال الاثمة (خلاف الحر) والحر من لا ملك لأحد عليه . فالعبد هو
المملوك . والعبودية هى طاعته مع الخضوع والتذلل (I) ،
والملوكية التى هى أصل لمعنى مستلزمة لها . وجاء فى كلامهم
مضافا اضافة ملك للبشر فقالوا عبد زيد أى مملوكه ، وإلى
الخالق تعالى مالك الجميع فقالوا عبد الله ، وإلى معبوداتهم الباطلة
فقالوا عبد العزى وعبد اللات بناء على شركهم وزعمهم أن

(I) قال بعضهم : ان العبد ماخوذ من الطريق المعبد أى المذل يوطىء الاقدام
وهذا ليجعلوا الذل من مفهوم العبد . وانا أرى ان الذل لازم لمفهوم العبد
وهو المملوك ، وأنه هو أصل المادة ، وان المعبد - اسم مفعول مشتق - هو
المأخوذ منه معناه مذل كما يذل العبد .

طواغيتهم تملك مع الله وان كان هو مالك الجميع . كما كانوا يقولون في تلبيتهم : (لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك تملكه وما ملك) .

جاء الاسلام فأقر اضافتين وابطل واحدة ، وذلك أن الملك اما ملك حقيقى ثابت بالخلق والحفظ والانعام وهذا ليس الا الله ، فكل احد فهو عبد الله . واما ملك مجازى متنقل بسبب معاوضة أو عطية أو ارث وهذا هو ملك العباد وعلى هذا المعنى يقال عبد زيد أى مملوكه . وأما الطواغيت فلا ملك لها بالوجهين فلا تجوز اضافة العبد اليها . وقد جاء فى اضافة الملك المجازى قوله - ص - فيما رواه مسلم عن أبى هريرة - ض - « لا يقولن أحدكم عبدي فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقل فتاى ، ولا يقل العبد ربى ولكن ليقل سيدى » .

والنهي عن هذا لما فيه من التناول والتعظيم والارتفاع ، ولا بأس به اذا كان فى النادر للبيان والتعريف .

العبودية لله وصف عام ثابت فى كل مخلوق ، فكل مخلوق هو عبد الله مملوك له ، فى دائرة خلقه وقبضة أمره ، خاضع ذليل منقاد لتصرفات قدره .

والعبد يضاف لله تعالى بهذا المعنى اضافة عامة لا فرق فيها بين بر وفاجر . وقد قال تعالى : « إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

ويضاف اليه اضافة خاصة اذا كان العبد قد عرف عبوديته لربه علما ، وقام بواجبها عملا ، فاطاع مولاه طاعة المملوك لمالكة عن علم واختيار ، بذل وخضوع وانكسار ، بلا امتناع ولا اعتراض ولا استكبار ، وقد جاء على هذا قوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ » ، « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ »

لَيْلًا»، «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ»، «وَأِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ»،
«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ»، «وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ»، ومنه قوله: «عَبْدُكَ» هنا.

والعبد المضاف الى الله تعالى بهذا الوجه هو المملوك المطيع،
وطاعته بذل وخضوع هي عبادته. ولما كان ليس مملوكا الا لله
فلا تكون طاعته الا لله فلا يجوز لأحد أن يطيع أحدا الا في
طاعة الله فتكون طاعته في الحقيقة لله. فطاعتنا للنبي - ص -
هي بالقطع طاعة لله، وطاعتنا لغيره لا تجوز الا اذا عرفنا أنها في
مرضاة الله، وقد قال - ص - : (لا طاعة لأحد في معصية الله،
انما الطاعة في المعروف) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي
عن علي كرم الله وجهه وقال - ص - : (لا طاعة لمخلوق في
معصية الخالق) رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه
عن عمران والحكم بن عمر والفقاري - ض - .

ولما كانت الطاعة - التي هي العبادة - بها يحصل الكمال
الانساني للفرد في عقله واخلاقه واعماله، وللنوع في اجتماعه
وعمرانه، وهذا الكمال هو سعادة الدنيا المفضية الى السعادة
الكبرى في الحياة الاخرى - كانت العبودية اشرف حال واعظم مقام
وافضل وصف للانسان وكان افضل انسان أرسخ الناس قدما
في هذا المقام. ولما كان النبي (ص) كذلك كان افضل الخلق، وكان
- كما قال - ص - : (سيد ولد آدم ولا فخر) - ولهذا ذكر
بوصف العبودية في مقام التقريب والتكريم في قوله تعالى :
« فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ » ، وفي مقام الترفيع والتعظيم
في آية الاسراء، وجاء على مقتضى ذلك وصفه به في ذكر الصلاة
ومقام الثناء والدعاء .

ولفظ العبد كما أنه أكمل وصف للانسان على ما بينا - هو
اصدق وصف له - واشده بعدا عن الكبرياء والعظمة والترفع .

ولذا لما خير النبي - ص - بين أن يكون نبياً ملكاً وان يكون نبياً عبداً أختار أن يكون نبياً عبداً ، فان الملك لا بد له من مظاهر السيادة والسلطان ، وان كان بعدل وحق كملك داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام . فاختار - ص - أن يكون نبياً بدون هذه المظاهر وكان الذي اختار أفضل .

وكان - ص - في جميع حياته على أكمل حال في التواضع الذي هو من مظاهر كمال عبوديته لربه ، وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم : (إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُّ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ) .

واما قوله : (ورسولك في الحديث المذكور فان الرسول هو من بعثه الله تعالى - فضلا منه - ليبلغ شريعة . وقيامه باعباء الرسالة هو من طاعته وعبوديته لربه . فقدم لفظ العبد على لفظ الرسول تقديم العام على الخاص وتقديم (I) الشرط على المشروط ، فان الرسالة لا يفضل بها الله تعالى الا أكمل عباده ، و « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وتقديم الترتيب لانه كان عبدا قبل ان كان رسولا ولان العبودية للخالق ، والرسالة فيها انصراف - بأمر الله - للخلق .

والعبودية والرسالة هما الوصفان اللذان أمرنا النبي - ص - ان لا نتجاوز حدهما في الثناء عليه ، فقد قال (ص) : (لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى عِيسَى ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ وَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) ، فنهانا عن اطرائه في المدح وهو المبالغة والغلو

(1) لا تنس ان الشرط لا يلزم من وجوده الوجود فلا يلزم من وجود كمال العبادة - فرضا - وجود الرسالة . لان النبوة لا تكتسب .

هو صفة بما لا يجوز كما غلت النصارى فى عيسى عليه الصلاة والسلام فادعت فيه الألوهية ونسبت اليه ما لا يكون إلا لله .
وبيّن لنا طريق مدحه - ص - بذكر كل ما لا يخرج به عن كونه عبدا من كل كمال ، و بذكر كل ما يليق برسالته من عظيم الخصال ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام (2) .

(2) ش : ج 9 ، م 5 - غرة جمادى الاولى 1348 هـ - أكتوبر 1929 م .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- 6 -

مبلغ صلاة الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم - وجهان
فى معنى التشبيه - نكتة التشبيه - سؤال على الوجه الثانى
وجوابه - نكتة أخرى فى التشبيه - معنى فى العالمين - معنى
حميد مجيد - نكتة الختم بهذه الجملة .

وقوله : (كما صليت على آل إبراهيم) و (كما باركت على
آل إبراهيم) فى حديث أبى حميد وأبى مسعود (وكما
صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) و (كما باركت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم) فى حديث كعب بن عجرة - يفيد
أن المصلى يسأل من الله تعالى صلاة وبركة لمحمد وآله فى
المستقبل مثل ما كان منه تعالى من صلاة وبركة على إبراهيم
وآله فى الماضى . هذا يسأله المصلى فى كل مرة من صلاته
ويستجاب سؤاله كلما سأل . فكم تكون صلوات الله تعالى
وبركاته على محمد وآله فى المستقبل ، وهى اثر كل صلاة مصل
تكون مثل ما حصل فى الماضى منه تعالى لإبراهيم وآله . ان
مقاديرها - على هذا - تبلغ الى ما تعجز عن حصره العقول وهى
لا تزال متزايدة بقدر صلاة المصلين تزايداً فوق متصور البشر .

والكاف في قوله : (كما) تفيد التشبيه والالحاق وهذا يحتمل وجهين :

الاول : أن يكون ذلك في أصل الصلاة بقطع النظر عن مقدارها فلكل ما يناسب مقامه في الفضل والافضلية من المقدار ، كما تقول لمن تقدمت منه عطية لبعض اقاربه : اعط هذا القريب الاقرب كما أعطيت ذاك القريب . تقصد أصل العطاء دون مقداره ضرورة ان ما يستحقه القريب الاقرب أكثر مما يستحقه القريب . وجاء على هذا الاسلوب قوله تعالى : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » ، فالمقصود أن يكون منه احسان كما كان من الله تعالى اليه . ولا يمكن أن يكون ما يصدر منه من احسان مماثلا لما لله عليه منه .

وتكون نكتة التشبيه الحاق المتأخر وهو الصلاة والبركة المسؤولين محمد وآله بالسابق المشتهر وهو الصلاة والبركة المعطاتان لابراهيم وآله . فالمقصود أن تكون هاته ظاهرة مشتهرة في الخلق كما كانت تلك فيهم .

الوجه الثاني أن يكون التشبيه في مقدار الصلاة والبركة ويكون المطلوب هو المقدار المماثل ، كما تقول لمن اعطى زيدا عشرة دراهم : اعط عمر كما اعطيت زيدا . ونكتة التشبيه في هذا الوجه هي نكته في الاول .

وعلى هذا الوجه يقال كيف يطلب له - ص - صلاة وبركة مثلما حصل لغيره وهو أفضل من غيره ، وبمقتضى كونه أفضل لا يطلب له الا ما هو أفضل . ويجاب بان النبي - ص - كان شديد التعظيم لآبيه ابراهيم عليه السلام والتواضع في جانبه ، فكان هذا الطلب على مقتضى ذلك التعظيم وذلك التواضع . وفي هذا تعليم وتأديب لأئمة

ثم فى هذا التشبيه اشارة بذكر ابراهيم عليه السلام وابقاء له على السنة هذه الامة . وفى هذا اعتراف بفضل هذا النبى القانت الحنيف الذى هى على ملته . واحتجاج على أهل الكتاب الذين يعظموه مثلنا وقد حادوا عن ملته الحنيفية بذهابهم فى أودية الشرك واتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . وجزاء له عليه السلام فى دعوته لنبينا فيما حكاه القرآن بقوله : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقوله « فى العالمين » أى فى أجناس الخلق يفيد ان صلاته تعالى وبركاته على ابراهيم وآله كانت ظاهرة مشتهرة - علما وأثرا - فى أجناس المخلوقات . وقد سئل فى صيغة الصلاة أن تكون صلاته وبركاته على محمد وآله مثل ذلك .

ولفظ « فى العالمين » مذكور فى القسم الثانى قسم البركة دون القسم الاول قسم الصلاة ، وأرى ذلك من الايجاز بالحذف من الاوائل لدلالة الاواخر .

وقوله « حميد » من الحمد اما بمعنى حامد ، حول ليفيد التكثير وهو جل جلاله يحمد فعل الخير من عباده ويشي بهم على القليل بالكثير .

ومناسبة اسم حميد لحتم هذه الصلاة ان هؤلاء من عبادك المتقين الذين تتفضل عليهم بحمدك . فمن حمدك لهم أن تصلى وتبارك عليهم .

واما بمعنى محمود ومناسبتة حينئذ أنك ذو الكمال والانعام اللذين تحمد عليهما ، فمن انعامك واحسانك صلاتك وبركتك .

وقوله « مجيد » من المجد والشرف بمعنى ما جد يفيد عظمة
مجده وشرفه في ذاته وصفاته وافعاله .

ومناسبته للاسم السابق ان حمده لخلقه - وطاعتهم بفضله
وتيسيره - من مجده وشرفه ، أو أن كماله وانعامه اللذين
يحمد عليهما، هما فوق كل كمال وكل انعام على ما يليق بمجده
وشرفه ومناسبة ختم الصلاة بهذا الاسم ان من مجده وشرفه
- جل جلاله - هذه الانعامات العظيمة والخيرات الجسيمة
المتوالية على مخلوقاته ومنها هذه الصلاة والبركة المسؤولين
لاكرم خلقه وجميع آله .

وبهذا التقرير يظهر أن جملة « انك حميد مجيد » هي
تذييل للكلام السابق وتأکید له بما هو عام ومشتمل على معناه
- فان الصلاة والبركة من مقتضى الحمد والمجد - نظير قوله
تعالى : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » (I)

(1) ش : ج 10 ، م 5 - غرة جمادى الثانية 1348 هـ - نوفمبر 1929 م .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم القسم العملى

- 7 -

القسم العملى : - حكمها - القصد بها - افضلها - استعمال
صيغها - المحافظة على الوارد منها - التحذير : من الغفلة - من
اللعن - من تركها عند ذكره - من ذكرها للغضبان - من
ذكرها للزغرتة - من هجر الوارد - من كتاب التنبيه .

الصلاة عليه - ص - واجبة مرة فى العمر - وذهب الشافعى
الى وجوبها فى التشهد الثانى من الصلاة ، وقيل بوجوبها عند
ذكره ، وثبت الترغيب فيها اثر حكاية الأذان ويوم الجمعة
وليلتها عند الدعاء ثم ما شاء حسب الطاقة .

ويقصد المصلى بصلاته امتثال أمر الله ورجاء ثوابه والتقرب
اليه بذكر نبيه على وفق أمره وقضاء بعض حقه والمكافأة بقدر
جهدها لبعض احسانه واظهار تمام المحبة فيه والاحترام له
وصحة العقيدة فى دينه .

وصيغ الصلاة كثيرة والامر فيها واسع وأرفعها قدرا
وأعظمها نفعا هى الصيغة التى قالها النبي صلى الله عليه وسلم

لأصحابه - وقد سألوه - في معرض البيان ، وبيانه لهم بيان لجميع الأمة بعدهم ، وهو أعلم الناس بما ينفع وأحرص الناس على جلبه لأمته فلا انفع ولا أرفع مما جاء به من عند ربه ، واختاره لأمته ، والأكمل أن يحفظ الصيغة النبوية بروايتها ويستعملها مرة برواية ومرة بغيرها حتى يكون قد استعملها كلها ولو اقتصر على بعضها لكان كافيا .

وعندما يأتي بالصلاة النبوية بإحدى رواياتها يحافظ على لفظها بدون زيادة شيء من عنده عليها ولا أن ينقص شيئا منها، لأن الصيغة الواردة توقيفية متعبد بها ، والتوقفى فى العبادات يؤتى بنص لفظه بلا زيادة ولا تنقيص ولا تبديل .

وأصل هذا حديثُ البراء بن عازب - ض - فى الصحيح لما قال : (ورسولك الذى أرسلت) قال له النبى - ض - : (لا وبنبيك الذى أرسلت) ، فلم يقره على تبديل لفظ النبى بلفظ الرسول على تقاربهما لأن الصيغة متعبد بها ، والحديث فى باب: إذا بات طاهرا، من كتاب الدعوات من صحيح البخارى .

التحذير :

مظهر الصلاة على النبى - ض - كسائر الأذكار هو اللسان ، وثمرتها فى الأعمال ، ومنبتها هو القلب ، فليحذر المصلى من الغفلة عند جريان الصلاة على لسانه .

والصلاة النبوية صيغة تعبدية فليحذر من اللحن فيها .

وجاء وعيد فيمن تركها عند ذكر النبى - ض - فليحذر من تركها عنده وخصوصا من اعتياد تركها .

وقد اعتاد بعضهم أن يقول لصاحبه عند الغضب (صل على النبى) وهذا وضع لها فى غير محلها وتعمير للاسم الشريف

الى ما لا يليق، من قد يكون عند جنون الغضب من تقصير أو سوء أدب ، فليحذر من هذا .

وقد جرت عادة بعض الناس في ليال زرداتهم أن يرفعوا أصواتهم مرة على مرة (الصلاة على النبي) فتجيبهم النساء من وراء الحجاب برفع أصواتهن بالزغرة حتى يرتج المكان . ومن أبشع المنكر ان تستعمل عبادة من أشرف العبادات في إثارة هذه المعصية النسوانية، فليحذر من ذلك وليغيره بما قدر عليه .

وقد هجر الناس الصلاة النبوية التوقيفية واقتصروا على غيرها وزاد بعضهم فقال ان غيرها انفع منها، فليحذر من هذا الهجر ومن هذا القول، فمحمد - ص - أنفع الخلق وأرفعهم . وفعله أرفع الأفعال وأنفعها ، وقولها أرفع الأقوال وأنفعها . فليجعل أصل صلاته الصلاة النبوية المروية وليجعل بعدها ما شاء .

ومن الكتب المشهورة بين الناس في الصلاة على النبي - ص - كتاب «تنبيه الأنام» وفيه موضوعات كثيرة لا أصل لها فبينما قارئه في عبادة الصلاة اذ هو في معصية الكذب فليكن منه على حذر .

والله يفتح علينا في العلم ويوفقنا في العمل .

له الحمد في الأولى والآخرة رب العالمين (I) .

الدعاء

منه عادة ومنه عبادة

(الدعاء هو النداء لطلب شيء من المدعو ، ولذلك لا يدعى الا العاقل أو ما نزل منزلته مجازا من الجمادات ، أو ما كان له فهم لبعض الاصوات من العجماوات ، واذا كان لشيء معظم ليطلب منه ما وراء الاسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون الا من المخلوق الخالق واذا لم يكن كذلك فهو عادة وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الاعراض) .
الشهاب ج 12 م 6 شعبان 1349هـ

* * *

يجب أن نمهد لمناقشته : (الشيخ الدجوى) ببيان معنى الاستغاثة وتقسيمها ، فالاستغاثة هي طلب الغوث وهو تخلص من شدة أو اعانة على دفع مشقة فهي من أقسام النداء والدعاء ، وتكون من المخلوق الخالق عبادة وتكون من المخلوق لمثله عادة فيدعو المخلوق ويستغيث به فيما هو من مقدوره كقولك يا زيد اسقني ماء ، ويا عمرو ادعوك لتنصحنى ، واننى فى عسر مالى فأغثنى وفرج عنى بما تقرضنى .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : « فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ » فقد طلب منه ان ينصره عليه بما عنده من

القوة البدنية « فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ » ولم يطلب منه ان « يتصرف » له فيه بتصرف باطن وعليه جاء قوله تعالى : « وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ » أى طلبوا منكم النصرة بالقوة التى فى يدكم من العدد والعدة لا أنهم طلبوا منكم أن تنصروهم بطريق الغيب و « التصرف » .

ويدعو المخلوق خالقه ويستغيثه فى تيسير الاسباب العادية فيما هو وراء تلك الاسباب من اللطاف الخفية وما هو فوق الطاقة البشرية ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » فتوجهوا اليه بالدعاء وطلب التخليص من المكروه بالنصر على الاعداء . وقد كان النبی صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم فلم يستغيثوه لعلمهم أن الاستغاثة فيما وراء الاسباب لا تكون الا لله .

فعلم من هذا أن الاستغاثة قسمان : استغاثة بما هو فى طوق البشر ودائرة الاسباب وهذه تكون للمخلوق لانها عادة ، واستغاثة فيما هو خارج عن طوق البشر ودائرة الاسباب وهذه لا تكون الا للخالق لانها عبادة ، وعلى هذين القسمين نزلنا آيات التنزيل .

أفخفي هذا على فضيلته حتى أخذ يستدل بآية الاستغاثة العادية التى تكون بين المخلوقين على الاستغاثة التعبدية التى لا تكون الا لله . ان خفاء هذا على مثله لعجيب !

ثم هذا التقسيم الذى ذكرناه فى الاستغاثة هو بنفسه يجرى فى الدعاء ، وما الاستغاثة الا نوع منه ، فما كان منه لشيء معظم ليطلب منه ما هو وراء الاسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة ولا يكون من المخلوق الا لخالقه ، واذا لم يكن كذلك فهو عادة وهو دعاء المخلوقين بعضهم لبعض لغرض من الاغراض .

ومن الاول قوله تعالى : « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ »
فنصره الله تعالى بما ليس من صنع البشر ، ومن الثانى قوله
تعالى : « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » ،
فدعا موسى قومه وطلب منهم ما هو فى مكنتهم) .

ج 6 ، م 7 صفر 1350 هـ

جهل هذا كله من كلامنا أو تجاهله بعض الطلبة فادعى علينا
بالباطل وكتب فى بعض الصحف يقول : (والمخلص مما يدور
عليه كلامهم هو كون الدعاء عبادة باطلاق) ثم أخذ بناء على
دعواه هذه المبنية على جهله أو تجاهله يندد ويشنع ويتعجب ،
وقد وجد مادة - د ع و - امامه واسعة فنقل معظمها فانتفخ
بها بطن المقال دون أن تكون به حاجة اليها فى المقام .

لا يجوز دعاء غير الله ولا أحد مع الله :

الدعاء عبادة ، وكل عبادة فانها لا تكون الا لله : فالدعاء
لا يكون الا لله ، هذا قياس من الضرب الاول من الشكل الاول
مقدمته الصغرى دليلها من نفسها لانها من لفظ الحديث الصحيح
الذى رواه الترمذى وغيره ، ومقدمته الكبرى معلومة من الدين
بالضرورة ومن أدلتها « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » فاذا كان سيدى الطالب له
المام بقواعد المنطق الاولى فهذا يكفيه ، واذا أراد التوسع
فليتفهم ما نقلناه سابقا من المجلد السادس والسابع ، وليراجع
بقية ردنا على الشيخ الدجوى فى المجلد السابع وبقية مجالس
التذكير فى المجلد السادس ، وليجد الفهم فيما كتبناه فى الدعاء
بالمجلد الثامن .

من دعا غير الله فقد عبده :

لما كان الدعاء عبادة فمن دعا فقد عبد ومن دعى فقد عبد ،
ولهذا تواردت نصوص الآيات والاحاديث على النهى عن دعاء

غير الله دون استثناء لشيء من مخلوقاته مثل قوله تعالى :
 « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » ، « وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » ، « أَمَّنْ
 يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » ، « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
 مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ، « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » . وقال عليه
 وآله الصلاة والسلام في وصيته لابن عباس رضى الله عنهما :
 (وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ) رواه الترمذى وقال حسن صحيح .
 وهو فى الاربعين النووية . فاذا أراد سيدى الطالب أن يزداد
 بصيرة فليطالع شراحها .

فان قلت ان الداعى للمخلوقات لا يسمى دعاؤه عبادة . قلت
 ان من فعل ما يسميه الشرع عبادة كان فعله عبادة ، لان العبرة
 بتسمية الشرع لا بتسميته ، ولأن العبرة فى التسمية الشرعية
 بالعمل لا بتسمية العامل كمن حلف بغير الله فقد أشرك بتسمية
 النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منه شركا فى قوله : (مَنْ
 حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ) رواه الترمذى وحسنه والحاكم
 وصححه ، وان لم يسم الحالف فعله ذلك شركا . وراجع
 ص : 20 - 721 من المجلد السادس من الشهاب تزداد علما .

التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم غير دهائه :

دعاؤه هو الطلب منه قضاء الخوائج وهذا ممنوع بالأدلة
 المتقدمة ، والتوسل به أن تطلب من الله وتسأله به صلى الله
 عليه وآله وسلم مثل أن تقول : اللهم اننى أسألك وأتوجه اليك
 بنبيك محمد نبى الرحمة ، مثل ما فى حديث الاعمى الذى
 تكلمنا عليه فى الجزء الثالث من المجلد الثامن ، وذكرنا دلالاته
 على جواز التوسل به عليه الصلاة والسلام ، ومن التوسل به
 التشفع أو الاستشفاع به وكله بمعنى الطلب من الله به ، فالله
 هو المدعو وهو المطلوب منه . وهذا كله جائز لا كلام لنا فيه ،

غير أن سيدى الطالب لم يفرق بين دعائه والتوسل به ، فذهب يستدل بالجائز على الممنوع مسويا بينهما ، وما ذكره عن البيهقي وعن العتبي - على تسليم صحته وعلى ما فى سنده - لا يخرج عن التوسل والاستشفاع به صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو غير دعائه وطلب الحوائج منه الذى قامت الأدلة على منعه من كل مخلوق لانه من العبادة التى لا تكون الا للخالق ، وما نقله من كلام الشيخ ابن تيمية هو فى بيان ان استجابة دعاء الداعى لا تكون دليلا على أن دعاءه مشروع كما هو صريح كلامه ، ويكفى دليلا على مراده هذا هذه العبارة الاخيرة مما نقله من كلامه وهى قوله (فهذا القدر اذا وقع يكون كرامة لصاحب القبر اما انه يدل على حسن حال السائل فلا) وكون السؤال وقع من بعض الناس له مخالفين أمره ، وقوله اذا سألت فاسأل الله - شىء ، وكونه شرعه لنا ودعانا اليه شىء آخر - وقد خفى على سيدى الطالب هذا القدر من الفرق ما بينهما فجعل سؤال بعض الناس دليلا على المشروعية ، ولو تأمل الفصل الطويل الذى نقل بعضه من كلام الشيخ ابن تيمية لظهر له الفرق جليا .

نصيحة بنصيحة :

نصحنى سيدى الطالب اذا يسر الله لى زيارة القبر الشريف أن أسأله عليه وآله الصلاة والسلام الشفاعة ، وقد يسر الله لى ذلك وله الحمد والمنة منذ عشرين سنة ، وقد دعوت الله وحده ، وتوسلت له بنبيه ، وتوجهت اليه به أن يميّتنى على ملته ويجعلنى من أنصار سنته وأهل شفاعته الى أشياء أخرى قد استجاب الله بعضه وأنا أرجو الاستجابة فى الباقي . وجزاء نصيحتك أيها الاخ أننى انصحك بالتأمل الجيد فيما تقرأ وتكتب ، والتثبت التام فيما تعزو وتنقل ، فاننا لا ندين الا بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من آية قرآنية أو سنة نبوية

قولية او فعلية وما كان عليه السابقون مما رواه الائمة في كتب
الاسلام المشهورة ، فعليك اذا نقلت ان تبين الكتاب وتعين المحل
المنقول منه ليكون لنقولك قيمة في مقام البحث والنظر ، والله
يتولى ارشادك وتسديد خطاك في سنن العلم والدين . (1)

عبد الحميد بن باديس

(1) ش : ج 2 ، م 9 - غرة شوال 1351 هـ - فيفري 1933 م .

تبليغ الرسالة

ملخص المحاضرة التي ألقاها الاستاذ الامام عبد الحميد
ابن باديس بنادى الترقى بالعاصمة فى حفلة المولد الشريف.

مقدمة :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ
فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » .

« سورة الاحزاب ، الآيات 46 - 47 - 48 »

* * *

أيها السادة الحياة ماض ومستقبل وحال ، وما أقل حظنا من
الحياة لو حظنا منها هو الحال خاصة . ذلك الجزء اليسير من
الزمن الذى ما يجىء حتى يهذب ولا يثبت حتى يزول ولكن حظنا
من الحياة كان عظيما بالماضى المديد والمستقبل البعيد . بالماضى
إذا كانت لنا ذكريات نشعر بها ، وبالمستقبل إذا كانت لنا آمال
نتوق الى تحقيقها ، وانه لتتسع حياة الشخص الماضية بقدر
ما تمتد ذكرياته فى سوائف الازمان وتمتد آماله فى غايرها .
حتى يكون كأنه - وهو شخص واحد - قد عاش أعمار الاجيال
والامم من السابقين واللاحقين ، فالذكريات والآمال - أيها
السادة - هى مقياس الاعمار .

لذكريات الشخص وأماله في حياته الخاصة لا تجعله يتجاوز
نطاق ما قدر له أن يعيش من أمد محدود قصيرا جدا جدا الى
عمر التاريخ الطويل .

ولكن الذكريات والآمال الخارجة عن حياته الشخصية هي
التي تجعله كأنه قد عاش الدهور الطوال .

فنحن في حفلنا هذا بذكرى المولد النبوي الكريم التي هي
الثانية بعد الاربعمائة والألف من ولادة محمد بن عبد الله
- صلى الله عليه وآله وسلم - نشعر بالحياة الاسلامية في هذه
القرون كلها حتى كأننا عشناها فعلا .

ونريد أن نحلى شعورنا بهذه الذكرى بذكر ناحية من نواحي
حياة هذا النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - لنبعث فينا
العلم بتلك الناحية آمالا عظيمة في المستقبل الاسلامي القريب
والبعيد ، ويدفعنا الى تحقيق تلك الآمال بما استطعنا . فنكون
كأننا نعيش مع الاجيال الآتية من أبناء الاسلام .

المقصد :

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، جاء بالرسالة من الحق ،
لهداية الخلق . فكيف بلغ هاته الرسالة ؟ هاته هي الناحية
التي نريد الكلام عليها .

فصل علمي :

قد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم ، رسالة ربه بالقول والعمل
الى آخر رمق من حياته ، وكان تبليغه كما أمره ربه على درجات
حسب التدريج الذي هو من سنة الله في خلقه وفي شرعه .

الدرجة الاولى الامر بالتبليغ المطلق :

بدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الوحي بالرؤيا الصادقة التى هى تلقى الروح من عالم الملائكة عند تخليها بعض التخلى عن الجسد فى حالة النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، ثم جاءه الملك بالوحي فكان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : « **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** » ولم يكن فى هذا أمر بالتبليغ لغيره . فرجع الى بيته فأعلم زوجه خديجة رضوان الله عليها فصدقته . وقوته بذكر صفاته العالية وأخلاقه الكريمة الطيبة التى لا يجازى الله صاحبها الا بالكريم الطيب وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ، فقالت له : فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فكانت هى أول مصدق له . ثم فتر الوحي ، ثم رأى الملك المرة الثانية ولم يكن قد اعتادت بشريته رؤية الملائكة ، فرجع الى أهله يقول لهم دثرونى دثرونى فدثروه أى غطوه بشياب فأنزل عليه قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** » .

فكان هذا أول أمر بالتبليغ والانداز فكان تبليغه لزوجته وهى مصدقة له ، وكان يبلغ الفرد والفردين ، وكان أبو بكر الصديق أول من آمن من الناس ، وكان علي كرم الله وجهه فى كفاله متمسكا بأذياله ما عرف الا باتباعه ، فكان من أول من آمن به .

الدرجة الثانية - الأمر بتبليغ العشيرة :

ثم أمر بانداز قومه قريش بقوله تعالى : « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** » فخرج حتى صعد الى الصفا ثم نادى يا صباحاه وكانت

المرب اذا دعا الرجل بيا صباحاه اجتمعت اليه
 عشيرته . فاجتمعت اليه قريش عن بكرة أبيها فقال لهم ارايتكم
 لو اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل وان العدو
 مصبحكم او ممسيكم . اكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا .
 قال فاننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، ثم قال يا آل كعب
 بن لؤى يا آل مرة بن لؤى يا آل قصي يا آل عبد شمس يا آل عبد
 مناف ، يا آل هاشم ، يا آل عبد المطلب ، يا صفية أم الزبير
 - وهى عمته - يا فاطمة بنت محمد انقذوا أنفسكم من النار
 انى لا أملك لكم من الله شيئا . فكانت هذه دعوته العامة لقومه
 من قريش .

الدرجة الثالثة - الامر بتبليغ العرب حوالى مكة :

ثم كان أمره بأن يندّر العرب خارج مكة بمثل قوله تعالى :
 « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا »
 فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج الى أن كانت
 بيعة العقبة وايمان الانصار .

الدرجة الرابعة - الامر بالتبليغ العام لمن فى عصره ولمن بعدهم :

ثم أمر بالتبليغ العام بمثل قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » . فكاتب الملوك خارج جزيرة
 العرب كسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم . وقد بلغ من جاء بعده
 من الامم بما ترك لهم من كتاب الله لقوله تعالى : « لَّأُنْذِرَكُمْ بِهِ
 وَمَنْ بَلَغَ » ، أى لأنذركم بالقرآن وأنذر من بلغ القرآن فعمم
 ذلك كل من بلغه .

فصل عملى :

كل من آمن بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فهو مأمور
 بتبليغ رسالته على الخصوص والعموم لمقتضى ما نطالب به من

التأسى والاقتداء به - صلى الله عليه وآله وسلم - ولقوله تعالى :
« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » .
فجعل من اتبعه داعياً معه إلى الله على بصيرة ولقد عرف السلف
هذا فكانوا دعاة إلى الله بأقوالهم وأعمالهم المطابقة لها حتى
انتشر الاسلام في أقل من ربع قرن في المعمورة ، أما نحن فقد
قصرنا في هذا الواجب غاية التقصير . فتركنا تبليغ الدين إلى
الامم حتى لنخشى أن يكون من أوزارنا بقاء الامم الضالة على
ضلالها لتقصيرنا في التبليغ اليها وأكبر من هذا تقصيرنا في
تبليغ الدين إلى أنفسنا باهمالنا جانب التعليم الديني والوعظ
والارشاد .

اليوم وقد عرفنا كيف بلغ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
رسالة ربه فلننقد العزم على الاجتهاد في التبليغ ولنبدأ
بأهلينا ومن الينا ولنفكر ثم لنعمل في تبليغ الدين كما جاء به
النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أمة الاجابة وأمة الدعوة ،
وليكن تفكيرنا في هذا واهتمامنا به ثمرة احيائنا لهذه الذكرى
الكريمة وعلمنا بهذا النزر اليسير من حياة ذلك النبي الكريم
ولنا - بعد عون الله تعالى - من الإيمان به والمحبة فيه ما يعيننا على
ذلك ويقوى أملنا فيه ويبلغنا اليه .

خاتمة :

أيها السادة قد عدنا من هذه الذكرى بمسألة تبليغ الرسالة
وعدنا بأمل تبليغ الهداية وقد انبثق من هذه الذكرى في
صدورنا نور وجددت منها في قلوبنا قوة ولن نستطيع ظلمات
ظلم الحياة وان كثفت أن تطفىء ذلك النور ولن نستطيع
نكبات الزمان وان جلت أن تبطل تلك القوى . أبدائنا للأيام
فلا بد لها من تصرفاتها ، أما قلوبنا فهي لنا ، مؤمنة مطمئنة

يدين الله ومحبة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وان
قلوبا وضعنا فيها اسم الله واسم محمد لهي بمأمن من عمل
الظالمين وكيد الخائنين . فجددوا نورها وقوتها بمثل هذه
الذكرى واعملوا لتحقيق ما تحييه فيكم الذكريات من أمل
ورجاء ، وأقصروا أعمالكم وجملوها بالاحسان والتقوى . « إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (1) » .

• (1) ش : ج 9 ، م 6 - جمادى الاولى 1349 هـ - أكتوبر 1930 م •

الرَّاعِي

من هذا الغلام العربي في عباته ؟ من هذا الراعي الصغير في غنيمته ؟ من هذا الصبي الناشئ على العمل والرعاية من طفولته ؟ من هذا اليافع الذي يأبى إلا أن يعيش من كد يمينه ، ويأكل خبزه إلا بعرق جبينه ؟

هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يتيم الابوين مكفول عمه أبي طالب ، الذي كان يرعى غنما لاهل مكة لقومه وأهل بلده بالقراريط حتى لا يكون كلا على عمه . هذا هو المهيأ برعايته الغنم ، لرعاية الامم ، هذا هو المنشأ على الكد في العمل الصغير اعدادا له للنهوض بأعباء العمل الكبير ، هذا هو المربي على العمل بالفلس ، ليشب على خلق الاعتماد على النفس ، هذا هو المعد لختم النبوة والرسالة واظهار أكمل مثال للبشرية ، يحمل أعظم آية من وحي الله ، ويدعو الى السعادة الدنيوية والاخروية وأقصى ما يمكن أن يصل اليه الناس من كمال .

شب محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - يتيما في كفالة عمه ، وكان عمه مقترا في شظف من العيش ، فأخذ محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - يعمل بأجرة ليخفف على عمه ولما شب ضرب في الارض تاجرا كعادة قومه ، فلما ولد لأبي طالب على كفله . وهو في الثلاثين ، جزاء على كفالتة . فكان في

طفولته وشبابه وكهولته كواحد من قومه في عيشته وكسبه
واميته . وان كان ممتازا بينهم لخلقه وفضله حتى بعثه الله نبيا
ورسولا بما يستحيل - وقد عرفوا طفولته وشبابه وكهولته -
ان يكون شيء منه من عنده ، ولذا أمره الله أن يحتج عليهم
بقوله « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ
لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

كان محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - مسرا من طفولته
لما كان عليه اخوانه من الانبياء والمرسلين - صلوات الله
عليهم - قبله محفوظا مما حفظوا ملهما ما ألهموا وقد ألهم
الله الانبياء قبله لرعى الغنم وهي حيوان ضعيف تمرينا على
القيام على الضعاف بالحلم والرفق والشفقة وحسن الرعاية
باختيار مسارحها ودفع العوادي عنها ودوام تعهدا وذلك كله
تهيئة لهم الى ما يوكل اليهم من سياسة أمتهم .

وقد ذكر هو - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا العهد من
طفولته وهذه العادة الربانية في مثله من اخوانه اعترافا بنعمة
الله وتنبيها على ما في ذلك من الحكمة وما فيه من حسن القدوة
فقال يوما لأصحابه : (ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم ، فقال
أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم كنت أرها على قراريط لاهل
مكة) رواه البخاري من طريق أبي هريرة - رضى الله عنه (1) .

(1) ش : ج 3 ، م 11 - ربيع الاول 1354 هـ - جوان 1935 م .

أعظم قائد

يرجع الى رأي جندي (1)

ارتحل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مبيته صبيحة يوم بدر حتى نزل على أدنى ماء اليه وبقي الماء أمامه لو جاء العدو لنزل عليه فيكون الجيشان على ماء . وكان الصحابة يعلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتصرف بالوحي فيكون تصرفه حتما ويتصرف بالنظر في السياسة والحرب فيشاور ويراجع وهو المعصوم فلا يقر على الخطأ فأنبرى الحباب بن المنذر بين الجموع يبدى رأيه وما يعتقده صوابا في مكان النزول فقال : (يا رسول الله أرايت المنزل هذا أمزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟) .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال الحباب : (ان هذا ليس بالمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نفور ما ورائه من القلب (2) ثم نبني عليه حوضا نملؤه ماء ثم

(1) من سيرة ابن هشام وغيرها .

(2) القلب ج قليب وهو بشر غير مطوية أى مبنية وعور القليب اذا ردمه بالتراب .

نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون) . أراد أن يستولى الجيش على الماء ويمنع منه العدو فيكون ذلك أنكى فيه وأعون عليه وهذا هو رأى الموافق لما تقتضيه الحرب من تضعيف العدو ومكايده بالاسباب التى تسرع بقهره .

وظهر هذا للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال له : (لقد أشرت بالرأى) ونهض بالناس حتى نزل المنزل الذى أشار به الحباب وفعل ما أشار به ورجع أعظم قائد الى رأى جندى من جنوده لما ظهر له صواب اشارته .

قد عصم الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - فلا يستقر أمره فى جميع سياسته وتدبيره الا على أحسن الوجوه بما يهدى اليه من نفسه - وهو الكثير - وما يرجع اليه مما يشير به أصحابه - وهو القليل - والحكمة فى هذا القليل أن يسن لامته حرية ابداء الرأى فى الشؤون العامة من الكبير والصغير ، والرجوع للصواب اذا ظهر من أى أحد كان .

هذان الاصلان : حرية ابداء الرأى من جميع أفراد الرعية والرجوع الى الصواب من رعاتها ، عليهما تبنى سعادة الامة وعظمتها ، وبهما تشعر الامة بالوحدة بين الرعية ورعاتها ، ومنهما تستمد الامة النظم اللازمة لها فى حياتها ، وقد قررهما الاسلام وبينهما النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تبيننا عمليا فى هذه القصة (I) .

(1) ش : ج 1 ، م 11 - غرة محرم 1354 هـ - أبريل 1935 م .

خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي

كان الأعراب يجيئون للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يسألونه ويستجدونه في غلظة وجفوة من القول فكان يعطيهم ويتجاوز عن جفائهم ويعذرهم ببدائوتهم . فجاءه أعرابي يطلب منه شيئا فاعطاه اياه ثم قال له النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : (أحسنت اليك) ليعرف ما عنده من الاعتراف بالاحسان أو ليعرف اكتفائه بما أعطاه فقال له الاعرابي : (لا ولا أجملت) أي ما أتيت لا بحسن ولا بجميل .

فغضب المسلمون وقاموا اليه ليقعوا به جزاء سوء أدبه فأشار اليهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن كفوا ثم أقام النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئا ثم قال له : (أحسنت اليك) فقال الاعرابي : (نعم . فجازاك الله به من أهل وعشيرة خيرا) .

هكذا توصل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الى تأديبه واستخراج الاعتراف بالجميل منه ليتربى عليه وحمله على النطق بالكلام الطيب بزيادة الاحسان اليه . فاعترف بالاحسان ودعا الله بالجزاء للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بسبب احسانه وشعر بأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان له أهلا وعشيرة، وهذه كلها معارف وآداب وشعور طيب جاء بها هذا

الاعرابى الجافى بسبب تربيته بزيادة الاحسان اليه . وأراد
النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن لا يتركه يرى بين
الصحابة - رضى الله عنهم - بالعين التى كانوا يرونه بها لجفائه
وسوء أدبه وأن لا يترك فى قلوبهم شيئا عليه ، فقال له : (انك
قلت ما قلت وفى أنفوس أصحابى شيء فان أحببت فقل بين
أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما فى صدورهم عليك) ،
دعاه بالطف القول وألينه دون أمر ولا الزام فقال الاعرابى
(نعم) فلما كان الغد أو العشى جاء الاعرابى لمجلس النبي
- صلى الله عليه وآله وسلم - فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
لأصحابه : (ان هذا الاعرابى قال ما قال فزدناه فزعم
أنه رضى . أكذلك ، فقال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة
خيرا) .

ثم أراد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يضرب مثلا
لأصحابه - رضى الله عنهم - يبين لهم به كيف يكون رد الشارد
وجذب النفور وتأليف الجافى ، وان المتصدى لتربية الناس
أعرف من غيره بما يصلحهم وان الرئيس المتبوع أعرف بطباع
أتباعه وأحق بتأليفهم وتربيتهم من الاتباع بعضهم فى بعض ،
فقال لهم - صلى الله عليه وآله وسلم - : (مثلى ومثل هذا مثل
رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا
فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فانى أوفق بها منكم
وأعلم . فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها
حتى جاءت واستناخت (بركت) وشد عليها رحلها واستوى
عليها) ثم قال لهم : (وانى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال
فقتلتموه دخل النار » فقد استحق النار لو مات على تلك الحال
فأشفق عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فعالجه بما

انقذه منها وهكذا تكون رعاية الافراد والامم باللين والاحسان
والانقاذ من مصارع السوء والحمل بالرفق والعلم على السير
فى احسن السبل صلى الله عليه وسلم من نبى حريص على الخير
رفيق بالخلق عليم بطبعهم ، « يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ » (1 ، 2) .

(1) ذكرها فى الشفاء وأصلها فى البزار كما ذكره الشراح .
(2) ش : ج 4 ، م 11 - غرة ربيع الثانى 1354 هـ - جوان 1935 م .

كُنْ خَيْرَ آخِذٍ

قام قائم الظهيرة و صهرت الارض شمس الصحراء ، فنزل الجيش ليقيل ، وتفرق الصحابة تحت أشجار البادية يستظلون بها ، وانتبذ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن أصحابه تحت ظل شجرة وانفرد بها فنزع سلاحه وعلق سيفه في غصن من أغصانها ونام . كان غورث بن الحرث أحد شجعان العرب وفتاكهم يتتبع الجيش متخفيا ، يتحين فرصة انفراد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للفتك به ، وقد واثته تلك الفرصة الآن ، فجاء حيث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نائما وسيفه معلق بالشجرة ، فاخترط السيف فانتبه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وغورث قائم على رأسه والسيف مصلتا بيده . فصاح الفاتك بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :
(أتخافني ؟ فقال له النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :
(لا) قال : (ومن يمنعك مني) ؟ فقال : (الله) .

* * *

الاسلام الأعظم ينطق به الرسول الاعظم ، وهو أعزل من سلاحه الا سلاح الإيمان ، فقد شهر الباطل سيفه بيد ضال مغرور ، يريد أن يصيبه في سيد أنصاره وأعظم أبطاله فلو كان هذا الفاتك جبلا وقد صدعت كلمة « الله » سمعه لخشع وتصدع ، ولو كان قلبه من حديد لذاب وسال .

انخلع قلب الفاتك واضطربت يده وسقط السيف منها
فتناول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - السيف ورفع به
على رأسه وقال لغورث : (من يمنعك مني؟ فقال له غورث : كن
خير آخذ .

التجأ الفاتك الى حلم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
وعفوه وكرمه ودعاه الى أن يكون خير آخذ لعدوه ، وخير
الآخذين هو الذى يعفو بعد القدرة ، ويسمح بعد الغلب ،
وما دعى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الى خير الا أجاب
ولا وقع بين أمرين الا اختار افضلهما ، وما انتقم لنفسه قط ،
فترك غورثا وعفا عنه فرجع الى قومه يقول لهم : جئكم من
عند خير الناس .

فى هذه القصة تجلت الثقة بالله فى أجلى مظاهرها واندحرت
قوة السيف أمام قوة الايمان؛ ايمان من لا يخاف الا الله ولا يخاف
غيره ، ولو كان السيف مصلتا على رأسه ، وضرب النبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - المثل الكامل فى العفو والتجاوز وحسن
التآلف للناس وجلبهم الى الايمان فلهذا العفو ولقول غورث
لقومه : جئكم من عند خير الناس ، من الاثر فى القلوب
ما لا تفعله الجيوش من فتحها للاسلام أو كفها عن أذى
المسلمين (I) .

رزقنا الله الاقتداء بهذا النبي الكريم ذى القلب الرحيم
والخلق العظيم (2) .

(1) أصل القصة فى الصحيحين والشفاء ومسند أحمد وقد اختلف فى
اسلام غورث .

(2) ش : ج 5 ، م 11 - غرة جمادى الاولى 1354 هـ - أوت 1935 م .

رقية الله

كان ضماد - وهو رجل من ازد شنوءة - من أطباء العرب في الجاهلية وكان يعالج بالطب والرقية. قدم مرة مكة، وقد بلغه نبأ الدعوة الجديدة فلما قدمها سمع من سفهائها ما كانوا يرمون به صاحب هذه الدعوة من الجنون فود لو رآه فرقاه لعل الله يشفيه على يديه، فعمل لذلك حتى لقيه، فقال: يا محمد، انى أرقى من هذه الريح - ريح الجنون - وأن الله يشفى على يدي من شاء فهل لك؟ فما أجابه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بكلمة ترد عليه وما زاد على أن قال: «ان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد» فما تركه ضماد يشرع فيما بعد أما بعد، فقد عملت هذه الكلمات الجوامع عملها من نفسه وأثرت أثرها في قلبه فبادره بقوله: أعد على كلماتك هؤلاء، فأعادها عليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث مرات فتجلى لضماد من توحيد الله وتنزيهه والثقة به والاعتماد عليه والحمد له ما بهره منه المعنى الكبير الكثير، في اللفظ البين القليل، وعرفه ان هذا لا يخرج من قلب مجنون. وكيف؟ وهو لم يطرق سمعه مثلهن فيما سمع من كلام الناس فقال، معلنا لايماناه

مبيناً لدليله وبرهانه : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ،
وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن
قاعوس البحر (كقاموس ، عمق البحر ولجته) ثم قال : هات يدك
أبايعك على الاسلام فبايعه ، فقال له رسول الله - صلى الله
عليه وآله وسلم - : وعلى قومك ؟ فقال : وعلى قومي (I) .

* * *

العبرة :

جاء الضماد لا يحمل في قلبه على محمد - صلى الله عليه وآله
وسلم - حقدا ولا بغضا ، بل كان ينظر اليه بعين الشفقة نظر
الطبيب الى المريض . فلما سمع الحق بلغ من قلبه ذلك المبلغ .
فأعظم ما يحول بين الحق وبين الناس وما تنطوى عليه قلوبهم من
بغض أو حقد على من دعاهم اليه . فعلى من يريد أن يعرف الحق
أن يخلي قلبه - ما استطاع - من كل اجنة على من يريد أن
يعرف ما عنده من الحق عندما يريد أن يعرف ، وعلى كل داع
الى الحق أن يبذل كل جهده أن لا يظهر بمظهر العدو أو المبغض
لمن يدعو . فانه اذا سلم القلب ، وحصل الفهم أثرت كلمة الحق
أثرها لا محالة .

الاسوة :

كتاب الله ومثل هذا الكلام النبوي الوارد في هذه القصة
المأخوذة ، من كتاب الله ، هو الدواء الناجع من أدواء النفوس
وأمرض القلوب ، وهو الرقية الشافية ، - رقية الله - من
وساوس الاهواء وهواجس الضلال ، فان النبي - صلى الله عليه

(1) القصة في صحيح مسلم .

وآله وسلم - لم يزد في استشفاء ضماد على إسماعه ذلك الكلام
الجامع المختصر . فعلى الذعاعة الى الحق أن تكون دعوتهم بكلام
الله ومثل هذه الكلمات من حديث رسول الله - صلى الله عليه
وآله وسلم - فان في ذلك الاتباع والانتفاع ، وحصول الهداية
ان شاء الله آمين (I) .

(1) ش : ج 3 ، م 13 ، غرة شعبان 1356 هـ - 2 ماي 1937 م

الفن الادبى فى الحديث النبوى

(كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حادٍ يقال له أنجشة ، وكان حسن الصوت . وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى مسير له ، فحدّ الحادي وكان يحدّو بهن ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (وَيَحَكَ يَا أَنْجَشَةُ رُؤَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالقَوَارِيرِ) قال أبو قلابة فتكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه ، قوله : (سَوْقَكَ بِالقَوَارِيرِ) رواه البخارى فى باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه وفى باب المعاريض وغيرهما من طريق أبى قلابة وثابت البنانى وقتادة ثلاثهم عن أنس رضى الله تعالى عنهم وسقناه من مجموع ألفاظهم .

* * *

الأشخاص :

انجشة : غلام حبشى كان يحدو فى السفر بالنساء كما كان البراء بن مالك يحدو بالرجال . أبو قلابة : امام شهير من فقهاء التابعين نزل الشام ومات بها .

المفردات :

الحدو والحداء : سوق الابل والغناء لها لتنشط وتسرع في السير . ويح ، كلمة تقال لمن وقع في بلية أو توقعت له رحمة له ، بخلاف ويل ، فانها تقال لمن وقع في عذاب أو توقع له وهو يستحقه ولا يرحم فيه ، وانجشة هنا شارف ان يقع في بلية كسر القوارير ، فخطب خطاب رحمة من الوقوع في ذلك . رويدك : مصدر مصغر بمعنى امهال ، القوارير : جميع قارورة وهي الزجاجاة ، سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها . القوارير النساء .

التراكيب :

ويحك منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف لم يستعمل ، وتقدير الكلام هلكت هلاكك الذي تستحق عليه الرحمة . رويدك مثله وتقديره أمهل امهالك . ونصب سوقك على التوسع باسقاط الخافض أى فى سوقك ، ولما كان يدعوه الى الرفق اقتضى الحال ان يعبر عن المطلوب الرفق به وهن النساء بالقوارير على طريق الاستعارة التصريحية ، حيث شبهن بها بجامع الرقة واللفظ والضعف ، وحذف لفظ المشبه وذكر لفظ المشبه به . فكانت اللفظة المجازية بالغة غاية البيان عن حالة النساء وكان التركيب بها بالفاغاية البلاغة باشتماله على ما اقتضاه حال الدعاء الى الرفق مما صورهن بصورة تدعو الى الرفق وتستوجبه .

المعنى :

لما غنى انجشة للابل وعلى ظهورها النساء نشطت واعنقت في السير فاتعبتهن ، فاشفق النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهن

فأمر أنجشة بالرفق بهن لانهن ضعيفات عن تحمل شدة
الاضطراب فوق ظهور الابل المسرعة .

الفن :

ادراك صفات الشيء على ما هي عليه من حسن وقبح ادراكا
صحيحا ، والشعور بها كذلك شعورا صادقا . والتصوير لها
تصويرا مطابقا ، بالتعبير عنها بعبارات بليغة في الابانة
والمطابقة للحال ، ذلك هو الفن الادبي . والنفوس تميل الى
الحسن وتنشرح له ، وتنفر من القبيح وتنقبض عنه ، ولذا كان
أكثر الفن الادبي في تصوير الحسن وعرضه على الناس
ليشاركوا الفنان في ادراك ذلك الحسن والشعور به والتذوق
للذة ، ذلك الادراك والشعور ، وفي ذلك تربية للملكة الذوق
الحسن في النفوس . وان النفوس لفي اشد الحاجة الى تلك الملكة
لتنعم بصور هذا الكون العظيم وما فيها من حسن فتقاوم بذلك
ما تعانيه من متاعب الحياة وأوصابها وتدفع بلذة ذلك الشعور
بالحسن ما تجده من آلامها ، واذا رجعت الى القرآن العظيم
فانك تجد العدد العديد من آياته الكريمة يعرض علينا أنواعا
من مخلوقات الله تعالى في صورها الحسنة الجذابة . واقرأ في
ذلك - مثلا - سورة الرحمن فانك واجد ما قلناه . وكذلك في
الاحاديث النبوية عدد كثير من مثل ذلك ، ومنها هذا الحديث
الشريف الذي بين ايدينا ، فقد صور النساء في صورة حسنة
جذابة بما في القوارير من بياض ولمعان ودقة ولطف ، مع
التصوير لحقيقة حالهن في الضعف الخلقى وفي الضعف القلبي
وسرعة انكسار قلوبهن وعسر انجبارها ، فكانت هذه العبارة
آية من آيات الفن الادبي ، التي تدخل على النفوس بهجة
وانشراحا وتثير فيها حاسة الذوق للحسن والجمال . وقد ألقى
كعب بن زهير قصيدته المشهورة في حضرة النبي صلى الله عليه

واله وسلم فوصف المرأة والماء الذي مزجت به الخمرة، والناقة
وصورها تصويراً فنياً ولم ينكر عليها^(١) لأنه لم يكن يصف شخصاً
معيناً يؤدي وصفه إلى إثارة الشهوة البهيمية نحوه وإنما كان
يعرض صوراً من محاسن تلك الأشياء التي تلذ للنفوس البشرية
صورها الجمالية وتنمي فيها قوة الشعور والذوق .

الرد على المتشددین :

علم أبو قلابة رضي الله تعالى عنه تشدداً وتنطعاً مما كان
حدثهم بهذا الحديث يحملانهم على الامتناع من الكلمات التي
فيها بعض وصف النساء ، فرد عليهم بتكلم النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم بهذه الكلمة التي لو تكلم بها أحدهم لعابوها عليه
وبين لهم أن لا عيب فيها وفي مثلها مما لا فحش في لفظه ،
ولا قبح في معناه ولا غاية سوء من ذكره .

فقه :

في الحديث سماع النساء لصوت الحادي وفيه العناية بهن في
السفر والرفق بهن فيه ، وفيه التنبيه على المحافظة على قلوبهن
وعواطفهن ليدوم ودهن وسلامتهن ويدوم الهناء معهن
والاستمتاع بهن لانهن ضعيفات القلوب رقيقات العواطف
شديدات الاحسان (٢) ، يصبرن على كل شيء من الرجل إلا على
كسر قلوبهن ومس عواطفهن فهذا الحديث الشريف من الأحاديث

(١) كذا ورد في الأصل وصوابه (عليه) .

(٢) كذا في الأصل ، وصوابه شديدات الاحساس .

الكثيرة التي جاءت في الوصاية بالنساء والمحافظة عليهن ومراعاة جانبهن ويمتاز هذا الحديث بما فيه من ذكر السبب الذي يوجب ذلك ويقتضيه ، على أبين تصوير وابلغه . فليكن دائما على بالنا في معاملتنا للنساء وحياتنا معهن والله المستعان (3) .

(3) ش : ج 2 ، م 8 - غرة شوال 1350 هـ - فيفري 1932 م .

رسول الله يُشتم بين أيدينا ويُهان

لقد تحملنا كل أنواع العذاب ، وصبرنا على كل مكروه نالنا في ديننا ودنيانا ، وعشنا عيشة الذل والهوان التي لا نعتقد أن غيرنا من الأمم تحمل مثلها وصبر عليها ، فقلنا تجاه كل ذلك : حسبنا الله ونعم الوكيل ، هذا ما قدره الله ولا مرد لقدرة الله .

لكننا ان تحملنا عيشة الذل بصبر ، وتحملنا الفتنة في الدين بصبر ، فأننا لا نتحمل ولن نتحمل ، ولو رأينا أمامنا الموت الزؤام ، والبلاء الأعظم ، أن تمتد يد الإهانة والسوء إلى الشخصية المقدسة التي هي أعز على كل مسلم ، منذ انبثق فجر الإسلام إلى قيام الساعة ، شخصية محمد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد انصف الكثير من المؤرخين هذا الرسول الذي هو سيد الوجود ، ودرسوا سيرته الطاهرة فاذا بهم يرونها المثل الأعلى للأخلاق الفاضلة والنبيل ، والشمس ، والهمة ، والوفاء ، والاخلاص ، والتضحية ، ولبعض الغربيين في ذلك تأليف جمة ، وكتب قيمة .

لكن بعض المؤرخين الذين سفلت أخلاقهم ، وخربت ذممهم ، وأعمى التعصب المسيحي المقوت بصيرتهم ، قد عمدوا للحقائق

فطمسوها ، وافتروا الاكاذيب حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فقالوا فى محمد بن عبد الله ما سولت لهم أنفسهم الخبيثة أن يتقولوه . والله من ورائهم محيط .

لكننا رغم علمنا بوجود كمية من هذه الحشرات السامة التى لا علم لها ولا فضل ولا شرف فى النفس ، لم نك نعلم أن منها من يتجراً خبثاً وشنأنا على مقام الرسول الاعظم ، وهو فى بلاد عربية اسلامية ، متينة الاسلام ، رغم كل سعى ، ورغم كل محاولة ، محتقرا بذلك دين خمسة ملايين ونيف من البشر الذين تعهدت لهم دولته باحترام دينهم ، وكف يد العدوان عنه ، دائسا بذلك ، وهو فى أرض هى أرضهم - وأنفه راغم - وهو بين ظهرانيتهم ، كرامتهم وعواطفهم ومقدساتهم كلها .

سحقا ودفرا للنفس الخبيثة السافلة ، تسير مع الاغراض والهوى فتعمى عن الحقائق ، وتغتر المحسوس ، وتصادم العلم والتاريخ .

لجريدة « الايكو دالجى » اليومية فى الجزائر ، عبد من عبيد الاقلام المأجورة ، يدعى « روبر راندو » يحرر كل جمعة فصلا أدبيا فيه نقد الكتب الجديدة .

ففى عدد الجمعة 23 أوت 1935 م . أخذ ينقد كتابا ألفه أثنان من كبار الكتاب الفرنسيين ، هما الاخوان : « طاروا » واسم ذلك الكتاب : « فرسان الله » وقد حاول فيه مؤلفاه أن يسطرا تاريخ الاسلام بصفة روائية مستمدة من الحقائق التاريخية ووفقا فى ذلك بعض التوفيق .

لكن « روبر راندو » لم يكد يخط السطور الاولى من هجوه المقذع ، ولا أقول من نقده الادبى ، حتى تورط فى حملة طائشة خبيثة ضد الاسلام وضد التاريخ الاسلامى ، فالفتوحات

الاسلامية عنده كانت « وافدة كالاوبئة الفتاكة ، ماحقة مثل الطوفان » ولم تكن الا سلسلة من الفتك والظلم والارهاق ، وازهاق النفوس بدعوى جلب الناس لدين الله ، الى غير ذلك من الترهات التى لا تهمنا ، فاذا علم الناس أن شخصا مثل راندو يقول هذا ، وأن عالما من أساطين البيان والتفكير والتاريخ يدعى « سيديو » يقول : « لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب » وأن علما من أعلام البحث والفلسفة هو : « قوستاف لوبون » يقول عن الاسلام ما يقوله فى كتابه « المذنيات العربية » علم الناس أى قول يأخذون ، وأى قول يرمون به محتقرين فى سلة القاذورات .

انما نفس « راندو » الخبيثة لم تقف به عند هذا الحد ، بل زادت رسوبا فى حمأة السقوط والدنس ، فتجراً على مقام رسولنا الاعظم ، منقذ الانسانية ، وفخر السلالة البشرية ، بعبارات بذية قدرة ، تدل على نجاسة الاناء الخبيث الذى تدفقت منه .

لم يستح من العلم ، ولم يستح من التاريخ ، ولم يستح من جماعة المسلمين الذين يعيش عيشة الفاتح المتسيطر فى أرضهم فقال - قبحه الله من ما كرأشر - :

« هو رجل مظلم النواحي (I) فوق الرجال ، به ظاهر من الرحمة والبساطة ، انما له من التحيل والخداع (2) ومن الخيانة والنفاق (3) ما لا يدرك له غور » .

ثم يقول : ان الاخوين « طارو » قد استطاعا أن يصورا محمدا - عليه صلاة الله وسلامه - بمثل هذه الصورة ، ولهما بذلك أسوة بمن سبقهما من المؤرخين .

لقد دلس « راندو » على الاخوين تدليسا شنيعا . فهما على ما نعلم لم يستعملا فى كتابهما ولا فيما كتبا من قبل مثل هذه العبارات البذيئة التى يتنزه عنها الكاتب الذى يحترم مهنته ، ويحترم كرامته ، ويحترم القلم الموضوع بين يديه ، بل هما فوق ذلك لم يحاولا الحط من قيمة الرسول العربى الاعظم ، ولا من قيمة أصحابه . وان كانا قد وقعا فى أغلاط طالما وقع فيها قبلهم بعض المؤرخين ، وذلك لابتعادهم عن البحث والتنقيب فى كتب التاريخ الصحيحة ، واقدامهم على نقل ما يقع بين أيديهم من غث وسمين .

فكيف يتحمل من فى قلبه ذرة من كرامة ومروءة وشرف ، ولو كان غير مسلم ، ولو كان غير متقيد بدين على الاطلاق مثل هذه الكلمات الجارحة الخارجة عن حدود الادب واللياقة والمروءة والشرف .

ان مثل هذه الكلمات السافلة تؤشك أن تحدث فتنة نحن فى غنى عنها ، وشر الفتن ما كان مصدره الغضب للدين . واننا لثمنعنا آدابنا الاسلامية ، وتعاليمنا الراقية من أن ننحط لمثل هذا الميدان فنشتم دين الذى يشتم ديننا ، ونحقر اعتقاد الذى يحقر اعتقادنا ، ونصف رسل الامم الاخرى - صلوات الله وسلامه عليهم - بمثل ما يصف رجال الامم الاخرى رسولنا .

فنحن نستلقت بكل شدة أنظار ولاية الامور ، وخاصة السيد الوالى العام ، والسيد مدير الامور الاهلية ، لمثل هذه الحادثة المزرية بالمروءة ، والمخلة بالشرف ، ونحتج بكل قوانا وبكل ما فى أنفسنا من ألم وكدر وتقزز واشمئزاز على هؤلاء الذين يفتنمون فرصة ضعفنا ورضوخنا ، وأن لا حول ولا قوة بأيدينا فيوغلون فى احتقارنا وامتهان كرامتنا الى درجة شتم رسولنا وسبه ، ووصفه بأحقر الاوصاف .

اللهم انك لتعلم كيف أمسينا وكيف أصبحنا ، اللهم انك
لتعلم أن لا قدرة لنا على تغيير هذا المنكر بأكثر من هذا ، اللهم
انتقم لرسولك الذي بعثته هدى ورحمة للناس وأنت المهيمن
الجبار (I) .

(1) ثنى : ج 6 ، م 11 - جمادى الثانية 1354 هـ - سبتمبر 1935 م .

موضوعات متصلة بصاحب السنة
صلى الله عليه وسلم

ذكرى المولد النبوى الكريم فى (نادى الترقى) بالعاصمة

لقى الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس فى هذه
الذكرى خطابا ارتجله ارتجالا فى ذلك المقام ونقدمه
فيما يلى حسبما بقى فى الذهن فكان طبق أصله الا فى
القليل :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى اسم الجزائر الراسخة فى
اسلامها، المتمسكة بامجاد قوميتها وتاريخها - افتتح الذكرى (I)
الاولى بعد الاربعمئة والالف من ذكريات مولد نبى الانسانية
ورسول الرحمة سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله عليه وعلى آله
الصلاة والسلام - فى هذا النادى العظيم الذى هو وديعة الامة
الجزائرية عند فضلاء هذه العاصمة ووجهائها .

لسنا وحدنا فى هذا الموقف الشريف لاحياء هذه الذكرى
العظيمة ، بل يشاركنا فيها نحو خمسمئة مليون من البشر فى
اقطار المعمور كلهم تخفق أفئدتهم فرحا وسرورا وتخضع
أرواحهم اجلالا وتعظيما لمولد سيد العالمين .

(1) نحن فى سنة 1348 من الهجرة وعاش هو (ص) 53 سنة فى مكة قبل
الهجرة فتلك : 1401 سنة فمولد هذه السنة هو الواحد بعد الاربعمئة والالف
كما ذكرنا .

قلوب خمسمائة مليون ! هذه قوة كبيرة فى هذا العالم مرتبطة
بالحب متدرة بالايمان . فلو شعرت حقيقة الشعور ببعضها
لاثمرت للانسانية فوائد كبرى وعملت لها أعمالا عظيمة .

بل تشاركنا فى موقفنا هذا الانسانية كلها واذا لم يكن
بلسان مقالها فبلسان حالها . فمن الاسلام الذى جاء به صاحب
هذه الذكرى عرفت الانسانية وذاقت حرية العقول والرقاب ،
ومنه عرفت وذاقت العدل على اتم معناه ، ومنه عرفت وذاقت
المساواة بين العباد فيما هم متساوون فيه ، وبهذه الاصول
العظيمة امكن اشتراك أمم كثيرة تحت راية الاسلام فى خدمة
العلم والمدنية حتى ازهرت رياضهما وسمت صروحهما فى
الشرق والغرب واغترقت من معينهما أبناء الانسانية جمعاء .

نقلت المدنية الاسلامية أصول المدينيات السابقة نقل الامين ،
ونخلتها نخل الناقد البصير ، وزادت عليها من نتائج أفكارها
وثمار أعمالها ما كان الاساس المتين لمدينة اليوم .

هذا الذى نقوله يعترف به العلماء المنصفون من الغربيين
أنفسهم ويشهد به مثل قانون ابن سينا الذى لا زال يدرس الى
القرن الثامن عشر فى جامعاتهم ومثل مقدمة ابن خلدون
التونسي تلميذ مواطنينا شيوخ تلمسان ، واضع علم الاجتماع
المترجمة الى جميع لغاتهم .

كنا نسمع هذا الاعتراف من الافراد ، ولكننا اليوم صرنا
نسمعه من الامم وفى العام الماضى كان احتفال اسبانيا أمتها
وحكومتها بانقضاء ألف سنة على تأسيس الخلافة الاسلامية فى
قرطبة ، ومعنى ذلك الاعتراف لهذه الخلافة الاسلامية العربية
بفضلها على مدنية اليوم ، ورفعها منار العلم والعمران أيام
كانت أمم الغرب فى همجية عمياء ، وفى هذه السنة كان

الاحتفال في جامعة المانيا ببرلين بذكرى ابي القاسم الزهراوى
الاندلسى الطبيب الجراح الذى لا تزال نظرياته واستنباطاته
معتمدا عليها الى اليوم . وكان الاحتفال فى القاعة الكبرى التى
لا يحتفل فيها الا باكابر العلماء الذين خدموا الانسانية خدمة
جليلة . ومعنى هذا ؛ الاعتراف لعلماء العرب بخدمة العلم
والانسانية فى ظل الاسلام منذ قرون .

فالاسلام الذى جاء به صاحب هذه الذكرى هو أبو المدنية
أمس واليوم - واعنى بمدينة اليوم المدنية من جهة العلم
والعمران ، لا من جهة الاخلاق والاجتماع فهناك ما يتبرأ منه
الاسلام .

لا عجب بعد هذا البيان أن نقول ان الانسانية تشاركنا
بالاحتفال فى هذا المقام .

ما الداعى الى احياء هذه الذكرى ؟
المحبة فى صاحبها .

ان الشيء يحب لحسنه أو لاحسانه وصاحب هذه الذكرى قد
جمع - على أكمل وجه - بينهما . فله من الحسن ما كان به أكمل
الناس حتى اضطلع بالقيام باعباء ما جاء به ويعرف ذلك الكمال
من درس أى خلق من اخلاقه واى يوم من أيامه . وله من الاحسان
ما أنقذ به البشرية وكان رحمة خاصة وعامة ، وعم الانسانية
جمعاء على ما قدمنا فى البيان .

فمن الحق والواجب ان يكون هذا النبى الكريم أحب الينا من
أنفسنا وأموالنا ومن الناس اجمعين ولو لم يقل لنا فى حديثه
الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده
والناس اجمعين » وكم فينا من يحبه هذه المحبة ولم يسمع بهذا
الحديث ؟

فهذه المحبة تدعونا الى تجديد ذكرى مولده فى كل عام .

ما الغاية من تجديد هذه الذكرى ؟

استثمار هذه المحبة .

ان محبتنا فيه تجعلنا نحب كل خلق من اخلاقه وكل عمل من أعماله ففى ذكريات مولده نذكر من اخلاقه ومن أعماله ما يزيدنا فيه محبة ويحملنا على الاقتداء به فنستثمر تلك المحبة بالهداية فى أنفسنا ، ونشرها فى غيرنا تلك الهداية التى لا يسعد العالم سعادة حقة الا اذا تمسك بها .

ماذا نريد ان نذكر فى مجلسنا هذا منها ؟

عندما أصل الى هذا المقام وأقف أمام اخلاقه وأعماله عليه وعلى آله الصلاة والسلام اجدنى أمام ما يتقاصر عنه علمى ويتضاءل أمامه شخصى وانشد ما قاله شاعرنا العربى :

هو البحر من أى الجهات أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله
ومن اين لعاجز مثلى ان يفى خلقا من اخلاقه أو عملا من أعماله حقه من البيان ؟

لكننى سأقول على كل حال حسب جهدى ، واقتصر على ذكر خلقين من اخلاقه أراهما ركنين أساسيين فى حياته وفى شريعته وهما : الرحمة ، والقوة .

اذا أراد الله تعالى شيئا هيا أسبابه . فمع علمنا بان ما كان له (ص) من الرحمة والقوة هو من العطاء الربانى والفيض الالهى الذى تقصر عنه وسائل العباد - فاننا لا نمتنع من ذكر ما هيا الله له من أسباب مناسبة لهذين الخلقين . فمن العبادة الفكرية النظر فى صنع الحكيم العليم فى ربط الامور بعضها ببعض واقتترانها فى الوجود والتقدير . فلنبحث فى هذين

الخلقين وما هيء لهما من حال مناسب ، وما نشأ عنهما من اخلاق
فاضلة ، وما كان لهما من ثمار محمودة ، ومظاهر في حياته
وشريعته جليلة جليلة - لنزداد بصيرة في العلم ، وهداية في
الاقتداء فنقول :

مبدأ رحمته :

كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يتيما في صغره مات
أبوه وهو حمل وماتت أمه وهو ابن بضع سنوات فاورثه ذلك
اليتيم رقة في قلبه . وما كانت كفالة جده ولا عمه ، ولا حضانة
نسائهم بمغنية عن عطف آلام وحنانها . ولا جابرة صدع القلب
من فقدانها . وهذه الرقة هي فيه أساس الرحمة .

مبدأ قوته :

وكان (ص) ابن بيت عظيم ، يشهد مجالس جده عبد المطلب
شعبة الحمد واعمامه من حوله . ويرى هيبتهم ومكانتهم في
قومهم فاورثه ذلك عظمة وعزة نفس : عزة أنفة وإبابة ،
وعظمة شرف وكرم وترفع عن الدنيا . ولا ينكر تأثير اسم
العائلة وتاريخها ومشاهدة حال أفرادها - في ابنائها . وانا
أعرف شخصا ما قرأ العلم ولا اجتهد فيه - في أول أمره - الا
لعلمه بان أجداده كانوا علماء . وهذه العظمة هي أساس القوة .

مظاهر رحمته :

كانت رحمته بالمرسل اليهم : ما أدمى ساقه ، وشج وجهه
وكسرت رباعيته - وهو يقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا
يعلمون . وقال تعالى في رحمته بمن أرسل اليهم : « لَعَلَّكَ
بَاخِعٌ مُّقَاتِلٌ (قاتل) نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وكان كما قال تعالى :
« بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » ورحمة للعالم كما قال تعالى :-
« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

مظاهر قوته :

كانت قوته لتحمل اعباء الرسالة وتبليغها للخلق ، قوة أدبية وقوة حربية . فمن الاولى ثباته فى مواقف التبليغ . كقوله لعمه أبى طالب - وقد فهم منه انه ضعف عن نصره وانـه مسلمـه - : (يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على ان أترك هذا الامر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) .

ومن الثانية فى ميادين القتال ومواقف البأس كما ولى عنه الناس يوم حنين - وهو يقول راكبا على البغلة التى لا يركبها الا من لا يفر - : (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) . معلنا مكانه مظهرا نفسه امام الاعداء الآتين من كل صوب .

آثار القوة والرحمة فى اخلاقه :-

كان صلى الله عليه وآله وسلم - صادقا أميناً عادلاً - معروفا بهذه الصفات بين قومه قبل نبوته .

الامانة :

هى حفظ الشخص ما استودع . وأول ذلك حفظه نفسه فيثق به الناس فى حفظ ما يستودعونـه .

وقد كانت قريش - وهى كافرة به - تودع عنده أموالها ، ولما خرج مهاجرا ومعه الصديق رضى الله تعالى عنه خلف ابن عمه حيدرة على ابن أبى طالب كرم الله وجهه لينام على فراشه معرضا نفسه لسيوف قريش المتآمرين على قتل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى تلك الليلة ، وليرد امانات الناس اليهم ، ويلحقه بأهله .

الصدق :

هو قول الحق في جميع المواطن وقد شهد له أبو سفيان - وهو اذ ذاك أكبر عدو له - في مجلس قيصر بالصدق : سأل قيصر هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ قال (أبو سفيان) لا . قال قيصر قد اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

العدل :

وهو الانصاف في الحكم . وقد رضيت به قريش حكما بين كبرائها لما تنازعوا في رفع الحجر الاسود الى محله أيام جددوا بناء الكعبة . ذلك لما عرفوا من عدله .

والرحمة والقوة اساسان لهاته الاخلاق . فمن الرحمة بالنفس وبصاحب الشيء ، ومن القوة على النفس وعلى النزعات والعواطف تكون الامانة ، ومن الرحمة بالمظلوم والقوة على الظالم يكون الحكم العادل . فان القاسي العديم الرحمة لا يبالي بالمظلوم وان الضعيف تكسره رهبة الظالم عن الصدع بالحكم ويقصر عن تنفيذه - وضعيف القلب تؤثر عليه المؤثرات حتى مرققات العواطف ولهذا قال جمهور أئمة الاسلام : ان المرأة لا تصلح للحكم لرقة عواطفها وضعف قلبها . فقد تخدعها الدموع الكواذب ، وقد تميل بها عاطفة الحب والقرابة . والصدق - وهو مقتضيات الامانة لانه حفظ اللسان - لا يقوم به الا رحيم بالسامعين يشفق عليهم لا يخذعهم ، قوى شجاع لا يبالي في قول الحق بهم .

اهتمامه بالخلق :

كان هذا العظيم النفس الرقيق القلب ، الرجل القوي الرحيم - يرى انحطاط قومه في المعتقد والاخلاق والمجتمع

فتسمو به نفسه العظيمة عن البقاء في تلك البيئة المنحطّة
والوسط المريض . وتأبى عليه رحمته ان يتركهم فيما هم عليه
فكان دائم الاهتمام بهم ، دائم التفكير في الطريق الذي يسلكه
لإنقاذهم .

انقباضه عنهم :

كان ينزل عنهم ويذهب الى غار حراء الليالي العديدة حاملاً
عبء همه غارقاً في تفكيره . ولم يكن اختلاؤه في غار حراء
مثل اختلاء متصوفة الهند الذين ينزل احدهم عن الناس
ويذهب في أودية الخيال لتحقيق حالة نفسية خاصة به يعدها
نعيماً روحياً . بل كان اختلاؤه وانعزاله للتفكير في طرق خلاص
العالم من الضلال والقيام بخدمة عظيمة عامة للبشر . وشتان
ما بين الحالتين .

نبوته :

جاءه جبريل بالوحي وهداه الله بالنبوة الى طريق الخلاص
وشرح صدره لما جاءه من الحق ، ووضع عنه عبء ذلك الهم
الثقيل وبعثه للعالمين بشيراً ونذيراً .

الرحمة والقوة في شريعته :

ولو تتبعنا أصول شريعته وفروعها وآدابها لوجدتها كلها
مبنية على أساس الرحمة والقوة . فليس من الاسلام ذلك
التماوت وذلك التمسكن الذي يتظاهر به بعض الناس . وقد
قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقد رأى قوماً من هذا
الصنف : (لَا تُمِيتُوا عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُمُ اللَّهَ) وقالت عائشة
- رضى الله تعالى عنها - وقد رأت قوماً يتماوتون في مشيتهم

من هؤلاء ؟ فقل لها قوم من القراء ، فقالت : (لقد كان عمر سيد
القراء وكان اذا مشى اسرع ، واذا تكلم اسمع واذا ضرب أوجع)

ولو بحثت عن أسباب انتشار المملكة الاسلامية المبنية على
الشريعة المحمدية لوجدت أصل تلك الاسباب هذين الاساسين :
الرحمة والقوة . فان الضعيف مغلوب ، وان القاسى مبغوض ،
ولا يسود ويحب - كما كان للاسلام - الا القوى الرحيم .

رزقنا الله القوة فى قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وابداننا .
واشعرنا الرحمة بانفسنا وبيعضنا وبغيرنا ، انه القوى المتين ،
الرحمن الرحيم (I) .

على ذكرى المولد النبوي الشريف التجدد في كل مولد

ما كانت هذه الدار الدنيا دار بقاء وانما هي دار فناء . وما بقيت عناصرها المادية في الوجود الا بما أجراه الله عليها من سنة التجديد في الخلق ليقوم الجديد مقام ما أتى عليه الفناء .

وهذا الانسان المثال المصغر من العالم الاكبر قال فيه العلماء : انه في كل سبع سنوات تفنى جميع أجزائه المادية وتخلفها أجزاء أخرى . فذاته على رأس السنوات السبع اللاحقة غير ذاته على رأس السنوات السبع السابقة ، وهكذا حتى يستكمل ما قدر له من البقاء في الدنيا .

وتاريخ البشرية من أقدم عصورها يدل على أنها لم تفارقها هذه السنة : سنة التجديد اثر الفناء .

وقد كان الانبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ، هم أساس كل تجديد في تاريخ البشرية كل في الامة التي أرسل اليها .

حتى اذا كان الفساد العام في شؤون الدنيا بطواغيت الملك ، وفي شؤون الدين بطواغيت الكهنوتية ، وفنيت معالم الحضارة

بمثل الحروب الرومانية الفارسية واندثرت حقائق الدين وشوهت بالمجادلات المذهبية ، والرسوم والالواضع البدعية - حتى اذا كان هذا الفساد والفناء العامان أرسل الله تعالى محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب رحمة للعالمين بالتجديد العام . فيوم ولادته - صلى الله عليه وآله وسلم - هو يوم ولد فيه العالم ولادة جديدة .

فلنجعل يوم ولادته من كل عام نعزم فيه على تجديدنا تجديدا روحيا وعقليا وأخلاقيا وعمليا وتاريخيا، تجديدنا اسلاميا محمديا في جميع ذلك . لنولد في عامنا الجديد ولادة جديدة وهكذا نجدد ونتجدد في كل ذكرى مولد .

علينا أن نتفقد عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ونعزم فيما اندثر منها على التجديد، ولنعين بعضها ولنجعله على الخصوص . محل العناية الكبرى بالتجديد منا حتى نحاسب أنفسنا عليه في الذكرى الآتية .

أما كاتب هذه السطور فقد عزم على تجديد ما فنى من قلوب المسلمين من عقيدة « انهم بالاسلام هم أفضل الامم » ليدعوهم بذلك الى التمسك بأخلاق الاسلام وآداب الاسلام وعدل الاسلام واحسان الاسلام . اذ في ذلك سعادتهم وسعادة البشرية كلها معهم والله المستعان (I) .

(1) ش : ج 7 ، م 10 - غرة ربيع الاول 1353 هـ - 14 جوان 1934 م .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

رجل القومية العربية

لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه . فعناية المرء بنفسه - عقلا وروحا وبدنا - لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع ان ينفع البشرية ما دام مهملًا مشتتًا لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه . وانما ينفع المجتمع الانساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر الى ماضيه وحاله ومستقبله ، فأخذ الاصول الثابتة من الماضي ، وأصلح شأنه في الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته .

فمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو رسول الانسانية كانت أول عنايته موجهة الى قومه ، وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن ان يتم اصلاح انسانية أو شعبيا الا بمراعاته فكان « أول دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - لعشيرته ، لقوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » فلما نزلت صعد الصفا ثم نادى « يا صباحاه » - وكان دعوة الجاهلية اذا دعاها

الرجل اجتمعت اليه عشيرته - فاجتمعت اليه قريش عن بكرة أبيها ، فعم وخص فقال : (أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أكنتم مصدقى) . قالوا ما جربنا عليك كذبا . قال : (فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني كعب بن لؤى ، يا بني مرة بن لؤى ، يا آل عبد شمس ، يا آل عبد مناف ، يا آل هاشم ، يا آل عبد المطلب ، يا صفية ، يا فاطمة ، سلوني من مالي ما شئتم ، وأعلموا ان أوليائي يوم القيامة المتقون ، فان تكونوا يوم القيامة مع قرابتكم فذلك ، وإياي ، لا يأتي الناس بالاعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهي عنكم فتقولون يا محمد فأقول هكذا - وصرف وجهه الى الشق الآخر - غير ان لكم رحما سابلها ببلالها ...) ثم وجه دعوته الى بقية العرب لقوله تعالى : « لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » وهم عامة العرب ، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج وما يتصل بها من اسواقهم ، ثم عمم دعوته لقوله تعالى : « لِنُذِرَ كُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » ، فكانت ملوك الامم وقد عمت دعوته العرب وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم في الاسلام ، وكان ذلك ايام هدنته مع قريش قبيل فتح مكة . ثم تجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب الى قريش والى العرب وعولجت فيها مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية ، وما كان منهم من تحريف وتبديل لملة ابراهيم ، فكان أول الاصلاح متوجها اليهم ومعنيا بهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم وضلالهم وسوء حالهم وتستنير عقولهم وتتطهر نفوسهم وتستقيم اعمالهم فيصلحوا لتبليغ دين الله وهدى رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - للامم بالقول والعمل . ثم لاجل ان يشعروا بأن القرآن هو كتاب هداية لهم كلهم ، وان الرسول لهم كلهم ، أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فعم جميع لهجاتهم ، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يخاطبهم بتلك اللهجات وينطق بالكلمات

منها ليس من لهجة قریش . وكان فى هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم اليه ويشتركون فيه . وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى : « **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** » فأخبره ان القرآن شرف له ولقومه - نزل بلغتهم ونهض بهم من كبوتهم واخرجهم من الظلمات الى النور وهياهم لهداية الامم وانقاذها من الهلاك وقيادتها لعزها وسعادتها - وانهم يسألون عن هذه النعمة . يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا ان شرفه انما هو للعالمين .

على ان العرب رشحوا لهداية الامم التى تدين بالاسلام وتقبل هدايته ستتکلم بلسان الاسلام وهو لسان العرب فينمو عدد الامة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الاسلام . علم هذا فبين ان من تكلم بلسان العرب فهو عربى وان لم ينحدر من سلالة العرب ، فكان هذا من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له . بيّن هذا فى حديث رواه ابن عساکر فى تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : (جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل « يعنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم » فما بال هذا « يعنى الفارسى والرومى والحبشى ما يدعوهم الى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه » فقام اليه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فأخذ بتلايبه (ما على نحره من الثياب) ثم أتى النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخبره بمقالته ، فقام النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - مفضبا يجر رداءه (لما أعجله من الغضب) حتى أتى المسجد ثم نادى : « الصلاة جامعة » (ليجتمع الناس) ، وقال : - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أيها الناس ، الرب واحد ،

والاب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية باحدكم من
أب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى ،
فقام معاذ فقال : فما تأمرنى بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال :
« دعه الى النار » فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل .

تكاد لا تخلص أمة من الامم لعرق واحد ، وتكاد لا تكون أمة
من الامم لا تتكلم بلسان واحد ، فليس الذى يكون الامة ويربط
اجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها الى غايتها هو هبوطها من
سلالة واحدة ، وانما الذى يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد :
ولو وضعت اخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان
وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير ،
ثم وضعت شاميا وجزائريا - مثلا - ينطقان باللسان العربى
ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب فى ذلك كله ، لو فعلت هذا
لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة فى توحيد
الامم .

فانظر بعد هذا الى ما قرره هذا النبى الكريم ، رسول
الانسانية ، ورجل القومية العربية ، فى الحديث المتقدم ، فقضى
بكلمته تلك على العصبية العنصرية الضيقة المفرقة ، فنبه على
تساوى البشر فى انهم كلهم مخلوقون لله ، فربهم واحد ، وانهم
كلهم من عنصر واحد فأبوهم آدم واحد ، وذكر بأخوة دين
الاسلام دين الاخوة البشرية والتسامح الانسانى ، ثم قرر
قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع فى تكوين الامم ،
 ووضع للامة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتتسع دائرتها
لجميع الامم التى رشحت لدعوتها الى الاسلام بلغة الاسلام . وقد
كان ذلك من أعظم ما سهل نشر الهداية الاسلامية وتقارب
عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها

وتعاونها ذلك التمدن الاسلامى العربى الذى انار العالم شرقا وغربا ، وكان السبب فى نهضة الغرب والاساس لمدينة اليوم . وبذلك أيضا كانت الامة العربية اليوم تجاوز السبعين مليونا عدا لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة .

كون رسول الانسانية ورجل القومية العربية أمتة هذا التكوين المحكم العظيم ووجهها لتقوم للاسلام والبشرية بذلك العمل الجليل . فلم يكونها لتستولى على الامم ، ولكن لتنقذهم من سلطة المسؤولين باسم الملك أو باسم الدين . ولم يكونها لتستخدم الامم فى مصالحها ، ولكن لتخدم الامم فى مصالحهم . ولم يكونها لتدوس كرامة الامم وشرفها ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد ، الى درجات العز والصلاح والكرامة . وبالجمله : لم يكونهم لانفسهم بل كونهم للبشرية جمعاء . فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم غوستاف لوبون : « لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب » ، نعم لانهم فتحو ففتح هداية لا فتح استعمار ، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد.

هذا هو رسول الانسانية ورجل القومية العربية الذى كان له الفضل - باذن الله - عليهما ، ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل ، ويتغنى العرب غير المسلمين بذكره . وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من اخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان فى الثناء عليه والاشادة بفضله .

هذا هو رسول الانسانية ورجل الامة العربية الذى نهتدى بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا ونموت عليها ، وان جهل الجاهلون ... وخدع المخادعون ... واضطرب المضطربون ...

والى اعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة لى مولده الشريف ،
الذى هو عيد الاسلام والعروبة والانسانية كلها (١). عاد الله فيه
باللطف والرحمة على الجميع (2) .

(1) كتب الاستاذ الامام هذا الموضوع المولدى على غرار موضوع « العرب
فى القرآن » تفنيذا لمحاولات المسخ والتشويه والتغريب .. التى كان يقوم
بها الاستعمارىون - خداعا وتضليلا - فهو رجل الاسلام والقرآن ، يكتب عن
العرب من الناحية التى تخدم الاسلام والقرآن ..

(2) ش : ج 3 م 12 ، غرة ربيع الاول 1355 هـ جوان 1936 م .

الى محمد أيتها الانسانية

أيها المسلمون !

أيها العرب !

أيها البشر !

أيها المسلمون ! فى مثل هذا اليوم انبثق النور الذى هداكم الله به الى الاسلام ، فأخرجكم من الظلمات الى النور وجعلكم خير أمة أخرجت للناس مادمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، فعودوا بالذكرى الى حياة هذا النبى الكريم ، فاستمدوا منها نور ايمانكم ، وجددوا بها صرح توحيدكم ، وحصنوا بها قلوبكم من جهالات الغفلة وظلمات الشرك ونزغات الشياطين ، وانظروا اليه فى نشأته ، وقبل نبوته ، كيف كان بعيدا عن حياة الجاهلية وهو بين أهله ، كيف كان يتوجه الى الله ، والعرب غارقة فى وثنياتها ، وكيف كان يحمل مما يرى من الشرك والضلال أثقالا ينوء بحملها ، حتى جاءه الحق الصريح ، والهدى البين ، والنبأ الصادق ، والرسالة العامة ، فقام بأعباء ما حمل ، مبلغا عن الخالق ، شاهدا على الخلق ، مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، فجاهد وجالد وصبر وصابر ، وقضاها ثلاثا وعشرين سنة ،

مثالا اسمى لاحسان والكمال ونورا ساطعا الاجيال ، حتى تم
الله النعمة وأكمل الدين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ،
وتركها بيضاء نقية لن يهلك عليها الا هالك . فالى هذا الطريق
أيها المسلمون ، ففيه نجاتكم وسعادتكم الى يوم الدين .

أيها العرب : فى مثل هذا اليوم ولد النبى العربى ، فتفتحت
العروبة عن زهرة ماضيها ، وبذرة مستقبلها ، فوصل الله به
مجدكم القديم بمجدكم الحديث ، وأشاع لفتكم فى الالسنة
وتفكيركم فى العقول ، وعصركم فى الامم ، فخلدتم فى
التاريخ ، خلود التاريخ ، وبقيتم على الزمن ، بقاء الزمن ،
فعودوا بالذكرى الى حياة هذا العربى العظيم ، كيف نشأ فى
صميم العروبة ، وترعرع فى أحضانها ، ودرج على الكريم
الصلب من أخلاقها ، فحذب عليها ، عمره كله ، يهديها ويحوطها
ويجمع أشتاتها ويؤلف وحدتها ، يكونها ليكون الله الامم بها ،
ويرشحها للسيادة ، لتسود بها البشرية جمعاء . فمافارق الدنيا
حتى تركها أمة شعرت بعزتها ، وعرفت غايتها ، وأخذت للحياة
عدتها ، وتقدمت للبشرية تحمل مشاعل العلم والحرية والاخاء
العام ، فمن حياة هذا العربى الصميم ، استمدوا - أيها العرب -
حياتكم ، وعلى ما شاده من ماضيكم ، ابنوا حاضركم ومستقبلكم
ومن تاريخه الحافل ، استوحوا مناهج حياتكم ، ومن سيرته
الجليلة ، اجمعوا عناصر نهضتكم ومواد بنائكم القومى ، فلسانه
لسانكم ، وقوميته قوميتكم ، وتاريخه تاريخكم ، فاتخذوه
مثلكم الاسمى فى الحياة ، تتخذكم الحياة مثلاً كنتم ، مثلها
الاسمى وقادتها الراشدين .

أيها البشر : فى مثل هذا اليوم ، ولد محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب فولدت الانسانية ولادة جديدة وأشرق على الكون
نور لم يلح من قبل ، أضاء لبنى آدم طريق العلم والعمل والحرية

والسلام فى حظيرة الاخاء العام ، فعودوا بالذكرى ، الى حياة
هذا الرجل الانسانى ، كيف ارضعته بدوية عربية وحضنته
أمة حبشية ، وتبنى مملوكا رقيقا ثم اتخذه أخا ومولى ، ثم عقد
الوية الامارة للموالى على العرب ، غير مرة ، وأدنى بلالا الحبشى
وسلمان الفارسى وصهيبا الرومى ، لفضلهم وسابقتهم على كثير
من كبراء العرب وساداتهم وذاق آلام الانسانية فى اليتيم والفقر
والفقد ، وباشر العمل فى الرعى وتاجر ، وبلا الحياة فى الشدة
والرخاء والسلم والحرب ، فقضى حياته يرفع طبقات وضعها
الظلم والجهل ، ويخفض طبقات رفعها الطغيان والمجبروت حتى
سوى بين بنى آدم ، فى الكرامة البشرية ، وأسقط اعتبار
الاجناس والالوان فى الافضلية ، وأعلن أن لا فضل لاحد على
أحد الا بتقوى الله ، فعودوا الى الاصول التى جاء بها هذا
الرجل ، انها جربت ، فصحت تجربتها ، فقد بنيت عليها مدنية ،
ما فى مدنية اليوم من خير هو من أثرها .

ولن تسعد الانسانية الا بالاحترام والتسامح والتعاون
وبالوفاء فى التعاقد .

وتلك أمهات مما جاء به ، فاتبعوه تعيشوا فى رغد آمنين (I) .

(1) البصائر العدد 164 السنة الرابعة 13 ربيع الاول 1358 هـ الموافق
ل 5 مايو 1939 م .

تحية المولد الكريم

أقيت ليلة حفلة جمعية الترية والتعليم الاسلامية بقسنطينة

حييت يا جامع الادب ورقيت سامية الرتب
ووقيت شر الكائدي من ذوى الدسائس والشغب
ومنحت فى العلياء ما تسمو اليه من ارب

* * *

أحييت مولد من به حيي الأنام على الحقب
أحييت مولده بما يُبرى النفوس من الوصب
بالعلم والآداب والـ أخلاق فى نشء عجب

* * *

نشء على الاسلام أشـ شـ بنائه السامي انتصب
نشء بحبيب محمد غـذاه أشياخ نجـب
فيه اقتدى فى سيره وإليه بالحق انتسب
وعلى القلوب الخافقا تـ اليه رأيتـه نصب
بالروح يفديها وما يُفرى النفوس من النـشب
وبخلقه يحمي حماها أو ببارقة القـضب

حتى يهود لقومه من عزهم ما قد ذهب
ويرى الجزائر رجعت حق الحياة المستلب

* * *

يا نشء يا ذخر الجزا ئر في الشدائد والكرب
صدحت بلايلك الفصا ح فعم مَجْمَعَتَسَا الطرب
وأذقتنا طعما من ال فصحي أَلَدَّ من الضرب
وأريت للأبصار ما قد قرَّرتَه لك الكتب :
« شعبُ الجزائر مسلمٌ والى العروبة ينتسب »
« من قال حال عن أصله أو قال مات فقد كذب »
« أو رام إدماجا له حرام المحال من الطلب »
يا نشء أنت (رجاؤنا) وبك (الصباح) قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل وال إحسان واصدم من غضب
وأذق نفوس الظالمين السَّمَّ يُمَزَّجُ بالرهب
واقلع جذور الخائنين من فمهم كلُّ العطب
وامرز نفوس الجامدين من فربما حيي الخشب

* * *

يا قوم هذا نشوكم والى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم والى الأمام ابناً وأب

* * *

نعمن الاولى سر الرما ن قديمنا الجم المسب
وَمَمِينُ ذَاكَ الْمَجِيدِ فِي نَسْلِ الْعُرُوبَةِ مَا نَفَبُ
وَقَدْ انْتَبَهْنَا لِلْحَيَاةِ أَخْذِينَ لَهَا الْأَهْبُ
لِنَحْلُ مَرْكَزَنَا الَّذِي بَيْنَ الْأَنْصَامِ لَنَا وَجِبُ
فَنَزِيدُ فِي هَذَا الْوَرَى عَضُوءاً شَرِيفاً مَتَّخِبُ
نَدْعُو إِلَى الْحُسْنَى وَنُوَلِّي أَهْلَهَا مِنْهَا الرِّغْبُ
مَنْ كَانَ يَبْغِي وَدُنَا فَعَلَى الْكِرَامَةِ وَالرَّحْبُ
أَوْ كَانَ يَبْغِي ذُلَّنَا فَلَهُ الْمَهَانَةُ وَالْحَرْبُ

* * *

هَذَا نَظْمٌ حَيَاتِنَا بِالنُّورِ خُطٌّ وَبِاللَّهَبِ
هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرْبِ
فَإِذَا هَلَكْتُ فَصِيحَتِي تَحْيَا (الْجَزَائِرُ) وَ (الْعَرَبُ)

(1) ش : ج 4 ، م 13 .

قسنطينة يوم الاثنين 13 ربيع الاول 1356 هـ - 11 جوان 1937 م .

القومية والانسانية

القيت ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الاسلامية
بالمولد الشريف - بقسنطينة

الحمد لله ثم المجد للمغرب
مَنْ أَنْجَبُوا لِبَنِي الْإِنْسَانِ خَيْرَ نَبِيٍّ
وَنَشَرُوا مِلَّةً فِي النَّاسِ عَادِلَةً
لَا ظُلْمَ فِيهَا عَلَى دِينٍ وَلَا نَسَبٍ
وَبَذَلُوا الْعِلْمَ مَجَانًا لَطَعَالِيهِ
فَنَالَ رُغْبَاهُ ذُو فَقْرٍ وَذُو نَشَبٍ
وَحَرَّرُوا الْعَقْلَ مِنْ جَهْلٍ وَمِنْ وَهَمٍ
وَحَرَّرُوا الدِّينَ مِنْ غِشٍّ وَمِنْ كَذِبٍ
وَحَرَّرُوا النَّاسَ مِنْ رِقِّ الْمُلُوكِ وَمِنْ
رِقِّ الْقَدَاسَةِ بِاسْمِ الدِّينِ وَالْكِتَابِ
قَوْمِي هُمْ وَبَنُو الْإِنْسَانِ كُلُّهُمْ
عَشِيرَتِي ، وَهَدَى الْإِسْلَامَ مَطْلَبِي
أَدْعُو إِلَى اللَّهِ لَا أَدْعُو إِلَى أَحَدٍ
وَفِي رِضَى اللَّهِ مَا نَرْجُو مِنَ الرَّغْبِ (I)

(1) ش : ج 3 ، م 14 ، غرة ربيع الاول 1357 هـ - فيفري 1938 م .

السياسة في نظر العلماء هي التفكير والعمل والتضحية

بهذه الابيات ختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس خطابه
التاريخي في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني لجمعية العلماء
في سنة 1937 م . (*)

أشعبَ الجزائرِ رُوحِي الفِدى لِمَا فِيكَ من عِزَّةٍ عَربيَّةٍ
بَنَيْتَ عَلَى الدِّينِ أركانَهَا فَكَانَتْ سِلاماً عَلَى البَشَرِيَّةِ
خَلَدَتْ بِهَا وَبِكُمْ خَلَدَتْ بِهَذِي الدِّيارِ عَلَى الأَبَدِيَّةِ
لَدُومُوا عَلَى العَهدِ حَتَّى الفَنَاءِ وَحَتَّى تَنالُوا الحَقوقَ السَّنيَّةِ
تَنالُونَهَا بِسِوَا عِدِّكُمْ وَإِيمانِكُم وَالنَّفوسِ الأيَّةِ
فَضَحُّوا وَهَما أَنَا بَيْنَكُمُ بِذاتِي وَرُوحِي عَلَيْكُم ضَحيَّةُ

* * *

(*) ش : ج 6 م 13 ، غرة جمادى الثانية 1356 هـ أوت 1937 م. أدرجناها
لاهميتها ولأن الاستاذ الامام لم نعرف عنه في مجال المنظوم غير ما أوردنا في
هذا الكتاب .

اشهدي ياسما

وَإِكْتُبْنِ يَا وَجُودُ	إِشْهَدِي يَاسَمَا
سَنَكُونُ الْجُنُودُ	أَنَّنَا لِلْحِمَى
وَنَفُكُ الْقِيُودُ	فَنَزِيحُ الْبَلَا
مَنْ وَفَى بِالْعُهُودُ	وَنُيْلُ الرِّضَى
كُلَّ عَاتٍ كَنُودُ	وَنُذِيقُ الرَّدَى
ذِكْرِيَّاتِ الْجُدُودُ	فَيَرَى جِيلُنَا
خَافِقَاتِ الْبُنُودُ	وَيَرَى قَوْمُنَا
لِلْعُلَا فِي صُعُودُ	وَيُورَى نَجْمُنَا
صَفَحَاتِ الْخُلُودُ	فَتَضُمُّ اسْمُنَا
هَكَذَا سَنَعُودُ	هَكَذَا هَكَذَا
وَإِكْتُبْنِ يَا وَجُودُ	فَاشْهَدِي يَاسَمَا
أَنَّنَا لِلْخُلُودُ (*)	أَنَّنَا لِلْعُلَا

(*) هذا النشيد ارتجله الاستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356 هـ بمناسبة احياء ليلة القدر ، وقد أدرجناه لاهميته .

نشر في جريدة البصائر عدد 92 بتاريخ 20 شوال 1356 هـ
24 ديسمبر 1937 م .

ملحقات

درس ختم الموطأ

كما نقله فى وقت الالتقاء بعض التلامذة وقد اجتهد
ان يؤدى اغلب المقصود .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم .
وبه ثقتي وأستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأسعد
الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله نعمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن
يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له
وان محمدا عبده ورسوله .

أما بعد ، فان خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدى محمد،
وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .

بالسند المتصل الى الامام أبى عبد الله مالك بن أنس رضى
الله عنه قال : (أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم) وبه
قال مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله
عليه وآله وسلم قال : « لى خمسة أسماء . أنا محمد، وأنا أحمد،
وأنا الماحي الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر
الناس على قدمي ، وأنا العاقب » .

* * *

السند :

روى مالك هذا الحديث مرسلا ، ورواه عنه كذلك يحيى
ابن يحيى والاكثرون ، وجاء مرويا عنه مسندا عن محمد

ابن جبير بن مطعم عن أبيه . وكثيرا ما يروى مالك الحديث مسندا ومرسلا . ولا يرسل مالك ولا يأتي ببلاغ في الغالب الا وهو على علم بمن يترك من السند ، انه محل الثقة والقبول والاعتماد . فاما اذا شك فانه يصرح بشكه . وتصريحه بالشك حين يشك يدلنا على ما عنده من العلم واليقين عندما يسكت دون ان يصرح بالراوى . ومن الدليل على أنه اذا كان على شك من الامر يصرح ما تقدم لنا قريبا في باب التعفف عن المسألة فلما روى عن العلاء بن عبد الرحمن قوله : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع عبد الا رفعة الله » قال لا أدري أيرفع هذا الحديث الى النبي صلى الله عليه وسلم أم لا .

ثم ان هذا الحديث قد جاء مسندا في الصحيحين وغيرهما .

* * *

المتن :

في قوله صلى الله عليه وسلم لى خمسة أسماء مفهومان : مفهوم الحصر ومفهوم العدد ، فأما الاول فمن تقديم الجار والمجرور ، وأما الثانى فمن لفظ خمسة ، لكن المفهومين ليسا سواء فان مفهوم العدد غير معتبر كما هو اصح الاقوال ، نعم يسئل عن وجه الاقتصار على هذا العدد اذ كان هناك غيره ، فان النبى (ص) له اسماء كثيرة قد أنهاها بعضهم الى الالف . فاقصاره هنا على ذكر خمسة لابد ان يكون لوجه اقتضى الاقتصار عليها . ووجه ذلك أنها هى التى سمي بها فى الكتب المنزلة وهى الخمسة التى يختص بها وليس لغيره الفاظها ولا معانيها كما سيتبين ، واذا كان سمي بغيرها فى الكتب المتقدمة فهذه هى الاشهر والاكثر ، وكفى بهذا الذى ذكرنا وجهها لتخصيصها بالذكر .

واما مفهوم الحصر فى قوله لى خمسة اسماء اى ليست لغيرى ،
فهو مفهوم معتبر وهو حصر صحيح ثابت من جهة المعنى ومن
جهة اللفظ .

فاما الاول فاننا نجد معانيها ليست الا له (ص) مختصا بها
بين اخوانه من الانبياء والمرسلين (ص) وهم المشاركون له فى
الكمالات ، ولكن الله يفضل منهم من يشاء بما يشاء ، لا لنقص
فى المفضل عليه ولكن لخصائص زائدة فى المفضل ، واما الثانى
فكذلك أيضا على ما سنبين .

« أنا محمد » مشتق من الحمد، والحمد هو الثناء بذكر
الكمالات والصفات الفاضلة المشتملة على ما هو من صفات
الذات أو من صفات الافعال وعلى ما هو من باب الكمالات أو
من باب الانعام . وانما يعتبر من الثناء ما كان حقا وصادقا
بمطابقته للواقع وبمطابقته لما فى القلب . ومحمد اسم مفعول
من حمد المضاعف العين وهو يقتضى التكثير فالمحمد هو ذو
الحصول الكثيرة الحميدة التى تقتضى حمده مرة بعد أخرى .
فالمحمود هو من وقع عليه الحمد ولو مرة ، واما الحمد فالذى
يكثر حمده . وهو فى الاصل صفة وقد نقل من الوصفية الى
العلمية ، وجعل دالا على الذات المسماة بهذا الاسم .

والمسمى له بهذا الاسم هو جده عبد المطلب بالهام من الله .
والالهام من الله هو ما يوفق الله اليه العبد ويهديه اليه دون
علم سابق ولا دليل ظاهر وانما هى هداية ربانية تكون بارشاد
القلب الى الشئ الملهم اليه . فهذا الاسم النبوى علم منقول من
الصفة ، وهو وان كان موضوعا للذات ، فان الواضع يلاحظ
عند الوضع معنى تلك الصفة التى نقل منها . ويدل لهذا ما
جاء ان عبد المطلب لما سئل عن تسمية ابنه بهذا الاسم ولم يكن

من اسماء آبائه وأجداده، ومن عاداتهم ان يحيوا ذكر آبائهم وأجدادهم بتسمية أبنائهم بأسمائهم. أجب انى لأرجو أن يحمده أهل الارض كلهم. فدل هذا على ان العربى الواضع للعلم الوصفى يلاحظ معناه لما كان صفة ، وبهذا يكون هذا الاسم وغيره - مع العلمية - منطويا ومشملا على الثناء عليه . ولهذا يعبر القاضى عياض بقوله : « فمن خصائصه تعالى له (ص) ان ضمن اسماءه ثناءه ، فطوى اثناء ذكره ، عظيم شكره » وما كانت الاسماء منطوية على الثناء الا مع ملاحظة ما كانت عليه قبل العلمية .

والثناء الذى يشتمل عليه هذا الاسم الشريف هو ما دل عليه من كثرة خصاله التى يحمده عليها ويكون حمده عليها متجددا . وهذا قد تحقق وهو واقع مشاهد فانه (ص) قد حمده الخلق ويحمدونه دنيا وأخرى ، فيزداد ذلك فى المواطن التى يزداد علم الناس بما أعطاه الله من كمالات وما أظهر على يده من انعامات ، ويزداد علمهم بذلك بقدر ما يزداد تقدمهم فى العلم والمعرفة ، حتى أننا نرى فى عصرنا هذا من غير المسلمين ممن ينصفونه فيذكرون من كمالاته والخير الذى أصاب البشرية على يده فيشكرونه ويكررون الثناء عليه . فاما من أهل الايمان به فهو شهير ، ثم ان الخلق كلهم يوم القيامة يحمدونه بما يشاهدون من النعم التى اعظمها وأجلها موقفه فى الشفاعة العامة فيحمدونه الحمد المتجدد المتكرر عندما يشاهدون ما لم يكونوا من قبل يعرفون .

« وأنا أحمد » وهو مشتق أيضا من الحمد غير أن فعله حمد السالم المسند الى الفاعل وهو علم منقول من اسم التفضيل والاحمد هو الأكثر حمدا من غيره، وقد علمنا أن النقل تصحبه تلك الملاحظة ، فقد سمي أحمد على اعتبار أنه أكثر الخلق حمدا

لله فالخلق كلهم يحمدون الله بلسان الحال أو بلسان المقال ، وهو أكثرهم حمدا لله على كل حال .

هذا وقد ذهب قوم الى أن أحمد من فعل حمد المبني للنائب على معنى أنه أكثر محمودية من غيره . وتنتفى مرادفته للأول بجعل الأول راجعا للكمية أى لكثرة الصفات التى يحمد عليها ، وجعل هذا راجعا للكيفية أى أفضلية ما يحمد به . والذى يقرر هذا هو الامام ابن قيم الجوزية ويقول فى تقريره « لو كان أحمد من المبني للفاعل لكان الأولى أن يسمى حمادا لانه هو الذى ينشئ كثرة الحمد » ، وهذا من هذا الامام على جلالته سهو وغفلة ، فان أحمد عندما يكون منقولا من اسم التفضيل المسند للفاعل ينشئ تفضيله على جميع الحامدين المقلين والمكثرين ، فهو الاكثر حمدا لله من كل من أقل أو أكثر . وأما حماد فانما يفيد كثرة حمده ومن كثر حمده قد يساويه أو يفوقه فيه غيره ، فاما أحمد فيفيد - خصوصا مع حذف المتعلق - أنه بلغ من كثرة الحمد الى مقام كان فيه أكثر حمدا لله من كل حامد .

على أن هنالك شيئا آخر لا بد من ملاحظته وهو أن الاسمين يراد بهما الدلالة على تكميل الله له من ناحيتين : الناحية التى يكون فيها فى مقام التعظيم والتكريم بالثناء عليه وهو ما يقتضيه اسم محمد . والناحية التى يكون فيها فى مقام الخضوع والخشوع بحمده لله تبارك وتعالى وثنائه عليه ، وهو ما يقتضيه اسم أحمد المنقول من المسند للفاعل ، فمحمد دلنا على مقامه الأول الذى يكثر فيه له الحمد ، وأحمد دلنا على مقامه الثانى الذى يكثر فيه منه الحمد ، ودلنا على أنه فى هذا المقام قد فاق سواه وكان فيه لا نظير له ، وهذا المعنى لا يمكن أبدا أن يستفاد من حماد . على أن أحمد المأخوذ من المسند الى الفاعل هو الذى

يجرى القياس ، والمتبادر الى الازهان عند سماع اسم التفضيل هو الاسناد الى الفاعل ولا يفهم الاسناد الى المفعول الا بقريته .
وحمده لله الذى فاق فيه كل حامد لا يكون الا عن إيمانه ومعرفته لكمالات الله وانعاماته ، فيقتضى انه فاق فيهما جميع الخلق والايمان والمعرفة يقتضيان الطاعات الظاهرة والباطنة فيكون قد فاق فى الطاعة جميع الخلق وبهذا كان هذا الاسم متضمنا لاكمل الثناء عليه بانه أكمل عبد لله علما وعملا .

وهذان الاسمان الشريفان مرتبان فى التسمية بهما للخلق ، والاسبق منهما عند قوم وهم الاكثرون هو أحمد وهو الذى سماه الله به فى الانجيل كما فى سورة الصف : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » ثم محمد الذى سماه به جده توفيقا من الله ، وهو اسمه فى القرآن العظيم كما فى سورة الفتح : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » فالسابق اذا هو أحمد .
والذين يذهبون الى هذا يقولون ان الترتيب بينهما فى التسمية على حسب الترتيب الذى بين المقامين المدلولين لهما ، فان-المقام الاول هو مقام عبوديته وحمده الله ، والمقام الثانى هو مقام كماله باخلاقه وصفاته وأعماله . فهو قد حمد الله أكثر الحمد فى مقام عبوديته ، فجازاه على ذلك بان كان محمودا مكررا حمده فى مقام كمالاته ، والجزاء من جنس العمل ، فهو ما كان محمدا حتى كان أحمد ، وهذا ترتيب ظاهر وجيه . ويكون وجه تقديم اسم محمد فى هذا الحديث على هذا القول أنه أشهر أسمائه وانه اسمه فى القرآن العظيم .

وذهب قوم الى أسبقية اسمه محمد وأنه سمي به فى التوراة واستدلوا على هذا بأدلة ، ونقلوا من التوراة نقولا ، ووجه التقديم لاسم محمد على هذا القول انه نظر الى أنه يوجد على فطرة الكمال ويشب على الكمالات والاخلاق الفاضلة التى يتكرر

حمده عليها . وقد حمده أهله صبيا رضيعا ، وحمده قومه شابا
سويا وسموه بالامين ، ثم لما انعم الله عليه بالنبوة كان أحمد
الخلق لله بما كان له حينئذ من العلم بكمالات الله وانعاماته .
وهو وان كان مفطورا على الايمان والعلم والكمال وقد كان
حامدا لله من يوم ادراكه ، لكن حمد النبي الرسول ليس كحمد
من لم يكن بعد نبيا رسولا . فعلى هذا النظر من الترتيب
يظهر وجه الاسبقية لاسم محمد على هذا القول .

« وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر » والمحو هو الازالة .
وفسر لنا صلى الله عليه وآله وسلم هذا الاسم دون الاسمين
السابقين لأن اشتقاقهما كاف فى ظهور معناهما ، بخلاف الماحى
فانه قد يخفى المراد منه باعتبار الشئ المحو ، ولذلك بينه
بقوله الذى يمحو الله بى الكفر .

وهذا المحو الذى كان به (ص) اما علمى واما عملى ، وقد
حصل المحو به (ص) للكفر علميا وعمليا ، فاما الاول فقد جاء
النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة
على صدقه فى كل ما جاء به من الحق والهدى والنور، جاء من
ذلك بما لم يأت به غيره ، وكل ذلك محو وازالة للكفر فى العالم
العلمى . واما الثانى فانه (ص) جاء والارض فى ظلمة من
الكفر بين ضلال أهل الكتاب ووثنية المشركين وأنواع أخرى
من كفر الكافرين ، فدعا الى الله وصبر وجاهد ، فما مات (ص)
حتى انتشر الاسلام فى جزيرة العرب كلها التى كانت سببا فى
انقاذ البشرية ومصدرا لهدايتها ، فهذا محو عملى ، ومحو آخر
وهو انه (ص) قد زويت وطويت له الارض حتى شاهد مشارقها
ومغاربها ، وقيل له انه ستبلغ دعوته الى ما زوى له منها . وقد
كان ذلك كذلك ، ففى الامد القصير ظهر الاسلام فى مشارق
الارض ومغاربها ، وانمحي سلطان الكفر ، وانهدت عروش

الجبابرة : هرش القياصرة بالشام ، وعرش الاكاسرة بالعراق ،
وتتابع المحو والازالة .

قال : يمحو الله لان الخلق انما هو لله . ويقول : بى لانه هو
السبب . ويفيد المضارع ان المحو يتجدد ، وكذلك كان ، فما
زال المحو العلمى يتجدد فما نجمت ضلالة الا وكان فيما جاء .
به حجة دامغة لها ، وما زال المحو العلمى كذلك يتجدد والاسلام
يتنشر من نفسه انتشارا لا يلحقه فيه غيره ممن ينفقون فى نشر
نحلهم الاموال الطائلة ، ويسخرون القوات المتنوعة الهائلة ،
وليس انتشاره فى خصوص الامم المنحطة بل فى الامم الراقية
والذين سبقوا اليه منها هم علماء مما يدل على أن أكبر آيات
الاسلام هى آياته العلمية الخالدة ، فالمحو يتجدد تجددا مشاهدا
مستمرًا بهذا النبى الكريم عليه وآله الصلاة والسلام .

« وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي » الحشر الجمع
وتقدير الكلام على اثر قدمي وجمع الناس على اثر قدمه كناية
عن اتباعهم له . والمعنى ان الله يجمع الناس كلهم على شريعته
جمعا تشريعيا ، فلا يقبل من احد شيئا الا باتباعه فى شريعته
والسير على اثر قدمه ، سواء أكان من أهل الملل الاخرى أو من
أهل ملته ، فلا نجاة لكافر من ضلال الكفر الا باتباع شريعته .
ولا نجاة لمسلم من ضلال البدعة الا باتباع سنته .

وفيد المضارع فى قوله يحشر أن هذا الجمع متجدد لان
شريعته دائمة وسنته باقية ، فما من جيل الا وهو مكلف بالسير
على قدمه ، وذلك معنى تجدد جمع الناس جمعا تشريعيا على
اتباعه . واسند الحشر لنفسه فى قوله الحاشر لانه الكاسب
المباشر المبلغ عن الله شرعه لعباده ، وقال يحشر ، باسناد الحشر
الى الله وحذف الفاعل للمعلم به من المعنى وسياق الكلام . لانه

هو الخالق المشرع على وزان قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَلَّوْنَهُمْ » وقوله : « أَلَلَّهُ يَتَوَلَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » .

« وأنا العاقب » هو الذى يخلف شيئا ويأتى بعده وهو صلى
الله عليه وآله وسلم جاء بعد جميع الانبياء والمرسلين عليهم
الصلاة والسلام وخلفهم . وقد جاء فى رواية مسلم مفسرا
فقال « وأنا العاقب الذى لا نبى بعده » وعند غير مسلم « الذى
لا نبى بعدى » وأفاد بالتفسير انه لا يعقبه غيره فهو خاتم الانبياء
والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

تقدم لنا فى صدر الدرس أن قوله (ص) لى خمسة اسماء
يقتضى اختصاصه بها ، وهو اقتضاء صحيح ومطابق للواقع ،
فهذه الاسماء ليست الا له اذ لم يسم الله نبيا ولا رسولا بواحد
منها ، فهو مختص بالتسمية بها من الله بين سائر اخوانه من
الأنبياء والمرسلين (ص) .

نعم قد سمي بعض العرب ابناءهم محمدا قبل البعثة بقليل
وهم نفر قليل ولم يعرفوا بنبوة ومنهم من أسلم فكان من اتباع
النبي (ص) فكان ذلك القليل النادر فى حكم العدم ، على أن
المقصود بتخصيصه تخصيصه من بين سائر الانبياء ، والشئ
انما يفضل بالنسبة لمن فى منزلته ، فمحمدا (ص) لما تذكر فضائله
وخصوصياته انما تذكر بالنسبة للانبياء والمرسلين فاذا قلنا ان
محمدا (ص) خص بكذا بهذا الاسم مثلا فمعنى ذلك اننا لا نجد
لمثله من الانبياء والمرسلين . فهذا الاختصاص اللفظى بهذه
التسمية .

وكذلك هو مختص بها من جهة معانيها ، فله من الكمالات التى
يتحلى بها والانعامات التى جعله الله سببا فيها والمواقف التى
يقفها ما ليس لغيره ، فليس ينال غيره من الحمد مثل ما يكون له ،

من الله ومن الناس ، وهو يقابل تلك النعم الربانية عليه بالحمد فلا يكون الحمد من احد مثل الذى يكون منه لله . وكفى فى هذا حديث الشفاعة الثابت المشهور فانه لما يخر ساجدا لله يفتح عليه بانواع من الحمد لم يكن يعرفها هو من قبل ، فقد بلغ فى حمده لله مقاما لم يبلغه احد . ولما يتقبل الله شفاعته العامة فى فصل القضاء يحمده أهل الموقف كلهم فى ذلك المقام المحمود ، فقد بلغ من حمد الناس له مقاما لم يبلغه غيره . فبان اختصاصه (ص) بمعنى الاسمين الشريفين محمد وأحمد دون جميع الانبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

وكذلك الاسم الثالث فانه مختص بمعناه ، واذا راجعنا تواريخ الانبياء والمرسلين (ص) فاننا لا نجد أحدا منهم محيى به من الكفر ما محيى بمحمد (ص) ، ولنقتصر على هذين النبيين الكريمين موسى وعيسى (ص) ؛ فلنتم تعرفون من القرآن ما قاسى موسى من بنى اسرائيل الذين ما جفت أقدامهم من ماء البحر حتى قالوا «أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ»، وما تقصه كتبهم يدل انهم لم ترسخ لهم قدم فى الايمان فإى محو هنا . واما عيسى (ص) فقد رفعه الله اليه وما آمن به الا افراد ثم بقيت دعوته مغمورة . وما انتشرت النصرانية المنسوبة اليه باطلا الا بعد ثلاثمائة سنة على يد ملك بيزنطا قسطنطين . على انهما (ص) لم يرسل رسالة عامة حتى يعم المحو بهما ، وانما ارسل رسالة خاصة لبنى اسرائيل كما لم يأتيا من الآيات بمثل ما أتى به لمحو كل كفر وباطل ، وكفى بآية القرآن الخالدة على الزمان المتجددة على الاجيال . فهذا يبين لكم ان المحو العلمى والعملى باكملة واشمله انما هو خصوصية له عليه الصلاة والسلام .

ولعلكم تقولون ان العرب قد ارتدت بعد موته (ص) فاين هو المحو ، فالجواب ان الردة لم تكن عامة ، فان الاكثر والاظهر

هم الدين ، ا على الاسلام والطاعة لخليفة رسول الله (ص) ولم
يبدلوا شيئا ، وطائفة كثيرة بقيت على الاسلام وانما امتنعت
من أداء الزكاة ، وهذه هي التي توقف عمر وغيره في قتالها ،
وشرح الله صدر أبي بكر لقتالها ، ورجع الصحابة (ض) اليه ،
وطائفة أخرى ارتدت عن الاسلام جملة كأصحاب طليحة وسجاح
- وقد راجعا الاسلام بعد - والاسود ومسيلمة وكان في غمار
هؤلاء المرتدين افراد من المؤمنين يقاومون وتوقفت طائفة تنتظر
لمن تكون الغلبة .

وكان السر الاكمل في هذه الردة على تفصيلها ان يتبين
للناس ان الذين اتبعوه اتبعوه لانه نبي لا لانه عربى .

لقد ثبت المحو به مباشرة في الاكثر الاظهر ، وثبت المحو
بواسطة خليفته ومن معه ممن انطبق عليهم قول الله : « فَسَوْفَ
يَأْتِيُ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » والمحو على يد هؤلاء السادة
محو به ، وهكذا كل محو يقع على يد اتباعه الى يوم الدين فهو
محو به وله مثل حسنات مباشره على قاعد السابق للخير والبادىء
به والداعى اليه .

وكذلك الاسم الرابع فهو مختص بمعناه لان الله لم يجمع
الناس جمعا تشريعيا على نبي قبله فقد كان النبي يرسل الى قومه
خاصة وأرسل هو (ص) الى الناس عامة .

وكذلك الاسم الخامس فهو المختص بختم الانبياء والمرسلين
صلى الله وسلم عليهم اجمعين .

* * *

هذه الاسماء الشريفة نأخذ منها حظ العلم وحظ العمل ، فاما
حظ العلم فقد تقدم ، واما حظ العمل فعلينا اذا علمنا معنى

اسمه محمد أن نستكثر من الاخلاق الطيبة والاعمال النافعة
والمواقف الشريفة مما ننال به الحمد من الله والناس .

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه أحمد أن نكثر من حمد الله على
نعمه نعم الخلقة ونعم الهداية فنحمده اجمالا وتفصيلا ،
ويتضمن هذا علمنا بهذا النعم وذلك يقتضى توسيع دائرة
معلوماتنا بخلقه وبشرعه . فنتناول كل ما نستطيع من العلوم
والمعارف التى توصلنا الى ذلك وتدلنا عليه .

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه الماحى أن نعمل على محو الكفر
والضلال والشر والباطل وكل ما ينهى عنه الاسلام وما ابتدعه
المبتدعون وحملوه اياه . نمحو ذلك كله من انفسنا وحيثما
استطعنا ولا سبيل الى هذا المحو الا بالعلم والعمل واظهار الاسلام
بسلوكنا فى الحياة أمام الناس فى مظهره الصادق الصحيح فاعظم
ما محى به الكفر، سلفنا الصالح، هو هديهم وسلوكهم وتطبيقهم
للاسلام تطبيقاً صحيحاً على الحياة فى انفسهم وفى غيرهم فى
جميع الاحوال .

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه الحاشر أن نتقيد بشريعته وسنته
فلا نقول ولا نعمل ولا نعتقد الا ما لا يخرج عنهما ، فيكون قولنا
دائما ما ذا قال محمد (ص) وماذا فعل وكيف كان فى مثل هذا
الموقف فى مثل هذه الحال فى كل ما نقفه من مواقف وما يعترضنا
من أحوال ، وبهذا نكون قد حشرنا أنفسنا على اثره . وعلينا ان
ندعو الناس الى اتباع شريعته وسنته بما نبين لهم من براهين الحق
وأدلة الصدق وبما نذكر لهم من مخاسنه ومحاسن ما جاء به ،
وبذلك نكون قد عملنا على حشر ما استطعنا من الناس على
شريعته، وجمعنا ما امكنا من القلوب على تعظيمه ومحبته، وفى
ذلك الخير والسعادة للناس اجمعين .

وعلينا اذ علمنا معنى اسمه العاقب وهو الخاتم ان نرد كل ما يحدثه المحدثون من زيادة فى شريعته ، ونعد كل من يأتى ذلك ويتظاهر بالاسلام دجالا من الدجاجة ، وقد اخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه يكون بعده دجاجة وكذابون وأولهم مسيلمة والمتنبئون الكذبة فلا قول الا قوله ولا هدى الا هديه ولا اسلام الا ما جاء به .

* * *

ها ان مالكا - رحمه الله تعالى ورضى عنه وجزاه عنا أحسن الجزاء - قد ختم كتابه الجليل بهذا الحديث الشريف المشتمل على هذه الاسماء النبوية الكريمة فهل هناك من نكتة ؟

ان هذا الموطا هو أقدم كتاب لنا ألفه امام عظيم من اتباع التابعين ، وهو كتاب يعلمنا العلم والعمل ، ويعرفنا كيف نفهم وكيف نستنبط وكيف نبني الفروع على الاصول ، يعطينا هذا كله وأكثر منه بصريح بيانه وبأسلوب ترتيبه للاحاديث والآثار والمسائل . وان شراح هذا الكتاب الجليل لم يوفوه حقه - فى نظرى القاصر - من هذه الناحية وهى من أعظم نواحيه .

ومما هو مشهور من ابتكار مالك فى كتابه هذا الكتاب الجامع الذى ختم به الموطا فانه نظر الى مسائل عديدة من أمهات الشريعة فى العقائد والاخلاق والآداب والاحكام وغيرها فنظمها فى سلك واحد وسماها بالكتاب الجامع وهذه الاصول التى نظمها فى هذا الباب بنى عليها من جاء بعده فروعاً وعقد عليها أبواباً كالبخارى وغيره .

وان مالكا لم يذكر فى موطئه كتاباً خاصاً بالسيرة النبوية كما فصل ذلك غيره ممن جاء بعده ، ولكنه ذكر أسماء الشريفة (ص) فكفاه ، وذكر اسمائه متضمن لسيرته (ص) فكفاه فى ذكر حياته (ص) أن يذكر أسمائه .

ولما كانت سيرته من بدايتها الى نهايتها هي المثال الصادق للشرعية كلها والسفر الجامع للدين الاسلامي كله . ختم كتابه بهذا الحديث المشتمل على هذه الاسماء المتضمنه لها . وهو كالتحصيل بعد التفصيل .

ونكتة أخرى وهو ان كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فاننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية ، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته الطيبة ، فهذا الحديث بعدما تقدمه من الكتاب كله مثل الغاية من الوسيلة .

فسيرته - صلى الله عليه وآله وسلم - هي الجامعة لمحاسن الاسلام والغاية لكل كمال .

ومن أبدع المناسبة لختم الكتاب بان كان آخر هذه الاسماء الشريفة هو العاقب ، والعاقب هو الخاتم ، عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وجميع الآل والتابعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم - سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (I) .

الاحتفال بختم الموطأ

بقلم الاستاذ
الشيخ الجيلاني بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال :

وبعد . فان من دواعي الفبطة والسرور وبواعث البهجة والارتياح أن أرف الى المسلمين كافة والى ابناء الوطن العزيز خاصة هذه البشرى الجليلة والمفخرة الخالدة بختم الاستاذ عبد الحميد بن باديس لموطأ امام الائمة ومستودع الشريعة مالك بن أنس - ض - بعد ما قضى فى خدمته وهداية الامة به درسا بضع عشرة سنة بعمل متواصل وجد جاد يحرر أسانيده ويهزئ مسانده ويرفع مراسله ويستجلى اسراره ويكتسح به غيوم البدع وضلال العقائد ، فهدب العقول وطهر النفوس وحرك الهمم وقوى العزائم وأفعم الصدور بأنوار السنة المحمدية . فانزاحت دياجى الجهل وشبه الضلال وعوارض الغفلة وعوامل الجمود واستفاقت الأمة من سباتها العميق على ضوء السنة الوهاج فاندفعت تعمل لصالح الدارين ورائدها كتاب الله وسنة رسول الله وهدى السلف الصالح .

ويسرنى جدا أن أرف هذه البشرى الثانية بختم الحديث الشريف الى القراء الكرام بعد أن يكون قد استقر فى أيديهم العدد الخاص من « الشهاب » يحمل بين جوانحه البشرى الاولى بختم تفسير القرآن العظيم مدبجة أصوله ومحررة فروعها بيراغ العالم العلامة أدينا الاكبر وكاتبنا البليغ الاشهر الاستاذ البشير الابراهيمى فهى بشرى على بشرى وخير يقفوه خير وفتح بعد فتح ونهوض بكتاب الله وسنة رسول الله يستتبع - ان شاء الله - نهوض الامة وتقدمها ماديا وأديبا اذ لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به أولها . فما أعظمها من منة وما اسبغها من نعمة .

كان ختم الاستاذ المجليل - حفظه الله - للموطا لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الثانى عام 1358 - الموافق لفتح جوان 1939 وكان الاحتفال به رائعا وطيب حديثه فى المحاضر والبوادر ذائعا ، وأريج عرفه فى المجالس والنوادر متضوعا . وسرى القارىء وصف هذا الاحتفال العظيم فيما بعد ان شاء الله .

ان من أراد أن يصلح أمة قد عششت فى اذهانها البدع ، وامتصت قوتها العقلية أدواء الجهل الفتاك، والتهمت حرياتنا سلطات المستبد، واثقلت عاتقها فوادح الخطوب، يجب عليه - قبل كل شئ - ان يعتام لعلاجها انجع الادوية وأقوى المراهم رتقا لكلومها، ولا دواء أنفع لامة هذه علتها ، وهذا مرضها من معالجتها بكتاب الله، وتضميد جراحاتها بسنة رسول الله ، فهما ترياق كل علة وبلسم كل مرض .

وقد ظهرت على الامة الجزائرية - والحمد لله - علائم الشفاء وطلأع الابلال وبوادر الصحة بعدما قضى هذا الحكيم النطاسى

فى معالجتها بكتاب الله وسنة رسوله ، ردحا من الدهر بذل فيه جهده وروحه ، يتتبع هذه الادواء ويتقصاها فى كل حاضرة وفى كل قرية، فى كل سهل وفى كل جبل، يقتل البدعة ويحيى السنة، يطارد الجهل ويحارب الامية، يميت اليأس من النفوس ويبعث فيها الامل، يغشى البلدة أو القرية وقلوب أهلها متفرقة وأهواؤها متشاكسة وآراؤها متضاربة فلا يبرحها الا والقلوب مجتمعة، والاهواء متحدة، والآراء متعاضدة، شعارها الوحيد قوله جل شأنه « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » .

ولعل ابلغ الظواهر دلالة يقظة الامة وتفشى روح النهوض فى افكار أبنائها وسريان الهداية النبوية فيها . ذلك التطور الفكرى الذى نراه يزداد يوما فيوما بالرغم من العراقيل المنصوبة فى سبيله والسدود المضروبة لايقافه . ولكنه تيار إلهى قوى فاض على النفوس لا يمكن ايقافه — ان الله بالغ امره — ولو كره الكافرون .

فختتم كتاب الله وسنة رسول الله فى هذه الديار التى حل فيها الطارئ محل الاصل، والسالب محل الكاسب، والدخيل محل الاصيل، على ضرب من الاسلوب يشرح — بحق — فصول الحياة المعقدة للامة ويوضح لها مناهج السلوك ويأخذ بيدها فى طريق لاحب وصراط سوى . هو ختم مؤذن بختم عصر الجمود والركود واقبال عصر النهوض والتقدم .

الحديث الشريف هو المصدر الثانى — بعد كتاب الله — للتشريع الاسلامى وهو البيان الشافى والتحليل الفلسفى لكتاب الله، قال تعالى : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» وتبيينه يكون بأقواله — ص — وافعاله وتقريراته، فالصد عن الحديث صد عن الذكر الحكيم والانحراف عنه انحراف عن شرعة القرآن الكريم .

ولقد نال الحديث الشريف من العيف والاعراض ما نال
القرآن العظيم فقد انصرف الناس عنه انصرافهم عن القرآن
وضلوا متشبهين بكتب ملئت بالاقوال الجدلية والمماحكة اللفظية
والالغاز التركيبية التي لا تجدى نفعا .

وبعد فان الموطأ الذي نحن بصدده الحديث عنه هو من أصح
كتب الحديث وأعمها نفعا لما اشتملت عليه من صحيح الاخبار
وبالغ الاثار. قال الشافعي - ض - ما على ظهر الارض كتاب
بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك . وفي لفظ ما وضع على
الارض كتاب هو أقرب الى القرآن من كتاب مالك - ولاحظ انها
شهادة الشافعي - وقال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح
الترمذي : (الموطأ هو الاصل واللباب ، وكتاب البخاري هو
الاصل الثاني في هذا الباب وعليهما بنى الجميع كمسلم
والترمذي) وقد شمله مالك - ض - بعناية عظيمة واحتفام
كبير فاجال فيه يد التهذيب والتنقيح حتى أخرجه على هذا
الاسلوب العجيب والشكل الجميل من حسن الترتيب وسهولة
التعبير واتقان الوضع واجادة الصنع وصحة الخبر وغزارة الاثر
ذكر ابن الهباب أن مالكا رحمه الله روى مائة ألف حديث جمع
منها في الموطأ عشرة آلاف ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة
ويتخير بالآثار والاخبار حتى رجعت الى خمسمائة . وقال
سليمان بن بلال لقد وضع مالك الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث
أو أكثر ومات وهي ألف حديث ونيف يخلصها عاما فعاما بقدر
ما يرى انه أصلح للمسلمين وأمثل في الدين .

وقال سعدون الورجيني من قصيدة في فضل الموطأ :

فبادر موطأ مالك قبل فوته
فما بعده - ان فات - للحق مطلب

ودع للموطأ كل علم تريده
فان الموطأ الشمس والعلم كوكب

هو الاصل طاب الفرع منه لطيبه
ولم لا يطيب الفرع والاصل طيب

هو العلم عند الله بعد كتابه
وفيه لسان الصدق بالحق معرب

لقد اعربت آثاره ببيانها
فليس لها في العالمين مكذب

هذه شذرات من كلام الائمة نظما ونثرا في فضل الموطأ
تبين لنا انها اعظم كتاب في السنة الشريفة وأجل تراث خلفه
لنا مالك - ض - وجزاه عن الاسلام خيرا . فخدمة هذا الكتاب
خدمة لكتاب الله ونشر لهداية رسول الله وتعميم لما انطوى
عليه من خيرات وأسرار بين المسلمين . وقد قام بهذا العمل الجليل
وفاز بهذا الاجر الجزيل استاذنا الجليل عبد الحميد بن باديس
رعاه الله وجزاه باحسن ما يجازى به . عباده المخلصين .

أسلوب الاستاذ الحكيم في التدريس :

الاساليب ثلاثة أسلوب علمي ، وأسلوب خطابي ، وأسلوب أدبي ،
وأبرع الناس فصاحة وأقواهم عارضة وأبلغهم تأثيرا في النفوس
وأشدهم أخذا بمجامع القلوب وأقدرهم استيلاء على العقول
الجامحة والاهواء المستعصية . من رزق المقدرة على هذه الانواع
ووهب ملكة التمييز بينها والاقترار عليها فكان أسلوبه في
التدريس غير أسلوبه في الخطابة واسلوبه فيهما غير اسلوبه في
الادب ، ثم كان في كل واحد من الثلاثة أقدر على التعبير وامهر
في التصوير واحذق في التقرير ، فلا تعجزه عبارة ولا يفوته
مراد .

والاستاذ الحكيم رجل آتاه الله ما كان به موصوف تلك الصفات ومنعوتها ومبتدأها وخيرها . يصوغ المعاني الفزيرة في الجمل القليلة النبيلة قد خرجته بلاغة القرآن وفصاحة الحديث والجيد من كلام العرب منظومه ومنثوره .

من ابرز صفاته في التدريس - بل وفي الحديث المعتاد - العربية الفصحى فلا يجنح للعبارات العلمية ليستعين بها ولا الكلمات الدورية التي يعتادها بعض المدرسين في كلامهم . وأما أسلوبه في التفسير والحديث فهو بأسلوب الاستاذ الامام محمد عبده أشبه واليه أقرب وأبرز ميزاته فيهما التطبيق والتحقيق وسوق العبر وصوغ العظات .

وصف الحفلة الرائعة بختم الموطن :

قبل الاحتفال وجهت مراسيم الدعوة الخاصة للعلماء والادباء والاعيان من عمالة قسنطينة مصحوبة ببيان الزمان والمكان، وتألقت لجنة أدبية للنظر في شؤون الحفلة وكانت متشكلة من : الاديب الناشط السيد أحمد بوشمال مدير مجلة (الشهاب) الغراء، وأساتذة مدرسة التربية والتعليم، وكاتب هذه السطور وفي قاعة مكتب المدرسة قررت اللجنة برنامجها الادبي مساء يوم الاثنين على الساعة الثامنة .

وما كادت الشمس تجنح للغروب أصيل يوم الاربعاء حادى عشر ربيع الثانى حتى تقاطرت وفود الدعوة على مدرسة التربية والتعليم المحروسة حيث وجدوا اخوانهم القسنطينيين ينتظرون قدومهم السعيد بمزيد التشويق، فتهللت الوجوه، وتفتحت الشفاه ببسمات المودة واللقاء، ونطقت الالسنه بالتحيات المباركة والترحيبات القلبية، وتعانقت الارواح قبل الاشباح، وتكاملت الوفود فى المدرسة، وبعد أداء صلاة المغرب انبرى أهالى

قسطنطينة المضاييف الكرام يتنافسون في تكريم ضيوفهم - كما هي عادتهم - فذهبوا بتلك الوفود الكريمة النازلة على الرحب والسعة الى بيوتهم لتناول وجبة العشاء . وما كاد مؤذن العشاء يعتلى المنار حتى تكاملت تلك الوفود المكرمة في الجامع الاخضر المعمور حيث يؤدون صلاة العشاء ويسمعون بعدها درس الختم من الاستاذ الحكيم . وبعد الفراغ من الصلاة وضع كرسى الدراسة في وسط الجامع وحلق حوله الوفود والمستمعون وانتظمت الصفوف الامامية من العلماء والادباء . ولما اتسقت قلائد الحلقات واكتمل نظام الصفوف وعلت السكينة وساد السكوت كان على الرؤوس الطير، طلع الاستاذ من مقصورته كالبدر ليلة تمامه في موكب من الجمال الالهى والجلال النبوى ، فاشرابت الرؤوس لطلعتة المباركة وتطلعت النفوس وخفقت الافئدة فى الصدور خفقة السرور فاعتلى كرسى الدراسة وانشأ ينشر على مستمعيه الكرام تلك الدرر الغالية والحكم المبالغة بفصاحة نادرة وبلاغة ساحرة ونبرات موسيقية تمتزج بالارواح امتزاج الماء بالراح ، فهز النفوس بعظاته (الحسنية) وخلص العقول بتحقيقاته العلمية وابحاثه النفيسة .

استغرق فى الدرس نحو ساعة ونصف مرت كلمح البصر من شدة فناء الارواح فى لذة الدرس واغرق النفوس فى الاصغاء - واللذائذ الروحية اوسع من الزمن - وختم الاستاذ درسه بدعوات مأثورة وتلى على الحاضرين آخر ما كتب بنسخة الموطأ اليدوية الاثرية فبين أنها مكتوبة بخط صاحبها فى القرن السابع الهجرى فيما أظن - .

ولما انتهى الدرس وصداه يتردد فى النفوس ومعانيه السامية تملأ فضاء القلوب، أمر الناس بالجلوس فى أماكنهم فقدمت اليهم صحون الزلابيا التى تبرع بها الكريم الخير المفضال السيد

الحاج حموش، فتناولوها شاكرين مسرورين هاتفين بحياة العلم والعلماء .

ثم بالغ القسطنطينيون الكرام فى الحفاوة والتكريم فتقدموا لسائر الحاضرين بمضخات ماء الزهور فضمخوا الجميع حتى عبقت الروائح وامتزج مسك الختام بطيب اللوئام . ثم خرجت تلك الجماعات المباركة - وعبارات الشكر والثناء - ملء الافواه - تتهادى فى انهج المدينة الجميلة قاصدة مدرسة التربية والتعليم المرعية حيث تجدها مفتحة الابواب مهياة الاقسام مفسوحة الردهات والجوانب مزينة بالاضواء تتوسط هالتها الجميلة ثريا كهربائية عظيمة قلبت ليلها نهارا وجدرانها نضارا هنالك - وقد ذهب الهزيع الاول من الليل - اقيمت للوفود الكريمة حفلة أدبية شيقة هدرت فيها شقاشق الخطباء وصدحت بلابل الشعراء وسالت فيها أحاديث الانس الممتعة، وكان المشرف على الحفلة كاتب هذه الجمل بالحاج من زميله الاديب السيد أحمد بوشمال فصعد منبر الخطابة وارتجل كلمة وجيزة باسم طلبة الجامع الاخضر المعمور رحب فيها بالزائرين، ونوه بأعمال الاستاذ الجليلة وأياديه البيضاء، ثم أخذ يقدم اخوانه الخطباء والشعراء واحدا فواحدا فتقدم الاديب السيد محمد الفسىرى الاستاذ بالمدرسة المذكورة فالقى خطبة بارعة هز بها النفوس هزات وأثار حماسها كرات، وتلاه الاديب السيد محمد الصالح رمضان الاستاذ بالمدرسة المذكورة أيضا فالقى قصيدة كلها عيون بعد ما مهد لها بكلمات كلها شذرات، ثم تلاه الشاب الظريف الاديب السيد محمد الطاهر الورتلانى فالقى خطبة نفيسة شنف بها الاسماع وامتع النفوس، ثم تلاه الاستاذ عمر بن البسكرى المدرس بمدرسة الفتح بسطيف فالقى قصيدة رنانة أعيد بعض أبياتها لمزيد حسنها ، ثم تلاه خفيف الروح الاستاذ الاديب

عباس بن الشيخ الحسين فارتجل خطابا حماسيا اثار به كوامن
الحماس في النفوس ثم تلا الجميع العالم العلامة المؤرخ الكبير
الاستاذ مبارك الميلي مدير جريدة « البصائر » الفراء فارتجل
خطابا بليغا قارن فيه بين مكانة العلماء من نفوس العامة اليوم
ومكانتهم من نفوسها بالامس اعنى قبل الاصلاح وبعد الاصلاح،
فجاء بتحقيقات جليلة وتعليلات صائبة وابحاث دقيقة، شأنه في
كل المواضيع فاجاد وافاد وكان المنتظر ان يكون خاتمة الخطباء
لكن قام بعده التلميذ النجيب السيد محمد المديني فارتجل كلمات
حماسية حمل فيها على قانون 8 مارس المشؤوم وما شاكله من
قوانين الظلم والفساد، وتلاه الاخ البصري فارتجل كلمات
نفيسة هي الى الفلسفة الروحية اقرب، ثم ختمت الحفلة بكلمة
شكر وتقدير من كاتب هذه السطور ثم وزعت المشروبات على
الحاضرين .

هذه صورة مصفوفة لهذه الحفلة الرائعة ولو صادفت قلما سيالا
وفكرا فسيحا لأبرزها في أبهى حللها وأجمل مناظرها .

(1) ش : ج 7 ، م 15 - رجب 1358 هـ - اوت 1939 م (بتصرف) .

المصلحون والسنة

تقوم الدعوة الاصلاحية على أساس الكتاب والسنة فلا جرم كان رجالها من المعتنين بالسنة القائمين عليها رواية ودراية الناشرين لها بين الناس ومن عنايتهم تحريمهم فيما يستدلون به ويستندون اليه منها فلا يجوز عليهم الا ما يصلح للاستدلال والاستناد ولا يذكرون منها شيئاً الا مع بيان مخرجه ورتبته حتى يكون الواقف عليه على بينة من أمره مما لو التزمه كل عالم - كما هو الواجب - لما راجت الموضوعات والواهيات بين الناس فافسدت عليهم كثيراً من العقائد والاعمال . ونحن ننشر إثر هذا حواراً دار بين مصلحين يدل على ما ذكرناه في المصلحين من الاعتناء والتحرير :

ميلة في 10 رمضان 1354 هـ

* * *

المعلم النصوص والمتعلم البحاثة الاخ الشيخ الفضيل الورتلاني السلام عليكم ورحمة الله . منذ يومين وقع بصرى فى خاتمة الجزء الاول من الحاوى للفتاوى فتاوى السيوطى على هذا الحديث :

روى الحاكم فى المستدرک وصححه والبيهقى فى شعب الايمان عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تنزلوهن الغرف . ولا تعلموهن الكتابة . يعنى النساء . وعلموهن الغزل وسورة النور) .

فذكرت انك كنت سالتني عنه فلم تجد عندي علما به . واليوم
لما وقفت عليه ورأيت أن الحاكم صححه ظهر لي ان ابحت عنه .
فان الحاكم على جلالته في علم الحديث لا يعول كثيرا على تصحيحه
حتى ان النقاد قالوا لو لم يؤلف المستدرك لكان خيرا له .

طالعت فهرست كتاب « حسن الاسوة فيما ثبت من الله
ورسوله في النسوة » لصديق خان فلم أجد مبحثا يناسب هذا
الحديث . وتتبعته خاتمه التي خصها لذكر الاحكام الخاصة
بالمرأة . فلم أجد هذه المسألة . ورجعت الى التفاسير . فوجدت
البغوى قد روى آخر سورة النور هذا الحديث بسنده الى محمد
ابن ابراهيم الشامي قال حدثنا شعيب بن اسحق عن هشام
ابن عروة عن أبيه عن عائشة . فذكره .

هنا رجعت الى ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي لأتعرف هل
في هذا السند ضعف . فألفيته يذكر في ترجمة محمد
ابن ابراهيم الشامي عن الدارقطني انه كذاب . وعن ابن عدي
أن عامة احاديثه غير محفوظة وعن ابن حبان انه لا تحل الرواية
عنه الا عند الاعتبار كان يضع الحديث . ثم خرج له أحاديث
منها حديثه عن شعيب ابن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه
عن عائشة . فذكره كما أورده السيوطي الا قوله يعنى النساء .

والظاهر ان الحاكم رواه من طريق هذا الشامي لانه لو كان
له متابع في هذا الحديث لم يورده الذهبي في ترجمته ولم
يصح قول ابن عدي ان عامة احاديثه غير محفوظة . ولو كان
عندنا المستدرك لاسترحنا من هذا الخرص . وبعد فلنكتف
بما لدينا ولا نقف ما ليس لنا به علم . والسلام عليكم من
اخيكم « مبارك بن محمد الميلي » .

ش : ج 1 ، م 12 غرة محرم 1355 هـ ابريل 1936 .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة شكر وتقدير

حضرة الشيخ عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد ؛

فقد تلقى الشعب الجزائري كتاب « مجالس التذكير »
بابتهاج واغتراب .

وانى - باسمى الخاص ونيابة عن أسرتنا - أشكر
لوزارتكم الموقرة هذه الجهود التى تبذلها من أجل احياء
الثقافة الاسلامية ، ونعلن لكم - سيدى الوزير - عن
امتناننا ، بما أصدرته وزارتكم وما تعتزم اصداره من
آثار الاستاذ الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس ، نشرها
للوعى الاسلامى الصحيح ، وخدمة للصالح العام ، داعين
لكم بالتأييد ، ودوام التوفيق .

وتقبلوا - سيدى الوزير - فائق الشكر والتقدير .

حرر بتاريخ 22 جمادى الثانية 1403 هـ
الموافق لـ 06/أفريل 1983 م

المخلص : عبد الحق بن باديس



أخو الامام وتلميذه

الفهرس

* * *

9	مقدمة
25	اقسام الكتاب
27	مجالس التذكير
29	خطبة الافتتاح
مجالس التذكير من حديث البشير النذير :	
33	الآية الخالدة لنبوة خاتم الانبياء والمرسلين (صلعم)
38	التوجه الى الله برسول الله (صلعم)
48	فضل السجود والحث عليه
54	اتباع رمضان بستة من شوال
60	اثر النيات فى الاعمال
68	مجالس العلم - الاقبال عليها والامراض عنها
71	تعلم اللغات المحتاج اليها
74	لا لوم على من صدق المتاب
78	من رغب عن سنتى فليس منى
83	لا يحزم لاحد انه من أهل الجنة الا بنص من الشارع
88	لتفسير السواد
91	دعوى الجاهلية أو الكلمة المنتنة

95	الشرك والوثنية ودعوى النبوة
99	اتحاد المؤمنين وتعاونهم
103	قيمة الرجل بقيمة قومه
105	انما يؤخذ الدين من العلماء
109	كلمات الشرك
115	الصدق والكذب اين يهدى كل واحد منهما
121	الراعى الغاش لرعيته
125	التستر بالنقائص
129	تفاوت الصدقات
132	السيادة فى البر لمن ساد فى البحر
137	الصحة والفراغ
141	نظام الغذاء
146	نظافة الطرق والمجالس
149	بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة
152	لعن من اتخذ المساجد على القبور
153	النهى عن البناء على القبور
154	بناء المساجد على القبور من شرارة الخلق عند الله يوم القيامة
155	تاكيد النهى عن اتخاذ القبور مساجد
156	من اتخذ القبور مساجد : الصلاة اليها

157	حل النساء في العلم
159	تعلم النساء الكتابة
162	خير النساء
166	النساء والكمال
170	ستر وجه المرأة من الدين
175	خروج النساء الى المساجد
178	تحريم الخلوة بالاجنية خصوصا الاقارب
180	على رسلنا . انها صفة

احاديث في المراض مختلفة :

187	العلم وفضله
188	السنة والبدعة
189	من اسد الى اسد
191	العلم وتعلمه
192	العلم وتعليمه
192	العلم وتعليمه بالمساجد
194	العلم واحترام أهله
194	شكوى علماء الدين من الارذال المفسدين
196	حكم طلب العلم
197	براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن غير دينه

200	الترغيب في الذكر
200	ما هو الذكر ؟ ومن هو الذاكر ؟
202	هل ينفع الذكر مع تعدى حدود الله ؟
203	الحث على تعلم القرآن
204	الاعتصام بكتاب الله
206	مدح العامل بالقرآن
207	ذم المباهى والمتعيش بالقرآن
208	الغاية من قراءة القرآن
209	معنى ليلة القدر
211	معنى خيرية ليلة القدر
211	الدعاء ليلة القدر
212	علامات ليلة القدر

موضوعات متصلة بالسنة :

217	(1) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
222	(2) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
227	(3) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
232	(4) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
238	(5) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
243	(6) الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

247	7) الصلاه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
250	الدعاء : منه عادة ومنه عبادة
256	تبليغ الرسالة
262	المرأى
264	أعظم قائد يرجع الى رأى جندى
266	خلوا بينى وبين ناقتى
269	كن خير آخذ
271	رقية الله
274	الفن الادبى فى الحديث النبوى
279	رسول الله يشتم بين أيدينا ويهان !

موضوعات متصلة بصاحب السنة صلى الله عليه وسلم :

287	ذكرى المولد النبوى الكريم فى (نادى الترقى) بالعاصمة
296	على ذكرى المولد النبوى الشريف : (التجدد فى كل مولد)
298	محمد صلى الله عليه وسلم رجل القومية العربية
304	الى محمد ايها الانسانية
	نحب المولد الكريم (القيت ليلة حفلة جمعية التربية والتعليم
307	الاسلامية بقسنطينة)

القومية والانسانية :

310	القيت ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الاسلامية بقسنطينة
-----	---

311 السياسة في نظر العلماء هي التفكير والعمل والتضحية

312 اشهدى يا سماء

ملحقات :

315 درس ختم الموطأ

329 الاحتفال بختم الموطأ - (الشيخ الجيلاني محمد)

338 المصلحون والسنة



كلمات خالدة

«لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم ؛ فانما العلماء من الامة بمثابة القلب ، اذا صلح صلح الجسد كله ، واذا فسد فسد الجسد كله ، وصلاح المسلمين انما هو بفقههم الاسلام وعملهم به ؛ وانما يصل اليهم هذا على يد علمائهم ، فاذا كان علماءهم أهل جمود في العلم ، وابتداع في العمل ، فكذلك المسلمون يكونون . فاذا أردنا اصلاح المسلمين ، فلنصلح علماءهم .

ولن يصالح العلماء الا اذا صلح تعليمهم . فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته ، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره ، فاذا أردنا ان نصلح العلماء فلنصلح التعليم ، ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الاسلام ، يأخذ عنه الناس دينهم ، ويقتدون به فيه .

ولن يصلح هذا التعليم الا اذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه ، في مادته وصورته ، فيما كان يعلم - صلى الله عليه وآله وسلم - وفي صورة تعليمه ، فقد صح عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما رواه مسلم انه قال : « انما بعثت معلما ... » .

الامام عبد الحميد بن باديس

الشهاب : الجزء 11 - المجلد 10

رجب 1353 هـ - اكتوبر 1934 م

5600

